

عاشقانه



Bibliotheca Alexandrina



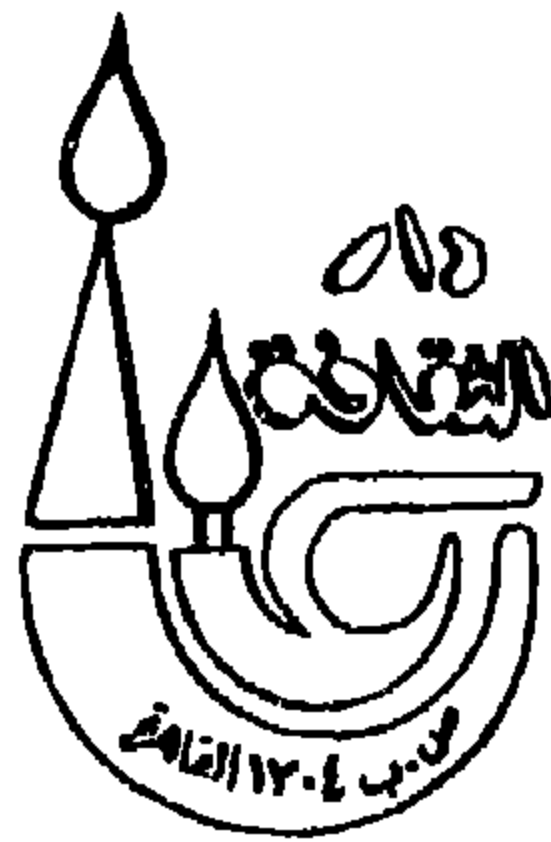
0018483

المصلح مارتن لوتر حياته وتعاليمه

بحث تاريخي عقائدي لاهوتي

يقدمه

الدكتور
القس حنا جرجس الخضرى



صدر من دار الثقافة المسيحية ص.ب ١٣٠٤ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة
نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر
وحده حق إعادة الطبع) ٣٨٨/١٠ ط ١ (أ) ٨٣/ (٥ - ٥)
رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٣٧٠٠ دولى رقم ٩ - ٠٢٠ - ٩٧٧/١٦٦
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

اهداء

● الى هذين الكنزين العظيمين اللذين
منحهما لنا الرب لور (فوزيه) وعمانوئيل
(فرح) حنا جرجس الخضرى

أهدى هذا الكتاب

● A CES DEUX TRÈSORS QUE
LE SEIGNEUR NOUS A
DONNÉS, LAURE (FAWZIA) ET
EMMANUEL (FARAH) HANNA
GUIRGUIS EL-KHOUDARY. JE
DÈDIE CE LIVRE.

فهرس الكتاب

٣	اهداء
٧	المقدمة
١١	الفصل الأول : ميلاده
	الوسط الذى نشأ فيه مارتن لوثر
	عماده
	حياته العائليّة
	حياته المدرسية
	مارتن فى مدرسة مجد بوج
	مارتن فى مدينة أبنناخ (أو اسناخ)
٢٥	الفصل الثانى : مارتن الطالب فى جامعة أرفورت
٣١	الفصل الثالث : الاستاذ مارتن لوثر يترك الجامعة وينزوى فى الدير
٣٥	الفصل الرابع : الاستاذ لوثر يصبح راهبا أغسطينيا
	سيامته كاهنا
	شعاع نور فى ليل حالك الظلام
	مشكلة الخوف من الله ومن الخطية
٤٧	الفصل الخامس : عودة لوثر للتدريس
	لوثر فى روما
٥٣	الفصل السادس : الاكتشاف العظيم لعقيدة التبرير بالايمان
٥٩	الفصل السابع : صكوك الغفران
٧٣	الفصل الثامن : ماذا عملت يالوثر ؟
	بدء القضية
٧٧	الفصل التاسع مجمع هيدلبرج

٨١	الفصل العاشر : لوثر أمام الكاردينال كاجتان
٩١	الفصل الحادى عشر : حوار مفتوح فى مدينة ليبزج
٩٩	الفصل الثانى عشر : انفصال لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية
١٠١	الفصل الثالث عشر : كتابات لوثر العظمى
	المنشور الأول : أو المكتوب الأول الى الأمة المسيحية الالمانية النبيلة
	المكتوب الثانى : السبى البابلى للكنيسة
	المكتوب الثالث : الحرية المسيحية
١١١	الفصل الرابع عشر : فورمس « بوتقة التجربة »
١٢٣	الفصل الخامس عشر : قلعة فارتبوج والفارس جورج
١٢٩	الفصل السادس عشر : عودة المصلح فى فيتمبرج
١٣٣	الفصل السابع عشر : ثرة الفلاحين
١٣٩	الفصل الثامن عشر : زواج الراهب مارتن لوثر
١٤٥	الفصل التاسع عشر : صعوبات فى وجه الكنيسة الناشئة
	زيارة لوثر وملانكتون لبعض الكنائس
١٤٩ ...	الفصل العشرون : اجتماع مجلس الأمة (الدايت) فى سبيرس (أو سبير) ودعى ...
	اللوثريون بروتستانت فى سبيرس أولا (أع ١١ : ٢٦)
	اجتماع ماربورج ومشكلة العشاء الربانى (الافخارستيا)
١٥٣	الفصل الحادى والعشرون : مجمع أوكسبورج سنة ١٥٣٠ كاثوليك وبروتستانت .
١٥٧	الفصل الثانى والعشرون : وان مات يتكلم بعد
١٦٣	الفصل الثالث والعشرون : بعض الأمثلة من تعاليم لوثر
	مفهوم الكرستولوجى
	العشاء الربانى (الافخارستيا)
١٧٥ ..	الفصل الرابع والعشرون : ما موقف الكنيسة الكاثوليكية والعلماء الكاثوليك من ..
	لوثر الآن ؟

مقدمة

مارتن لوثر

من هذا الرجل ؟ هل كان محقا في صراعه ونضاله ضد البابا وضد الامبراطور وضد بعض الامراء والرؤساء الكاثوليك ؟ هل كان مخطئا أو محقا في قيامه بحركة الإصلاح ؟ هل كان هرطوقيا أم أرثوذكسيا في عقائده وتعليمه ؟ هل كان البابا محقا أم مخطئا في حرمانه للوثر ؟ هل كان الإصلاح بركة أم نقمة للعالم ؟

سنحاول أن نجيب على هذه الاسئلة وأسئلة أخرى سوف تواجهنا اثناء دراستنا لهذا الكتاب . ولنبدأ بالسؤال الأول وهو لماذا كتب هذا الكتاب ؟

١ - سوف يحتفل العالم المسيحي البروتستانتي كله في شهرى اكتوبر (تشرين الأول) ونوفمبر (تشرين الثاني) بمرور خمسمائة سنة على مولد المصلح الالماني ، الذى ولد في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٣ م . ومع أن كنيستنا الانجيلية في مصر هى كنيسة انجيلية مشيخية الا انها تدين أولا للرب يسوع المسيح بكل شئ ، وتدير للوثر وللوثرية باشياء كثيرة .

٢ - أن احتفالنا بمناسبة مرور خمسمائة سنة على ميلاد المصلح الانجيلي ، لايعنى بأى حال من الأحوال أن الكنيسة الانجيلية تقدس الاشخاص ، أو تقدم عبادة خاصة لهؤلاء القديسين (٢ كو ١٣ : ١٤ في ٤ : ٢١ ، اتس ٥ : ٢٧) بل تحاول أن تنظر الى جهادهم واعمالهم ، فتسير في نفس الطريق الذى سلك فيه هؤلاء (عب ١٣ : ٧) . متجنبه على قدر الإمكان الاخطاء التى سقطوا فيها ، مقدمة المجد والكرامة لشخص الرب يسوع الذى حفظهم بنعمته شهوداً أمناء .

٣ - كما أن الكنيسة في احتفالها بهذه المناسبة لا تريد أن تجرح الاخوة الاحباء من أى كنيسة أخرى لا توافقها في رأى ، أو العقائد ، فليس هذا هدف الكنيسة الانجيلية بل أن هدف كاتب هذا الكتاب هو :

٤ - أن يقدم دراسة ايجابية بقدر المستطاع عن شخصية المصلح الالماني ، محاولاً فيها أن يبين الظروف التاريخية والسياسية والدينية التى كانت تعيش فيها الكنيسة الكاثوليكية

والمصلح . فكم من المرات قدمنا نحن البروتستانت انتقاداتنا اللاذعة القاسية لموقف البابا ليون وموقف الكنيسة الكاثوليكية عامة في قضية لوثر دون تفهم للتيارات الخفية السياسية التي لعبت دوراً هاماً في هذه القضية . ولا أريد بهذا أن أبرر البابا في حرمانه للوثر . لكنني أريد أن أقول فقط ان لوثر قد عاش في فترة تاريخية معقدة .

٥ - ويتمنى الكاتب من كل قلبه أن يكون هذا الكتاب دافعاً وحافزاً للكثيرين على دراسة حياة لوثر والفترة التي عاش فيها على ان تكون الدراسة علمية مجردة من الخلفيات التي يحتفظ بها كل منا كاثوليكي أو أرثوذكسي أو بروتستانتي ، عن المصلح وعن تعاليمه . ربما وصلت الى بعضنا بطرق غير علمية وغير محايدة .

٦ - لهذا السبب فقد حاولت أن أقدم بعض المراجع سواء على صفحات الكتاب نفسها أو في قائمة المراجع حتى يستطيع الشخص الذي يريد التعمق في دراسة حياة وتعاليم لوثر أن يجد بعض المراجع التي تساعد على الأمام بهذا الموضوع .

٧ - ومع أن لوثر قد استعمل في بعض الأحيان ، ألفاظاً وعبارات قاسية جارحة في وصفه للبابا ، ونحر نأسف كثيراً لهذا التطرف . إلا أن شخصية لوثر وتعاليمه يمكن ان تكون مادة - نية لاثارة حوار بناء يقود الى وحدة قوية بعد انفصال طويل لأن كثيرين من العلماء الكاثوليك في الوقت الحاضر يعترفون بان كنيسة وباباوات العصور الوسطى والعصر الذي عاش فيه لوثر يختلفون عن باباوات وكنيسة العصر الحالي ، خاصة بعد مجمع الفاتيكان الثاني .

٨ - كان لوثر يكن للبابا كل حب وتقدير واحترام ولم يغير فكره في ذلك الا بعد التأكد من أن البابا كان يسعى للقبض عليه ومحاكمته كهرطوقي .

٩ - لم يهاجم لوثر الكنيسة ولم يحاول ان يهجرها لأنه كان يرى فيها أما ، فكان يسعى دائماً لاصلاحها من الداخل .

١٠ - ومع ان لوثر قد هاجم سلطة البابا وسلطة المجمع ، إلا أن سلطة المجمع ما زالت موضوع جدل ونقاش بين الكنائس التي تؤمن بهذا السلطان الا أن لوثر كان متمسكاً ليس فقط بالكتاب المقدس وحده ، بل قبل أيضاً اقوال الآباء التي لا تتعارض والكتاب المقدس . وقد اكتشف أن القديس أغسطينوس قد أدرك موضوع التبرير بالايمان بطريقة تشبه الى حد كبير ادراكه لهذه العقيدة ؟!! ألم يحث هو نفسه ايضاً الرهبان في مدينة هيدلبرج على دراسة الكتب المقدسة وتعاليم الآباء ؟.

١١ - توجد حقيقة أخرى هامة جداً فيما يختص بلوثر والحوار المسكوني : لقد تمسك لوثر بالكتب المقدسة وشدد على دراستها ، كما تمسك بتعاليم الآباء . كما أن الكنائس

التقليدية القديمة كاثوليكية كانت أم ارثوذكسية قد فتحت ايضا الكتاب المقدس وخرج منها أيضا رجال أكفاء في العلوم التفسيرية والنقدية والتاريخية ..

على هذا الاساس من تمسك المصلح باقوال الآباء التي تتفق والكتاب المقدس ، ثم تمسكه بالكتاب المقدس نفسه ، أمكن للكنائس التقليدية القديمة وكنائس الاصلاح أن تجد أرضا جديدة تقف عليها للتفاهم . ففي الماضي كان ينظر التقليدي الى البروتستانتى على أنه شخص رافض للتقليد والآباء . وليس هذا صحيحا لان آباء الكنيسة الذين قبلوا الكتاب المقدس وعملوا به هم آباء المصلحين ايضا . ويجب علينا ان نحبههم ونحترمهم كما أحبه واحترمهم رجال الاصلاح ورجعوا الى كتاباتهم ولم يحاول المصلحون قط مهاجمة آباء الكنيسة الذين تمسكوا بالكتاب المقدس وعلموا به ، بل وجدوا في هؤلاء الآباء سنداً وعوناً لكى يؤيدوا باقوال هؤلاء الآباء وتعاليمهم الجديدة التى نادوا بها . ولهذا السبب نجد أن كتابات المصلحين قد امتلأت باقتباسات من أقوال الآباء ، هذا ماحاول أن يفعله لوثر . وهذا ماحاول أن يفعله ايضا كثير من المصلحين . فعلى سبيل المثال نجد فى كتابات جون كلفن المصلح الفرنسى ثلاثة آلاف اقتباس من كتابات الآباء ، فعلى نحن ابناء وورثة المصلحين أن نقبل كل تعاليم الآباء التى تتفق والكتاب المقدس ولا تتعارض معه . وما أكثر تعاليم الآباء التى لا تتعارض قط مع الكتاب المقدس بل هى مأخوذة منه .

١٢ - يجب أن نبحث بطريقة علمية وتاريخية صحيحة وواعية الاسباب الحقيقية التى أدت الى ذلك الانقسام المخجل . إذ انه توجد أسباب سياسية كثيرة كانت وراء هذا الانقسام . ومما لا شك فيه انه لا يمكن ان نلقى بالمسئولية كلها على عاتق الظروف السياسية وحدها ، لأنه كانت توجد ايضا اسباب عقائدية وتعليمية وراء هذا الانقسام ولكننا نعتقد بان الباحث والدارس المنقب يمكنه ان يدرك بان الظروف السياسية التى كانت تحيط بالكنيسة فى عصورها الأولى وفى العصور اللاحقة وفى العصور الوسطى كانت سبباً فى كثير من الانقسامات التى حدثت فيها والتى نعانى منها نحن الآن ، بالرغم من أن ظروفنا السياسية تختلف تماماً عن الظروف فى تلك الفترات التى عاشتها هذه الكنائس .

لقد كانت تسيطر على تعاليم بعض الجامع وبعض الآباء والمصلحين ، مفاهيم فلسفية وتعليمية الا أن بعضها تغير ، مما يوجب علينا أن نجلس جميعاً كاثوليك وارثوذكس وبروتستانت ونطرح مشاكلنا على المائدة ونناقشها بصراحة وأمانة .

١٣ - يحتاج العصر الذى تعيشه الكنيسة اليوم شرقاً وغرباً الى وحدة كاملة وترباط قوى وايمان عميق فى شخص الرب يسوع المسيح صخر الدهور ، ويحتاج أيضاً الى محبة صادقة بلا رياء لكى تستطيع الكنيسة بنعمته أن تواجه تحديات وتيارات العصر الحاضر من الحاد وكفر ومادية وتعصب أعمى . إن الكنيسة كلها غرباً وشرقاً معرضة لهذه التحديات ، وإن كنا نثق ونؤمن بان وعد الله صادق وامين وأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها فعلينا ألا ننسى أن رغبة الله العظمى وأمره السامى واضحان فى : صلاة الرب يسوع الشفاعية وهى أن نكون واحداً حتى نستطيع أن نحمل المسئولية الموضوعة على عاتقنا ألا وهى أن يؤمن الجميع باسمه .

دار الثقافة

الفصل الأول

ميلاده :

من الغريب أن مرجريت زيكلر ، تتذكر جيداً اليوم والساعة التي ولدت فيها أبنها مارتن ، إلا أنها لا تتذكر جيداً سنة الميلاد . ولقد حاول ملانكتون (Melanchton) الصديق المخلص والرفيق الأمين للوثر في جهاده ، أن يعرف تاريخ ميلاده ، فسأل أمه مرجريت ، فقالت له أنه قد ولد قبيل منتصف الليل في العاشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) . ولكنها لا تذكر السنة بالتحديد^(١) ولهذا السبب فقد اعتقد بعض المؤرخين أن مارتن لوثر ولد في العاشر من نوفمبر ١٤٨٣^(٢) والبعض الآخر يظن أنه ولد في سنة ١٤٨٤ ، أو ١٤٨٥^(٣) . أما مارتن لوثر نفسه ، فكان يعتقد أنه ولد في العاشر من نوفمبر ١٤٨٢ ، إذ أنه تقدم للامتحان في كلية (Erfurt) أرفورت في سنة ١٥٠٥ ولم يكن من الممكن ، بحسب دستور هذه الكلية ، قبول أى طالب لهذا الامتحان قبل أن يبلغ الثانية والعشرين من عمره على أن ملانكتون ، كان متمسكا لوقت ما ولاسباب نجهلها ، بأن مارتن ولد في العاشر من نوفمبر سنة ١٤٨٤ . وهذا ماقد سجله لنا في كتابه « حياة لوثر » المؤرخ بتاريخ أول يونيو ١٥٤٦^(٤) ، وهى السنة التى انتقل فيها المصلح الى الجسد . ولكن يعقوب أنخا مارتن لوثر قال إن أخاه قد ولد في العاشر من نوفمبر ١٤٨٣ . ويعترف ملانكتون بصدق وأمانة يعقوب حتى أنه قبل هذه الشهادة كوثيقة تاريخية ، يرجع اليها معظم العلماء .

وبناء على ذلك ، تحتفل الكنائس اللوثرية في العالم كله بمرور خمسمائة سنة على ميلاد المصلح الدينى الالماني مارتن لوثر في العاشر من نوفمبر سنة ١٩٨٣ م .

الوسط الذى نشأ فيه مارتن لوثر

كان يوحنا لوثر ومرجريت زيكلر من عائلة ريفية متواضعة من أعمال أيزناج أو اسناخ «Eisenac» . ولقد اشتدت قسوة الحياة الريفية عليهما ، لأنهما لم يكونا من أصحاب العقارات والاطيان^(٥) في منطقة تورنج (Thurine) الزراعية والغنية بغاباتها وحقولها . ولهذا السبب فقد اضطر الى النزح من منطقة تورنج (Thurine) الزراعية الغنية بغاباتها وحقولها الى أيسلين (Eisleben) سعيا وراء لقمة العيش . ففي هذه المدينة التى تقع حاليا في المانيا

الشرقية^(٦) وفي أحد شوارعها الكبيرة وفي بيت مظلم يخلو من كل وسائل الراحة والرفاهية والتنعيم ، ولد المصلح مارتن لوثر^(٧) .

من كان يعلم أو حتى يحلم بان هذا الطفل الصغير الفقير المتواضع النسب والحسب ، سوف يغير بحياته وتعاليمه مجرى التاريخ ومصير كثير من دول العالم !!!

عماده :

تمسكت الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت بفكرة الاسراع في تعميد الأطفال^(٨) وبما أن يوحنا (هانس) ومرجريت كانا كاثوليكين محافظين على تقاليد الكنيسة وطقوسها فقد طلبا عماد إبنهما في « يوم الثلاثاء » وهو غد ميلاده فحملاه الى كنيسة القديس بطرس ليعمد هناك ، وسمياه باسم مارتن لانه ولد في ليلة عيد القديس مارتن^(٩) .

ومع أن يوحنا (هانس) لوثر لم يدرس دراسات عالية في الجامعة ، الا أنه كان على ما يبدو واسع الطموح كثير الجهاد ، لا يخشى التعب ولا يهاب الصعاب وقد كتب مارتن فيما بعد يقول : « كان والداي فقيرين جداً ، فكانت والدتي تحمل الاخشاب على ظهرها لاعتلتنا لقد كانت حياتهما قاسية صارمة » وعندما تكلم لوثر عن أبيه قال : « لقد خلق عرقه مني ما أنا عليه الآن »^(١٠) .

ولم يكن رجل طموح مثل هانس لوثر ليرضى بالفتات الساقط من موائد الفلاحين والعمال . ولذلك فقد دفعه طموحه هذا للسعى وراء مكان أفضل وعمل أجدى . ولهذا السبب فبعد مضي ستة أشهر من ميلاد مارتن ، ترك أيسلين متجها الى مدينة (Mansfeld) مانسفلد التي تبعد عن أيسلين بحوالى ستة كيلومترات . وكانت هذه المنطقة غنية بمناجم النحاس والفضة ولم يمر وقت طويل على هذا الرجل المجتهد العامل الطموح ، حتى قفز من درجة عامل الى رئيس لثلاثة مسابك صغيرة^(١١) ولم يتوقف نجاحه وصعوده عند باب هذه المسابك الصغيرة ، بل أصبح هو نفسه مالكا لحوالى اثني عشر مسبكاً^(١٢) كما أنه اختير عضواً في مجلس المدينة الذي كان يتكون من أربعة أعضاء لمساعدة الحاكم والاشتراك معه في الادارة . وبهذا أصبح يوحنا (هانس) لوثر بورتجوازيا في مدينة مانسفلد^(١٣) .

أما مرجريت زيكلر فكانت هي أيضا سيدة مجتهدة عاملة نشيطة . ولقد رسم كراناش (Cranach) الرسام المعاصر لها صورة تعبر عن حيورتها وقوتها ونشاطها ... كما أنها كانت أيضا سيدة فاضلة تقية . ولذلك فإن كثيرات من جيرانها اتخذتها مثالا لهن^(١٤) الا أن تقواها قد صبغت وتأثرت تأثراً عميقاً بالخرافات والعقائد التي انتشرت في عصرها . فكانت تؤمن كما كان يؤمن الكثيرون من أبناء عصرها بالقوات الشيطانية والحسد « وتأثير العين » . كما أنها

كانت تعتقد أن الارواح الشريرة تسكن الاماكن المظلمة والبرك والمستنقعات^(١٥) وكانت تخشى من السحر وسلطانه حتى أنها نسبت موت ابنها الثاني الى سحر جارة من جيرانها^(١٦) .

حياته العائلية :

كانت كثرة الأطفال في هذا العصر تعتبر بركة من بركات الله ، وعلامة من علامات



رضاه على الناس ولقد منح الرب يوحنا لوثر ومرجريت سبعة أطفال^(١٧) فكانوا بلا شك يملأون البيت فرحاً وسروراً . ومع أن يوحنا ومرجريت تركا القرية والزراعة ، الا أنهما احتفظا بالعقلية الريفية بوقت طويل جداً ولوثر نفسه كان يقول « اننى فلاح أبا عن جد ، ولقد كان كل أجدادى فلاحين »^(١٨) . ومن بين العادات والمفاهيم المنتشرة فى ذلك العصر ، ليس فقط فى القرى وبين الفلاحين ، بل فى المدن أيضا بين المتعلمين . والتي كانت تسيطر بدورها على يوحنا لوثر ومرجريت المفهوم الخاطيء فى تربية الأطفال واستعمال الشدة والقسوة فى تهذيبهم . وهذا الاسلوب التربوى الذى اتبعه أهل ذلك العصر لا يدل بأ حال من الاحوال على تجرد الالباء والامهات والمربين من العطف والمحبة والحنان ويذكر المصلح بعض العقوبات التأديبية التى ذاقها فيقول « لقد عاقبنى أبى عقاباً شديداً فى يوم ما لدرجة أنى هربت من امامه وأختفيت ، ولم أستطع أن آنس اليه الا بعد وقت طويل » ثم يقول عن أمه فى يوم من الايام ضربتنى أمى بالسياط حتى انفجر الدم من جسمى بسبب حبة جوز بائسة^(١٩) . وبالرغم من هذه التأديبات والعقوبات القاسية التى تألم بها مارتن فإنه كان يدرك تمام الادراك أن الهدف من كل هذه التأديبات كان تهيئته وتعليمه وكانت كلها لخيره . كما يقول هو نفسه : « فبالرغم من أن عقاب والدى لى كان قد تعدى الحدود الا أنهما لم يريدوا إلا خيى »^(٢٠) .

ومما لا شك فيه أن قسوة والديه فى الطريقة التى اتبعها لتهيئته وتعليمه تركت انطباعات كثيرة وتأثيرات نفسية عميقة فى شخصية مارتن لوثر مرهف الحس ، ورقيق الشعور . بل دفعت به أيضا الى نوع من الانطوائية . ولأجل هذا كتب فيما بعد يقول : « كان والداى فى غاية القسوة معى ، الامر الذى خلق منى انسانا خجولا ولقد كانت قسوتهما عاملا دفعنى الى الالتجاء الى الدير لأصبح راهبا^(٢١) ان قسوة والدى مارتن لوثر فى تربيته . ربما جعلته يفكر فى الرهبة هرباً منهما الا انها لم تكن العامل الاساسى والوحيد الذى زج به الى الدير وسوف نتعرض لهذه النقطة فيما بعد .



حياته المدرسية :

التلميذ مارتن في مدرسة مانسفلد :

كان والدا مارتن في غاية القسوة في تهيئتهما له . كما سبقت الإشارة الى ذلك . ولكنهما لم يريدوا من هذه القسوة والشدة الا تربيته تربية مسيحية صالحة . وبناء على ذلك فقد سجلا اسمه في مدرسة المدينة التي كانت تقيم فيها العائلة لكي يحصل على اكبر قسط من التعليم حتى يستطيع فيما بعد أن يصبح رجلاً متعلماً مثقفاً ومهذباً .

فعندما بلغ سن السابعة^(٢٢) أو قبل ذلك بقليل عرف مارتن طريق المدرسة . وعلى ما يبدو كان نظام المدرسة والتدريس في ذلك العصر جافاً قاسياً . ولقد انقسم العلماء هنا الى فريقين . فريق يرى أن نظام التدريس كان فعلاً جافاً وقاسياً ممتلئاً بالسطحيات والقشور « والحشو » خالياً من الجوهريات والتعمق والتركيز . وبما انه خلا من التعمق والدرس العلمي والبحث الدقيق فقد استعمل المعلمون كوسيلة لتعليم الشدة والقهر والضرب وليس جذب التلاميذ وتشويقهم بطريقة عرض الدروس بوسائل جديدة وبأسلوب ممتع جذاب . والذين يؤيدون هذه النظرية اقتبسوا عدة مراجع وشواهد من كتاب ذلك العصر - على أننا نكتفي هنا بسرد بعض كتابات المصلح فقط فيما يخص هذا الموضوع . ففي سنة ١٥٢٤ أرسل لوثر خطابات الى حكام المدن ليحثهم على العمل على تأسيس مدارس وجامعات في مدنها . ولقد ذكر في خطابه هذا بعض الانتقادات القاسية والمريرة عن التعليم والمناهج لدرجة أنه لصق اسم جهنم والمطهر بهذه المدارس . فهو يقول عن المدرسة « كنا نعذب .. ولم نتعلم شيئاً »^(٢٣) وعندما يتعرض لوصف قساوة معلميه وشدتهم في التعليم يقول « لقد ضربت ١٥ مرة في يوم واحد »^(٢٤) .

الى هذه النصوص والى نصوص أخرى رجع الكثيرون لكي يؤيدوا فكرة أن نظام التعليم كان خالياً من العمق ومصحوباً بالقسوة والعنف .

أما الفريق الثاني فيتفق والفريق الأول على أن نظام التعليم في ذلك الوقت كان قاسياً بالفصل ولكن ليس بالدرجة التي حاول الكثيرون أن يصفوه بها مبالغين . كما بالغوا أيضاً في كلامهم عن أسلوب الآباء في تهيئتهم للبناء^(٢٥) . وصحيح أن المناهج كانت قليلة ومحدودة وهذا يرجع الى قلة الكتب . إلا أن الذين كانوا يرغبون في الدرس والبحث ، كانوا يجدون ابواباً مفتوحة امامهم في ذلك الوقت .

المناهج التي كانت تدرس :

كانت تدرس كل المواد باللغة اللاتينية^(٢٦) فلقد درس مارتن في مدرسة مانسفلد قواعد اللغة اللاتينية ، الوصايا العشرة ، قوانين الايمان ، الصلاة الربانية وبعض الترانيم^(٢٧) والخطابة والمنطق والتاريخ وبعض العلوم الأخرى .

مارتن في مدرسة مجد بوج (Magde Bourg)

لقد قرر الاب الطموح يوحنا لوثر أن يواصل ابنه دراساته ، فأرسله لذلك الى مدرسة اشتهرت في المنطقة بكفاءة معلميها وتقوى الذي يقومون بادارتها : وهي مدرسة الاخوة الفرنسيين* في مجد بوج . الى هذه المدرسة جاء مارتن من مانسفيلد مع صديق له ميسرور الحال يدعى يوحنا رينيك (Jean Reineke) لكي يواصل دراستهما الثانوية .

كان مارتن في الرابعة عشرة عندما التحق بهذه المدرسة . ومع أنه لم يمكث في هذه المدينة الا عدة شهور ، لأنه أصيب بمرض اضطره للعودة الى مانسفيلد ، الا أن اقامته في هذه المدرسة كان لها تأثير عميق جداً على حياته ومستقبله فبالرغم من أنه لم يذكرها الا مرة واحدة في كتاباته^(٢٨) الا أن الاحداث التي وقعت فيها ، لعبت دوراً هاماً جداً في حياته الروحية ونذكر منها :

١ - كان الامر الأول الذي أثر في نفس الشاب هذا هو الحياة في المدرسة نفسها . كان الاخوة الفرنسيين يشرفون على ادارتها وعلى التعليم فيها . ولقد اتصفت هذه الجماعة بروح التقشف والزهد والاتضاع والاماتات كما كان القديس فرنسيس الاسيزي . ولذلك فقد حاول بكل الوسائل غرس وتنمية هذه الروح في التلاميذ . ولكي يدربوهم على ممارسة هذا التمرين العملي الصعب ، فقد طلبوا منهم أن يتسولوا في الشوارع طالبين صدقة من الناس^(٢٩) لذلك فانه من الخطأ إذن أن نقول ان مارتن كان يتسول لفقره ، وسوف نرجع الى هذه النقطة فيما بعد .

٢ - كان الأمر الثاني الذي أثر في حياة مارتن وتفكيره هو تعاليم مدرسيه الاخوة الفرنسيين عن حياة الرهبنة . ولقد انتشرت في هذه الأيام فكرة أن الرهبنة وسيلة من الوسائل الأكيدة على الحياة الابدية والهروب من غضب الله .

٣ - أما الحدث الثالث الذي ترك في نفس ذلك الشاب المراهف الاحساس والشعور تأثيراً عميقاً لا يمكن للأيام أن تلاشيها هو صورة وليم ، أحد الأمراء والأغنياء من بلدة أنهالت (Anhalt) الذي ترك العالم وكل أمجاده وجاء ليصبح راهباً ويعيش في الدير . وكان يجول في شوارع المدينة طالباً احسان المحسنين . ولقد ظهرت عظامه تحت ثيابه لكثرة ما كان يعاني من الاعمال البدنية المتعبة واذلال جسده وقهره . ويقول مارتن في وصفه لهذا الأمير : « لقد رأيته بعيني يحمل كيساً على ظهره كحمار »^(٣٠) ويقال أن هذا الأمير كان يمارس هذه الاعمال التقوية وتعذيب جسده بهذه الطريقة لكي يكفر عن ذنوب أبيه السالفة^(٣١) ولكي يحصل هو نفسه على الحياة الأبدية .

٤ - حدث رابع مر به مارتن في هذه المدرسة : فلقد رأى لأول مرة كما يقال - نسخة من الكتاب المقدس ، وعندما فتحه عن طريق الصدفة ، وجد قصة الصبي صموئيل ،

فألتهما التهاما ومنذ هذه اللحظة وهو يتوق شوقاً لاقتناء هذا الكتاب العجيب^(٣٢) .

٥ - لقد مر الشاب مارتن بهذه الاختبارات في فترة قصيرة جداً لا تتعدى سبعة شهور . وقبل أن ينهى السنة الدراسية أصيب بمرض ورجع الى مانسفلد للاستشفاء والعلاج وسط عائلته . وبينما كان على فراش المرض ، أصيب أيضاً أكبر مانسفلد بمرض خطير جداً وكان يتوقع هو وكل مدينته موته القريب . ولذلك فقد أعلن ندمه على كل خطاياهم ، كما أنه كان يقوم بأعمال صالحة كثيرة لكي يكفر عن ذنوبه ولكي ينال بأعماله الصالحة كما كان يعتقد ، رضا ربه .

لعبت كل هذه الاحداث دوراً هاماً وكبيراً في حياة مارتن الروحية وفي مستقبله أيضاً . كانت هذه الاحداث أو بعضها سبباً في مرضه هذا ؟ لنعلم بالضبط ، ولكننا نعتقد أن هذه الاحداث التي حدثت في فترة قصيرة كانت من الأسباب الهامة جداً التي دفعت مارتن الى التفكير العميق في حياته الروحية وخاصة في مشكلة الموت والتبرير .

مارتن في مدينة أيزناخ أو اسناخ (Eisenach)

بعد مرور بضعة أسابيع على مرض مارتن بدأ يتأثر للشفاء . وعندئذ بدأ يوحنا أيضاً في البحث عن مدرسة أخرى . وأستقر أخيراً الرأي على مدينة ايزناخ . فإن مارتن سوف يجد هناك عمه كونراد هوتر (Conrad Hutter) وهو قنصل أو سكر ستاني لكنيسة القديس نيكولا في هذه المدينة^(٣٣) وهكذا سجل اسم مارتن في مدرسة القديس جورج في أيزناخ وبدأ من جديد عاماً دراسياً آخر .

على أن عمه كونراد هوتر لم يعره اهتماماً كبيراً . ولهذا السبب فقد انضم هذا الشاب الى جماعة من الشباب في فرقة الترنيم المحلية . وكان يطوف الشوارع معهم مرثماً ومستجدياً عطف الناس واحسانهم . ولقد اعتقد عدد كبير من الكتاب بأن مارتن كان يتسول لأنه كان في حاجة لهذا المال للمدرسة وللأكل والملابس ، لأنه كان فقيراً . والذين يؤيدون هذه النظرية ، يرجعون الى أقوال مارتن نفسه عن أنه كان من عائلة فقيرة ، كانت امه تحمل الحطب أو الخشب على ظهرها لاعالته ... وقد كتب هو نفسه قائلاً « لا تستهينوا بالصغار المتسولين لاني كنت مثلهم ، نعم كنت فتى مسكيناً مستجدياً وأرتقيت الى ما أنا عليه بقلمي .. »^(٣٤) وكاتب آخر كتب يقول « ونظراً لفقر لوثر لم يدقق معه هؤلاء الآباء في مسألة المصروفات . ومع ذلك لم يستطع لوثر ان يسد مصاريفه الشخصية من جيبه الخالي .. وكان من عادته اثناء اقامته في مجدبرج - أن يصحب جماعة من الزملاء الاصدقاء ممن ربطهم الفقر باواصر الصداقة المتينة ويطوفون في شوارع المدينة يرددون الألحان والتراتيم حتى يدبر الله لهم احد الاغنياء الذي يعطف عليهم ويرق لحالهم .. ويقدم لهم شيئاً من الطعام »^(٣٥) .



St. Iffnach.



- 1. Thall, Seckens Schloß. 4. Der Berg. 7. Füll, Schützengraben. 10. St. Georgen den. 16. Schloß und Veßung. 22. St. Georgen den. 23. Der Berg. 24. Der Berg. 25. Der Berg. 26. Der Berg. 27. Der Berg. 28. Der Berg. 29. Der Berg. 30. Der Berg. 31. Der Berg. 32. Der Berg. 33. Der Berg. 34. Der Berg. 35. Der Berg. 36. Der Berg. 37. Der Berg. 38. Der Berg. 39. Der Berg. 40. Der Berg. 41. Der Berg. 42. Der Berg. 43. Der Berg. 44. Der Berg. 45. Der Berg. 46. Der Berg. 47. Der Berg. 48. Der Berg. 49. Der Berg. 50. Der Berg. 51. Der Berg. 52. Der Berg. 53. Der Berg. 54. Der Berg. 55. Der Berg. 56. Der Berg. 57. Der Berg. 58. Der Berg. 59. Der Berg. 60. Der Berg. 61. Der Berg. 62. Der Berg. 63. Der Berg. 64. Der Berg. 65. Der Berg. 66. Der Berg. 67. Der Berg. 68. Der Berg. 69. Der Berg. 70. Der Berg. 71. Der Berg. 72. Der Berg. 73. Der Berg. 74. Der Berg. 75. Der Berg. 76. Der Berg. 77. Der Berg. 78. Der Berg. 79. Der Berg. 80. Der Berg. 81. Der Berg. 82. Der Berg. 83. Der Berg. 84. Der Berg. 85. Der Berg. 86. Der Berg. 87. Der Berg. 88. Der Berg. 89. Der Berg. 90. Der Berg. 91. Der Berg. 92. Der Berg. 93. Der Berg. 94. Der Berg. 95. Der Berg. 96. Der Berg. 97. Der Berg. 98. Der Berg. 99. Der Berg. 100. Der Berg.

أما الفريق الثانى من العلماء والمؤرخين يعتقد أن الفريق الأول الذى قدمنا بعضاً من كتاباته يبالغ قليلاً فى وصف حالة مارتن بالبؤس الحزن والفقر المقنط والحاجة المؤلمة^(٣٦) .

ولفهم هذه النقطة يجب أن لا يغيب عن بالنا مرحلتين فى حياة يوحنا لوثر : المرحلة الأولى وهى التى قضاها اثناء صباه فى أيزناخ ثم هجرته منها لضيق الحال وقلة العيش فيها ولأنه لم يكن من ذوى الاملاك* حتى فى ايسلين لم تتحسن حالته الاجتماعية ، ولذلك فقد تركها سريعاً سعياً وراء العيش متجهاً الى مدينة اشتهرت بالمناجم وهى مانسفلد وهناك استقر . ولم تكن الحياة بالنسبة له فى بداية الامر لينة هنية ، بل كان عليه أن يجاهد ويصارع ويناضل فلقد بدأ كعامل بسيط فى منجم وبفضل اجتهاده فى العمل وامانته ودقته أصبح رئيساً لعمال ثلاثة مسابك ، وبعد ذلك نشد الاستقلال فاصبح هو نفسه مالكا اثنى عشر مسبكاً وفى سنة ١٤٩٦ صار عضواً فى مجلس المدينة ومساعداً لحاكمها وبذلك أصبح يوحنا لوثر واحداً من بورجوازي هذه المدينة^(٣٧) .

ومما لا شك فيه أن يوحنا لوثر كان من عائلة فقيرة جداً . ومما لا شك فيه أيضاً أن مارتن واخوته ذاقوا طعم الحرمان المر المؤلم وعاشوا فيه فترة . ولذلك فهو يتذكره ويذكره فى كتاباته فمن المحتمل أن تكون احوال يوحنا لوثر الاجتماعية والمالية بدأت فى التحسن بعد أن وصل الى مانسفلد بعدة سنوات ، أى منذ سنة ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ تقريباً . وكان مارتن فى ذلك الوقت قد تجاوز العاشرة أو الحادية عشرة .

وكيف يمكن إذن أن نشرح كتابات الكتاب وكتابات لوثر نفسه التى تتكلم عنه وعن حرمانه والامانة النفسية وتسوله فى الشوارع ؟ . ولحل هذه المشكلة توجد عدة اقتراحات :

١ - كان مارتن عضواً فى فرقة الترانيم فى مانسفلد ثم فى مجدبورج وكذلك فى أيزناخ . ومن المعروف بأن أعضاء هذه الفرقة لم يكونوا من الفقراء المعوزين فقط بل كانت تضم أيضاً اطفال بعض العائلات الغنية والمحترمة فى المجتمع^(٣٨) وكان الهدف من تكوين هذه الفرق هو الترنيم فى الكنائس وفى الشوارع ايضا . ولقد حاول المسئولون عن هذه الفرق أن ييثوا فى نفوس المشتركين فيها روح التواضع وانكار الذات عن طريق التسول وطلب الاحسان فى الشارع . ولقد استخدم التلاميذ الفقراء هذه الوسيلة لسد حاجاتهم الدراسية وغير الدراسية .

٢ - ان الكتاب الذين صوروا لنا مارتن بائساً فقيراً ومتسولاً امام الأبواب ، كان دليلهم على ذلك النصوص التى تتكلم عن يوحنا لوثر فى حالة فقره ونضاله قبل أن يصل الى حالة اليسر .

٣ - لقد تألم مارتن فعلاً عندما كان يقاسى الحرمان الحقيقى والفقر المادى الذى كان يعيشه

مع اخوته في بيت أبيه في المرحلة الأولى من حياة أبيه يوحنا لوثر ، وحتى بعد أن تغيرت احوال أبيه الاجتماعية وتيسرت ظروفه ظل مارتن يشعر بحالة الفقر والحرمان بطريقة تكاد أن تكون واقعية في مجد بروج وفي ابنناخ عندما كان يطوف في الشوارع مع بعض رفاقه الاغنياء والفقراء مرثمين وهم يطلبون احسانات المحسنين . وبما أنه كان يشعر بشعور الآخرين ويتألم لآلامهم . فقد اشترك معهم ليس فقط في جمع الكسر ، بل كان يشعر بشعور الآخرين ويتألم لآلامهم . فقد اشترك معهم ليس فقط في جمع الكسر ، بل كان يشعر في نفسه كما لو كانت هذه الكسر تجمع له شخصياً . ولهذا السبب ، فعندما كتب عن الذين يتسولون قال « وانا ايضا كنت أتسول طالباً بعض الكسر من الخبز لا تحتقروا هؤلاء الصغار فأني كنت واحد منهم »^(٣٩) . فإن كان مارتن قد تألم كثيراً اثناء هذه التمارين الموسيقية والغناء في الشوارع ، الا أن هذه كانت فرصة ذهبية فعن طريقها تعرف على عائلة كريمة النفس نبيلة الاخلاق ولقد ظل كل حياته مرتبطاً بها ومحتفظاً ومعتزاً بذكرايتها العطرة هذه العائلة هي عائلة كونز كوتا وزوجته أورسول (Kunz Cotta Et Vrsdle) ويبدو أن هذه العائلة سمعته يرغم في الكنيسة ، فدعته لتناول الطعام ، وعندئذ بدأت روابط المحبة تتعمق ، فأصبح مارتن كواحد من العائلة . ولقد كانت هذه السنوات التي قضاها مارتن تحت سقف هذا المنزل سنوات مشرقة شعر فيها بالسرور والارتياح والسعادة النفسية . كانت العائلة غنية ومثقفة وكان البيت مفتوحاً ، فكم من المواضيع اللاهوتية والدينية والتقوية التاريخية نوقشت اثناء تناول الطعام ... وكم كان الشاب مارتن يصغى الى هذه المناقشات التي درات بين رب وربة البيت والاباء والفرنسيسكان وغيرهم . ولقد كانت هذه الفترة مشرقة في حياة الشاب مارتن لوثر .

هوامش الباب الأول

1. Henri Strohl, Luther. Jusqu'en 1520. Presses Universitaires De France, P 27
2. Roland H. Bainton's. Here J. Stand, A life of Martin Luther, A. Mentor Book, P. 16
3. Denise Hourticq, Luther Mon Ami. Labor et Fides, P. 12.
وأنظر أيضا ميرل دوينياه ، ترجم عن الانجليزية بقلم الشيخ ابراهيم الحوراني (تاريخ الاصلاح في القرن السادس عشر) منشورات مكتبة المشعل في بيروت باشراف رابطة الكنائس الانجيلية في الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ص ٣٦ - ٣٧ .
4. H. Strohl, Luther. Sa, Vie Et Sa Pensee, Ed. Oberlin, P. 17.
5. Roland Bainton, P. 17-19.
6. Albert Greiner, Luther, UN. Passionné de verité, P. 8.
7. A Greiner, Luther. Essai, Biographique, Labor Et Fides. P. 19.
- ٨ - أ . موريسون ، حياة لوثر ، ترجمة القس باقى صدقه ص ٦
- ٩ - ميل دوينياه ص ٣٧ .
10. A. Greiner. Essai. 19.
11. A. Greiner. Un Pass.. P. 9. انظر أيضا ميرل دوينياه ، ص ٣٧
12. R. Bainton, P. 19.
13. A. Greiner. 9-11.
14. G. Casalis, Luther Et L'Eglise Confessante, Ed. Du. Cerf, 1983. P. 1-9.
15. R. Bainton, 18-23.
16. A. Greiner. Essai P. 20.
17. A. Greiner. Essai P. 19, Hourtieq. P. 12.
18. A. Greiner. Essai P. 19, Hourtieq. P. 12.
19. A. Greiner. P. 19.
20. A. Greiner. 19-20.

21. H. Strohl, Sa Vie ... P. 20.
22. A. Greiner, P. 19.
23. Strohl, Luther Jusqu'en 1520, P. 29-30.
24. P. 30.
25. O. Scheel, Martin Luther 2 Voi, Tubingue 1916, 1-4 Et, Strohl P. 29-30.
26. D. Hourtic 9, 13.

٢٧ - ميرل دوينيا ، ص ٣٨ .

* ان الذى قام بتأسيس جماعة الاخوة الفرنسيسكان هو القديس العظيم والشهير فرنسيس الاسيزى وهو ايطالى الجنسية . ولقد اشتهر بحملاته التبشيرية فى الكنيسة ولهذا السبب فهو يعد من المصلحين إذ أنه حاول القيام بحملة تبشيرية اصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها . كما أنه اشتهر أيضا بمحبته الفياضة للناس وللحيوانات وللطيور وللطبيعة . والجدير بالذكر أن القديس فرنسيس جاء الى مصر فى القرن الثالث عشرة سنة ١٢١٩ وتقابل مع السلطان الحاكم فى ذلك العصر . فلقد جاء اثناء الحرب الصليبية لكى يقدم صورة أخرى حقيقية عن المسيحية التى شوهاها بعض الجنود والقادة الصليبيون بتصرفاتهم ووحشيتهم .

(٢٨) فى خطابه المرسل الى عمدة مجد بوج والمؤرخ بتاريخ ١٥ يونيو ١٥٢٢ .

- Christian Egypt: Ancient and Modern. By. Ottor A. Meinardus. PH. D, P. 40-4 Sch. 1. P. 70.
29. D. Hourtic q, P. 14.
 30. R.H. Bainton P. 25, Greiner P. 20-21.
 - 31 D. Hourticq R. P. 14.
 32. Strohl, Luther Jusqu'en 1520. P.P. 3-32.
 33. Strohl 24-Strohl, Luther Jsqu'en 1520 P. 32.

(٣٤) ميرل دوينيا ٣٩ - ٤٠

(٣٥) أ . موريسون ، ترجمة القس باقى صدقه ، ص ١٤ .

* انظر ماجاء فى هذا الكتاب بشأن ذلك .

36. Strohl. Jusqu'en 1520. P. 29-32.

(٣٧) انظر ماجاء فى هذا الكتاب .

38. Strohl P. 24-25.
39. Strohl, P. 32.

الفصل الثاني

مارتن الطالب في جامعة ارفورت (Erfurt)

أنهى مارتن دراساته الثانوية في مدرسة القديس جورج بمدينة ايزناخ عندما كان في الثامنة عشرة من عمره ومع أن أباه يوحنا لوثر لم يكن مثقفا ثقافة جامعية ، الا انه كان طموحاً ، واسع الرؤية فيما يتعلق بمستقبل ابنه . وخاصة لأن أحواله المالية تحسنت ، بل إنه احتل مكانة اجتماعية مرموقة في مدينة مانسفلد . لهذه الاسباب قرر يوحنا لوثر أن يلحق ابنه بالجامعة لاتمام دراسته الجامعية فسجل اسمه في جامعة (Erfurt) في مايو عام ١٥٠١ .^(١) وهي أقرب مدينة جامعية لمانسفلد .

وعندما رأى يوحنا ابنه طالبا جامعيًا بدأت الاحلام التي غزاها طموحه الواسع تستولي على افكاره وقلبه فقد كان يحلم بأن يرى ابنه محاميا مشهوراً عظيماً يشغل مركزاً مرموقاً في خدمة أمراء مدينة مانسفلد^(٢) . ولكن لكي يصل مارتن الى هذا المقام المرغوب فيه كان عليه ان يقطع مرحلة طويلة من الدراسات في هذه الجامعة . وهنا في هذه المدينة بدأ المصلح دراساته الجامعية .

درس الطالب مارتن الفلسفة على يد استاذ بارز الشخصية ، وهو العلامة بودوكوس الذي لقب بعلامة ايزناخ (ميرل دويينياه ص ٤٠) كما أنه درس أيضا على يد عدد كبير من أساتذة هذه الجامعة الذين اعتبروا من صفوة الاساتذة وافضلهم : امثال يوحنا جرفينستين (Jean Grevenstein) ثم على يد (Gerard Hecker) وجرار هكر الذي صار فيما بعد راهبا في دير القديس اغسطينوس وهو نفس الدير الذي اختاره مارتن فيما بعد - وهو واحد من الذين قبلوا الاصلاح في آخر حياته .

ولقد استطاع الطالب مارتن في فترة الدراسة الجامعية ان يكون روابط صداقة قوية وعميقة مع بعض زملائه الطلبة . ولقد استمرت بعض هذه الروابط الودية طول حياته . بل أن بعضهم وقف وقفة مشرفة بجانبه للدفاع عنه وعن الاصلاح . ومن بين الذين تعرف عليهم أيضا ، يوحنا لانج (Jeanlange) الذي ظهرت مواهبه الفذة في اللغة اليونانية ولقد كانا على

صلة مستمرة بالمراسلة الى أن فرق الموت بينهما . كما أن روابط الصداقة جمعتهم بالطالب جورج بوركاردت (Georges Burckardt) المسمى سبالاتين (Spalatin) والذي أصبح فيما بعد سنداً^(٣) قويا له في صراعه ونضاله ضد البابا والامبراطور والأمراء .

كان منهج الجامعة يحتوي على دراسات للقواعد والمنطق والفلك والهندسة وعلوم ما وراء الطبيعة والموسيقى والتاريخ والفلسفة وكانت فلسفة أرسطو تسيطر على هذه العلوم ، كما كانت تسيطر أيضا على العلوم اللاهوتية الدينية بطريقة ملحوظة^(٤) ولهذا السبب كان مارتن مضطراً لأن يدرس فلسفات وتعاليم القرون الوسطى . فاطلع على كتابات أوكام (Occame) وسكوتس وتوما الاكوينى وبونا فنتيرا وعلى كتابات بعض الكتاب الآخرين .

ويعتقد البعض أن مارتن قد رأى الكتاب المقدس لأول مرة في جامعة أرفورت حيث اطلع على قصة صموئيل وحنة . على أننا نتفق مع بعض العلماء الذين يعتقدون أنه تقابل لأول مرة مع الكتاب المقدس في مجد بروج اثناء دراساته الثانوية وليس في أرفورت اثناء دراسته الجامعية^(٥) .

وقد بالغ بعض المؤرخين وخاصة البروتستانت في سرد قصة مقابلة مارتن لوثر مع الكتاب المقدس ومما لا شك منه أن اطلاعه لأول مرة على قصة صموئيل الشاب وحنة ترك في نفس مارتن تأثيراً عميقاً جداً . لذلك فقد غنى من كل قلبه لو استطاع اقتناء هذا الكتاب العجيب الفريد . وهنا أود أن ألفت نظر القارئ الكريم الى بعض المبالغات التي استخدمت ومازالت تستخدم (عن حسن قصد) في الكنائس الانجيلية عندما تتعرض لشرح هذه الفكرة الخاصة باكتشاف لوثر للكتاب المقدس . فإن البعض يعتقد أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمنع وتحرم دراسة الكتاب المقدس للعامة^(٦) كما رأى البعض الآخر في نسختي الكتاب المقدس المربوطتين بسلاسل في كل من جامعة أرفورت والدير الذي التحق فيه لوثر ، رأوا رمزا على ان الكتاب كان مسلسلا ومقيدا ومغلقا امام الجميع . ومما لا شك فيه ان الكنيسة الكاثوليكية في ذلك العصر لم تشجع بأي حال من الأحوال العلمانيين على دراسة الكتاب المقدس ، أو الاطلاع عليه بل احتفظت بحق تفسيره لاكليروسها ، ولكنها لم تحرم الذين كانوا يريدون الاطلاع عيه من ذلك والدليل على ذلك أن الكنيسة لم تصدر أى قرار (بحسب مانعرف) ضد أول طبعة من الكتاب المقدس التي ظهرت باللغة الالمانية في سنة ١٤٦٦ في مدينة ستراسبورج ، أى قبل أن يولد مارتن لوثر نفسه^(٧) .

أما فيما يخص الكتاب المقدس المربوط بسلاسل فهذا لا يعنى ان الاطلاع كان ممنوعا بل لكى لا تمتد اليه الايدي غير الآمنة ، خاصة أن الكتب في ذلك الوقت ، كانت تعتبر كنوزاً نادرة لقلتها . وكانت هذه العادة متبعة في بعض المكتبات خوفا من ضياع الكتب .

على أى حال فإن مارتن الذى بدأ بالتعرف على الكتاب المقدس فى مدرسة مجد بروج ، استمر فى دراسة هذا الكتاب العجيب الفريد دون أن يهمل دراساته العلمية والفلسفية فقد كان مارتن طالباً ناجحاً مجتهداً فى دراساته ، عميقاً فى تفكيره وإبحاثه . ولذلك فقد سماه أصدقائه بمارتن الفيلسوف (A. Gre 23) . وكان يلتمس الكتب الثمينة وخاصة الكتب الدينية على أن موقفه من الدين كان موقفاً غريباً مزدوجاً فقد كان مشدوداً الى الدين بقوة غريبة وعجبية وبمبول داخلية عميقة ، كما أنه كان فى الوقت نفسه يخاف كل الخوف ويرتعب كما من الموت . ويصفر وجهه ذعراً عندما كانت تثار مشكلة الدين أو عندما كان يذكر اسم الله أو اسم يسوع . فإن اسم الله واسم يسوع كانا يذكرانه دائماً بغضب الله وقضائه وبالدينونة الاخيرة وعندئذ كان يستولى عليه خوف رهيب لدرجة الموت . إنه لم يستطع ولم يجرأ على أن يقترب من الله العادل القدوس الذى يبالغ فى طلب القداسة والبر من الانسان الخاطيء . لم يستطع أن يقترب من يسوع القدوس الذى صورته الكنيسة كقاض عادل جالس على عرش مرتفع عظيم وقد قبض بيديه على ميزان دقيق لكى يزن أعمال الناس من خير ومن شر لانه هو الذى يدين وسيدى الاحياء والاموات .

ان اختباراتاه فى مدينة مجد بروج فى الماضى (انظر هذا الكتاب ٣٤ - ٣٦) أثارت فى نفسه تساؤلات كثيرة وعديدة فيما يختص بالموت وموقفه منه . لقد لاحقته فكرة الموت اينما حل وسيطرت على شعوره وضميره أينما وجد . والذى زاد الأمر سوءاً أن مارتن قد مر أيضاً فى اثناء دراساته فى جامعة أرفورت ببعض الاحداث المؤلمة المحزنة . وكان أولها موت واحد من أصدقائه بمرض خطير ، ثم اغتيال صديق آخر يدعى ألكسيس فى ظروف غامضة . لقد ترك هذان الحادثان فى نفس مارتن تأثيراً عميقاً مما دفعه الى أن يتساءل من جديد قائلاً : ما مصيرى امام الله لو كنت واحداً من هذين الصديقين اللذين طواهما الردى ؟ .. أما الحادث الثانى فقد لمسه بطريقة مباشرة وشخصية . ففي يوم الثلاثاء التالى لعيد القيامة سنة ١٥٠٣ كان فى طريقه مع صديق له الى بيت والديه فى مانسفلد وظهرت فجأة على الطريق امامه حفرة حاول أن يتخطاها ، ولكنه سقط على صخرة وجرح جرحاً عميقاً جداً فى فخذه . وأسرع صديقه للبحث عن أقرب قرية لطلب المساعدة . وبينما كان مارتن مضرباً فى دمايه رفع صلاة حارة للعداء مريم ثم جاء الصديق ، وحمل مارتن ورجع به الى أرفورت . وفى نفس الليلة أصيب بنزف فقد فيه كمية كبيرة من الدم . فى هذه اللحظة الخفيفة المرعبة رفع مارتن مرة أخرى صلاة حارة الى العداء مريم لانه كان يفضل أن يصلى لها لانه لم تكن تثير فى نفسه الخوف والرعب اللذين يشعر بهما امام الله أو امام يسوع^(٨) ولقد قال عن هذه الحادثة « شعرت بانى ساموت متوكئاً على مريم » .

فإن كان مارتن قد تأثر بكل الاحداث التى مر بها سابقاً والتى تحدثنا عنها وهى : مقابله

مع الكتاب المقدس ، ورؤيته للامير المتسول ، موت بعض اصدقائه في ظروف مؤلمة ، وباء الطاعون الذى كان يحصد الناس حصداً .. الخ .. فكل هذه الخطوب القاسية تركت تأثيرها العميق في نفس مارتن . ولكن على ما يبدو فإن حادثة الخنجر كانت أقوى وأشد الأحداث في تأثيرها على نفس الشاب الجامعي لأنها اخترقت جسده وروحه . ولذلك فإن من المحتمل أن يكون قد اعتبرها نداء مباشراً له من الله^(١) .

أما الحادثة الثالثة فقد وقعت في ٢ يوليو ١٥٠٥ وهو في طريقه في مدينة مانسفيلد الى أرفورت بينما كان يعبر غابة ستوترنهايم (Stotternheim) حيث اشتدت الزوابع وقصفت العواصف بشدة . وانتشر البرق والرعد في جلد السماء الملبدة بالغيوم السوداء . وفي وسط هذا الجو المظلم المخيف وفي وسط الغابة إذا بصاعقة هائلة تقتلع شجرة وتلقى بها عند قدميه ، وعندئذ ارتدى على الأرض وشعر أنه في لحظاته الأخيرة وأن الموت ليس عنه ببعيد^(٢) وعندئذ صرخ بدون تفكير طالباً النجدة والخلّاص من القديسة حنة ، قائلاً : « يا قديسة حنة إذا انقذتني سأكون راهباً بقية حياتي »*

ويبدو أن مارتن شعر في هذه المرة أيضاً أن صوت الله كان يدعوه . لقد عاش مارتن طفولته في جو يسيطر عليه الخوف والاضطراب والقلق : فكان والداه قاسيان في معاملتهما له وانتشار وباء الطاعون قد زاد خوفه وقلقه واضطرابه من الموت وكذلك أيضاً كل الأحداث التي مر بها هذا الشاب الرقيق الاحساس رسمت أمام عينيه صورتين لم يستطع الفرار منهما : صورة الله القاضى المخيف المرعب ، ثم مصيره بعد الموت .

ومع أن مارتن كان أسير هذه الافكار الخاصة بالموت الا انه لم ييأس من الحياة ، ولم تستطع هذه الافكار ان تقوده الى أى نوع من الأمراض النفسية كما إدعى البعض ذلك على غير حق والدليل على ذلك أنه أنهى دراسته الثانوية والجامعية بتفوق عظيم^(٣) وبعد أن أنهى دراسته للحصول على درجة البكالوريوس ، قبلته الجامعة في احتفال رسمي عظيم مشرف لدراسة الحقوق إذ كان ترتيبه الثانى على سبعة عشر طالباً وقد كلف بالتدريس اثناء دراسته للحقوق .

وهنا تفتح ابواب المجد والعظمة على مصراعها امام الاستاذ الشاب مارتن لوثر . الابواب التي كان يحلم بها كل طالب متفوق : انها ابواب العظمة والمجد التي كان يحلم بها يوحنا لوثر الذى ذهل واعجب كل الاعجاب بابنه وبصعوده للمجد الاجتماعى ، فقرر في ذلك اليوم الا يخاطبه فيما بعد « بأنثى » ضمير المفرد المخاطب : بل أن يخاطبه قائلاً « انتم » علامة على الاحترام والتقدير « وهذا ما كان يحلم به يوحنا لوثر ، انه ابنه يرتقى في دراسته لكى يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع . فهل سيحقق الاستاذ الجامعي مارتن لوثر امال ابيه الكبيرة ويواصل صعوده للمجد الاجتماعى في مدينة مانسفيلد ؟؟؟ .

هوامش الفصل الثاني

(١) أ. موريسون ص ١٨ .

2. A. Greiner. P. 22.

3. D. Hourticq P. 17-18.

4. A. Greiner P. 22.

(٥) دكتور عزت زكى تاريخ المسيحية (ج ٣) : المسيحية فى عصر الاصلاح ، ص ٣٩ ، (ميرل دوينيه ص ٤١) .

6. Sch. P. 89-92, H. Strohl, Luther Jusqu'en 1520, P. 30-32.

7. H. Strohl, P. 31.

8. D. Houtricq, P. 17-18.

9. A. Greiner P. 24.

10. D. Houtricq, P. 18.

11. A. Greiner, P. 22.

★ طلب القديسة حنة لأنها كانت تعتبر شفيعة العمال الذين يعملون فى المناجم فى مانسفلد .

الفصل الثالث

الاستاذ مارتن لوثر يترك الجامعة وينزوى في الدير

بدأ الأستاذ مارتن لوثر في القاء محاضراته في جامعة أرفورت ، وكان في نفس الوقت يتابع دراسته أيضا في كلية الحقوق نزولا على رغبة أبيه وتحقيقا لها . ولم تمض على هذه الحالة عدة أسابيع حتى وقعت له حادثة الصاعقة التي كادت أن تقضى على حياته وهو في طريق عودته من بيت والديه الى أرفورت في ٢ يوليو ١٥٠٥ .

ورجع مارتن بذاكرته الى الماضي وحاول أن يرى الاخطار التي تعرضت لها حياته وكيف أنقذ منها . ألم يصب بمرض خطير في سن الرابعة عشره وهو يدرس في المدرسة الثانوية في مجد بورج ؟ ألم يعتره المرض مرة ثانية اثناء دراسته في أرفورت ؟ ألم تتعرض حياته مرة أخرى للموت عندما سقط على خنجر ؟ ألم تكن حياته مهددة بالوباء الذي انتشر في المنطقة وراح ضحيته عدد كبير من الناس ؟ فماذا ينتظر إذن ؟ لقد حصل على درجة علمية رفيعة وهو يتمتع باحترام أصدقائه وبمحبة وفخر والديه . لقد كان الناس يشيرون اليه بالبنان . وابواب المجد الأرضي فتحت امامه على مصراعها . فماذا يريد بعد ذلك ؟ .. كان يريد ويبحث عن الحياة الأبدية ؟ « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (٨ : ٣٦) ولكن كيف يستطيع الانسان ان يربح نفسه ؟ كيف يستطيع الانسان الخاطيء أن ينال الحياة الأبدية ؟ أى أن ينال رضا الله البار العادل القدوس ، ألم يصرخ لوثر نفسه قائلاً : « آه لو كان في استطاعتي ان أكون رجلاً تقياً وارضى الله »^(١) ولقد ظن أن افضل طريق لارضاء الله والحصول على بره هو الهروب من العالم والالتجاء للدير وعمل الامانات ففي الدير سيكون بعيداً عن العالم وشواغله ومشاكله وتجاربه . هنالك سوف يكرس وقته وحياته لله . سوف يقوم بعمل عدد كبير وهائل من أعمال الخير والامانات التي ستكون كافية لخلاصه وربما لخلاص آخرين وأيضاً وهنا يقرر مارتن أن ينطلق الى هذا المكان الهادئ المريح ، لكي يستريح قلبه ويهدأ ضميره . انه يريد الحصول على السماء بأعماله وسوف يعمل ويعمل الى أن يحصل على حق الدخول الى السماء . ولكن قبل أن يذهب الى الدير ، وفي ليلة ١٧ يوليو ١٥٠٥ أى بعد حادث العاصفة بأسبوعين دعا جماعة من أصدقائه وزملائه في



AETHERNA IPSE SVAE MENTIS SIMVLACHRA IN THEATRO
EXPRIMAT AT VLTIVS CERA IVCAE OCCIDVOS

M.D.XX.

Ala

الدراسة والتدريس لقضاء سهرة ممتعة معا . وأكلوا وشربوا وانشدوا الاناشيد ورنموا وضحكوا ثم تبادلوا الأخبار السارة وغير السارة . وفي نهاية هذه السهرة وقف مارتن لكي يلقي كلمة . وربما توقع البعض أنه سيعلم لهم خبراً ساراً من أخباره ، ولأجل هذه المناسبة قد دعا بعضاً من الذين ارتبطوا بروابط المحبة والصداقة لكي يشتركوا معه ويشاركوه في افراحه وعندما بدأ خطابه قال لهم بلهجة اختلط فيها المزاح بالجد : « الآن أنتم ترونني وغدا سوف لا ترونني ، ولهذا فقد دعوتكم لأودعكم »^(١) فنظروا إليه مندهشين وظن البعض أنه يمزح والبعض الآخر لم يفهم ماذا قصد مارتن بذلك ... وعندئذ قام بتوزيع بعض امتعته القليلة من ملابس وأشياء أخرى وعندئذ فهموا إلا أن الأمر لم يكن بالسهل تصديقه^(٢) .

وفي يوم ١٨ يوليو ١٥٠٥ كتب مارتن خطاباً لوالديه ليعلن لهما خبر دخوله الدير . وفي نفس اليوم قدم استقالته للجامعة مع الخاتم الذي أعطى له كاستاذ واخيراً انطلق الى دير القديس اغسطينوس للناسكين لينزوي فيه هناك باحثاً عن الطريقة التي يستطيع بها أن يرضي الله وأن يحصل بأعماله وحسناته واماناته الجسدية على البر فهل استطاع بها أن يحصل على بر الله وهل هدأ ضميره

كان وقع خطاب مارتن على أبيه يوحنا كوقع الصاعقة على مارتن في الغابة . فعندما قرأ يوحنا لوثر الخطاب الذي أرسله له ابنه معلنا فيه خبر دخوله الدير حزن حزناً عميقاً جداً ، وكيف لا يحزن ويتألم وهو قد بنى آماله وفخره على نجاح وتقديم مارتن في دراسته . ففي لحظة واحدة انهار أمام عينيه القصر الفخم الضخم الذي بدأ في بنائه منذ اثنين وعشرون عاماً . ضاعت الآمال يامارتن !! وفي غيظه وغضبه ضد ابنه بدأ يخاطبه من جديد قائلاً : « انت » بضمير المفرد بدل « انتم للاحترام » كان يوحنا لوثر ثائراً وغاضباً على ابنه ولم يرد أن يغفر له هذا الخطأ ولكن امام مرض الطاعون الذي طوى اثنين من أولاده في هذه الفترة وامام الاشاعات التي انتشرت بان يوحنا لوثر نفسه مريض رق قلبه وترأف على ابنه مارتن . فمع أنه لم يغفر له كل المغفرة الا انه كف على الاقل عن مهاجمته .

هوامش الباب الثالث

1. A. Greiner P. 25.
2. D. Hourticq P. 19.
3. Greiner P. 24.

و أ . موريسون ص ٢٤ ، ميرل دوينياه ص ٤٢ ، ٤٣ .

الفصل الرابع

الاستاذ لوثر يصبح راهباً أوغسطينياً

لماذا دخل مارتن لوثر الدير ؟ حاول المتخصصون في الدراسات اللوثرية (Les Lutheroques) أن يجدوا جواباً لهذا السؤال . فقدموا نظريات كثيرة ومعقدة . ولتبسيط الأمر سوف لا نتعرض إلا لنظريتين من هذه النظريات .

١ - يعتقد البعض أن قرار لوثر دخول الدير لم يكن ابن يوم وليلة ، بل كان نتيجة تفكير طويل وصلاة مستمرة وعميقة .

ألم يتأثر الشاب مارتن بحياة مدرسة مجد بوج ؟ ألم يترك أيضاً الراهب الأمير انطباعات عميقة في تأثيرها قوية في فاعليتها على نفس الشاب المراهف الاحساس عندما كان يراه يجول متسولاً في ثياب رثة وجسم نحيل ذلك كله لكي ينال الحياة الأبدية عن طريق الرهبنة ؟ فلم يدخل الدير إذن الا بعد أن فكر تفكيراً جدياً عميقاً .

٢ - النظرية الثانية : يعتقد اصحاب هذه النظرية أن لوثر اتخذ هذا القرار بطريقة فجائية وبدون ترو أو دراسة أو تفكير . ففي اللحظة التي سقطت فيها الشجرة امام قدميه ، وكادت أن تقضي على حياته ، في هذه اللحظة عينها رأى أن حياته بلا قيمة وفي نفس الوقت رأى أنه معرض للموت فصرخ مدفوعاً بهذا التأثير الوقتي قائلاً : « ياقديسة حنة إذا انقذتني ساكون راهباً بقية حياتي » . فإن هذا النذر الذي نطق به مارتن لم يكن نذراً مدروساً بطريقة واعية مدركة بل كان نذراً اضطرارياً في ظرف يناسب بأى حال من الأحوال اتخاذ هذا القرار الذي كان يجب أن يتخذ في ظرف هادئ وعلى غير عجلة هذا ما يقوله اصحاب هذه النظرية . ولتأييد فكرتهم هذه يقولون إن لوثر كان مضطراً ، رغماً عنه تحت ضغط الخوف من الموت لان ينطق بهذا النذر ولترجع الى كتابات لوثر نفسه للاستنارة بها في هذه المشكلة ففي كتاب كتبه سنة ١٥٢١ وقد أهداه الى أبيه حاول لوثر أن يشرح في مقدمته السبب الذي من أجله نطق بهذا النذر في غابة ستوترنهايم فقال : « اذكر .. أنى قلت لك أن دعوة مخيفة من السماء قد وجهت إليّ ، فلم أصر راهباً رغبة منى أو مسرة في الرهبنة بل دفعت بطريقة لا تقاوم للنطق بهذا النذر »^(١) ويقول مولر (Muller) ان هذا النص يوضح لنا الأسباب الحقيقية

التي من أجلها دخل لوثر الدير « لقد كان مدفوعاً بطريقة لا تقاوم »^(١) .

وقد رجع الذين يتمسكون بهذه النظرية الى لوثر والى ماكتبه في سنة ١٥٣٩ عن حادث الصاعقة حيث قال انه ندم على هذا النذر كما أننا نجد في خطاب (Crotus Rubiduns) المؤرخ بتاريخ ١٦ اكتوبر سنة ١٥١٩ قول لوثر بان البرق هو الذي قرر مستقبله .

من هذه الشواهد السابقة يعتقد البعض أن لوثر اتخذ هذا القرار تحت تأثير الخوف من الموت الذي أثارته الصاعقة في نفسه . وبناء على ذلك كان يعتقد أنه مضطر أن يوفي هذا النذر بلا رغبة ولا اقتناع .

فأمانة منه نحو هذا النذر وتمسكا بوعده دخل الدير . والسؤال الذي يجب أن نسأله هنا هو هل كان لوثر فعلاً ملتزماً بأن ينفذ ما قد وعد به في ظروف إضطرارية ؟ ان العارفين بالقوانين الكنسية الكاثوليكية يؤكدون لنا بان النذر يصبح فعلياً عندما يصرح به علانية وبطريقة رسمية . بل يمكن للناذر أن يتراجع في نذره اثناء فترة الاختبار^(٢) ومن المعروف والمسلم به أن مارتن لوثر لم يكن رجلاً أميناً جاهلاً لا يعرف القوانين الكنسية بل كان رجلاً متعلماً ومثقفاً . ولقد مر أولاً بفترة الاختبار بعد دخوله الدير ، وكان يمكن له خلال هذه الفترة أن يتراجع في قراره هذا لو كان فعلاً قد اخذ بطريقة عشوائية وتحت تأثير الخوف فقط .

ونحن نعتقد أن لوثر لم يأخذ هذا القرار بطريقة عشوائية وبدون تفكير . هذا صحيح بأنه نطق بنذر الترهيب أمام الصاعقة التي كانت تهدد حياته . ولكن لو كان لوثر لم يفكر قط قبل ذلك في حياة الترهيب ، ولو كان فعلاً ندم على نذره الذي نذره تحت تأثير الخوف من الموت ، لكان في استطاعته قانونياً ان يسحب هذا الوعد الذي وعد به ، لأن فترة الاختبار التي كانت تسبق الاحتفال الرسمي برهبنته خصصت لهذا الأمر .

كان لوثر ابن عصره ، ولقد اعتقد أهل ذلك العصر أن أسلم وأضمن طريقة للحصول على الخلاص هي الترهيب . وكان الناس في القرون الوسطى ينظرون الى الرهبان بكثير من الاحترام والتقدير ، وخاصة الرهبان الذين اختاروا نظاماً قاسية للرهبنة . وبما أن لوثر كان يبحث عن الخلاص والهروب من غضب الله فلا بد وأنه فكر مراراً في موضوع الرهبنة قبل حادث الصاعقة ، وهذه الأخيرة لم تكن هي السبب الأول والاساسي الذي دفعه لاتخاذ هذا القرار ، بل كانت العامل الذي ساعده على أن يقرر قراراً لم يستطع حتى الآن أن يخرج به الى حيز الوجود فلقد رأى في حادث الصاعقة كما لو كان الله يدعوه ، وشعر أيضاً أنه مرغم على أن يلبي هذه الدعوة ولاجل هذا يقول في خطابه لأبيه : « .. إن دعوة مخيفة من السماء قد وجهت اليّ فلم أصر راهباً رغبة مني أو مسرة فيها .. » .

وكما يبدو لي انه أراد أن يقول إنه لم يصبر راهبا حبا في الرهبنة في حد ذاتها ، بل لأنه شعر بأن الرهبنة تقوده الى ماكان يبحث عنه من فترة طويلة ألا وهو الخلاص . ان لحظة الصاعقة لم تكن هي اللحظة المصرية كما يقول كروتوس روبيانوس (Crotus Rubianus) بل أن حادث الصاعقة لم يكن الا حلقة في سلسلة . والدليل على ذلك هو أنه كان في امكانه - كما سبقت الإشارة الى ذلك - ان يتراجع في نذره هذا قبل ان ينطق به مرة ثانية عندما صرح به بطريقة رسمية علانية في سبتمبر ١٥٠٦ ولكننا نرى العكس ، فلقد استمر مارتن مدة طويلة يلتمس رضا أبيه وموافقته على نذره . وحتى ٤ ابريل سنة ١٥٠٧ يوم الاحتفال بسيامته كاهنا حاول مارتن ان يشرح لايه مزايا الرهبنة حتى ينال موافقته .

وفي فترة الرهبنة كان مارتن راهبا مثاليا ، لأنه كان يبحث عن خلاص نفسه واعتقد ان الطريق الأسلم كان الدير . وملانكتون الذي يعرف لوثر اكثر من أى شخص آخر يقول فيما يخص دخوله للدير ان الدافع الدينى والخوف من الغضب الإلهى هما اللذان قادا لوثر الى الدير لكي يكرس حياته بجملةتها للحصول على الخلاص .

واننا نعتقد أن هذا هو الهدف الاساسى الذى دفع لوثر لاتخاذ هذا القرار . لقد أراد أن يتحرر من العالم ومن مشاكله وشواغله . وكان مدفوعا برغبة قوية عميقة في الحصول على الخلاص . فأين يجد هذا الخلاص ؟ ان المكان المثالى للحصول على هذا الخلاص المنشود والهروب من غضب الله هو الدير . لقد فكر في هذا الامر مدة طويلة ، وهنا امام الصاعقة استطاع أن ينفذ ما فكر فيه طويلا .

كانت مشكلة لوثر مشكلة دينية لازمته لمدة طويلة جداً في حياته ، ولم يتحرر منها الا بعد أن قاده الروح القدس الى الاختبار العظيم وهو اكتشاف عقيدة التبرير بالايمان . على ان بعض كتاب السير (Biographies) الكاثوليك قد احتجوا في العصور البائدة واستمر هذا الاحتجاج الى عصر ليس ببعيد على حقيقة أن لوثر كان يمر بأزمة روحية دينية حقيقة . فقد حاول دانيفل (Denifle) عبثا أن يشرح أهم الوثائق التى تتحدث عن أزمة لوثر يرجع تاريخها الى سنة ١٥٣٠ . وبناء على ذلك لا توجد أى أزمة روحية حقيقية في حياة لوثر ، وبحسب مايعتقد دانيفل أن لوثر قد اخترع قصة بدون أساس ، يهدف منها تشويه سمعة الكنيسة وتبرير عجزه وعدم مقدرته على حياة المثل الرهبانية العليا^(٤) .

ولا ينكر جرزار (Grisar) وجود الأزمة بل يعترف بوجود لحظات صراع وحزن وغم في حياة لوثر . ويرجع كل هذا الى أن لوثر كان يعاني من مرض نفسى يحتاج الى العلاج . وعلى أى حال فان الاغلبية الساحقة من العلماء الكاثوليك المتخصصين في دراسة لوثر وتعاليمه ، يرفضون حاليا كتابات دانيفل وجرزار^(٥) وسوف نناقش هذا الأمر فيما بعد .

حياته في الدير :

لقد أخطأ دانيفل خطأ كبيراً عندما قال ان لوثر اخترع هذه الأزمة الروحية لكي يشنع بالكنيسة ولكي يبرر نفسه الفاشلة . في عدم قدرته على تحمل الحياة الرهبانية . وما يمكننا أن نقوله رداً على ذلك هو أن لوثر لم يرد قط أن يشنع بالكنيسة بل كان يكن لها كل حب وتقدير واحترام . وكل ما حاول أن يعمل فيما بعد ما هو الا اصلاح هذه الكنيسة التي يحبها . كما أنه لم يكن عاجزاً عن القيام بكل الواجبات المطلوبة من الرهبان ، كما يدعى ذلك دانيفل ، بل كان راهباً مثالياً . لا يقوم فقط بما تتطلبه قوانين ونظم الرهبنة ، بل كان يفعل اكثر من ذلك . الم يكتب فيما بعد قائلا : « لا ريب في أني كنت راهباً تقياً ، فعشت حسب قوانين الرهبنة خير حياة فلو كان للراهب ان ينال السماء باعماله الرهبانية لكنت أول نائليها ويشهد بذلك كل من عرفني من الرهبان ولو طال عليّ ذلك لقتلت به نفسي »^(١) .

ولربما يقول معترض ان الذي كتب هذه السطور هو لوثر نفسه . فهناك شهادة أخرى تؤيد تماماً هذا القول : فان فلاسيوس (Flacius) قص قصة حدثت له في سنة ١٥٤٩ فقد تقابل مع راهب في سنة ١٩٤٣ ، وكان هذا الراهب مع لوثر في نفس الدير لمدة ثمانى سنوات . ويشهد هذا لراهب بأن لوثر كان يحافظ على قوانين الدير بدقة شديدة كما أنه كان يحيا حياة التقوى ممارساً أعماله باجتهاد^(٢) والجدير بالذكر أن هذا الراهب لم ينضم ابد للاصلاح . وهذا ما يعطى لهذه الشهادة قوتها .

وقد كان لوثر راهباً تقياً ، بدافع التقوى ورغبة في الحصول على السماء وعلى بر الله باعماله المحسنة ، اختار ديراً قاسياً في نظامه ، وهو دير الاغسطيين في مدينة أرفورت . ولقد كانت قوانين هذا الدير شديدة صارمة جداً ومنها :

الصلاة سبع مرات يومياً ، والاستيقاظ في الساعة الواحدة صباحاً فعندما كان يقرع الجرس الأول كان على الراهب أن يرسم علامة الصليب ويستعد لارتداد ثيابه ، وعند سماعه صوت الجرس الثاني كان عليه ان يترك قلايته مسرعاً الى الكنيسة ثم يسجد امام الهيكل ويصلي صلاة تعبدياً للمخلص ، الى أن يحضر الجميع وعندئذ كانوا يصلون معا لمدة حوالى ٤٠ دقيقة . كان على الرهبان أيضاً ألا يتناولوا الا وجبة واحدة في الساعة الثانية بعد الظهر . لمدة تصل الى نصف ايام السنة . وفي هذه الفترة كانوا لا يأكلون لحماً ولا زبدة ولا جبناً ولا بيضاً . كانت قلايات الشباب بدون تدفئة في الشتاء وكما يقول ستروهل « كان السهر والصيام والبرد حقائق تاريخية وليست اساطير وقد مارسها فعلاً الرهبان » . وبالرغم من الصيام والسهر والاشغال اليدوية الأخرى ، التي كان على كل راهب مبتدئ أن يقوم بها . فقد كلف كل راهب بان يقوم بجولات تسولية في المدينة . وكان الغرض من هذا التسول أولاً : أن يتعود الراهب على التواضع والطاعة . ثانياً : لكي يمد الدير بالاشياء التي يحتاج اليها . ولقد اعتقد البعض أن

هذه العملية كانت اهانة لشاب مثقف أو جامعي ، ولهذا السبب طلبت الجامعة من الدير اعفاء لوثر من هذه المهمة^(١٠) وفي حقيقة الأمر كان هذا القانون يطبق على جميع الذين التحقوا جامعيين كانوا أو أميين ، ألم يطبق هذا القانون على الأمير الانهالت ؟ (انظر هذا الكتاب ص ٣٥) ولوثر نفسه قال بطريقة تخلو تماماً من لوم رئاسة الدير : أن اخوة الدير لا يقبلون الاستثناءات لاي شخص جديد أى كان^(١١) . أما فيما يخص موضوع تدخل رئيس الجامعة فليس لكى يعفوا مارتن من أى عمل من هذه الأعمال ، بل لكى يسمح له بأن يواصل دراساته وتدريسه وكان قانون الدير يسمح بذلك .

ومن الواضح أن لوثر لم يتذمر أو يتبرم من كثرة العمل أو دناءته ، ولا من السهر والصيام والصلاة إذ أن هدفه من دخوله الدير كان الحصول على رضا الله . وكان يريد أن يخلص نفسه من الهلاك الأبدى ومن غضب الله . فكيف يمكنه إذن - حسب ما اعتقد آنذاك - أن يحصل على الخلاص الا بالسهر والصلاة والصوم وتعذيب الجسد واستعباده !!!؟ .

اعتقد لوثر كما كان يعتقد الكثيرون في هذه الفترة أن الخلاص أو ارضاء الله أمر متوقف على مايقوم به الانسان من اعمال صالحة وصوم وصلاة وعمل اماتات الجسد . فعن طريق هذه الاعمال يمنح الله نعمته ولهذا السبب لم يكف جهداً عن القيام بهذه الأعمال ، كما أنه كان يقوم بأعمال وضیعة من غسل وكنس ورش وتسول في المدينة . لقد كان يقوم بما كلف به وما لم يكلف به من هذه الاعمال الوضیعة الشأن وكان يصلى ايضاً اوقات وساعات طويلة ، ألم يقض عدة أيام في صومعته وهو يصلى حتى فقد الوعي تماماً واضطر الاخوة أن يكسروا الباب لكى يقوموا بالاجراءات اللازمة لانهاشه !!!؟؟ ويقول هو نفسه « كانت حياتى عبارة عن صوم وسهر وصلاة وعرق ، فقد كدت أن اقتل نفسى بالسهر وبالدراسة وبالصلاة وبالاعمال الكثيرة الاخرى »^(١٢) كان يريد أن يجمع ما أمكنه من الاستحقاقات والاعمال الصالحة . ولذلك قال : « لقد رأى الآخرون في حياتى مظهراً عظيماً للقداسة على انها لم تكن واضحة في عيني فقد كنت محطماً وحزيناً »^(١٣) ورغم الاماتات والتضحيات والاعمال الصالحة التى كان يقوم بها لوثر لم يكن على يقين من خلاصه ، وهذا هو السبب وراء شعوره بالحزن . كان يشعر دائماً أن الله في ثورة ضده . وهذا ماقاله له ستويتر معارضاً أنه ثائراً ضد الله .

لقد مضى الآن أكثر من عام على لوثر في الدير وهكذا اجتاز فترة الاختبار . ولا لوم ولا « غبار » عليه . وجاء اليوم الموعد الذى فيه استطاع مارتن لوثر أن يصرح بحرية تامة وبدون أى ضغط خارجى أو داخلى بنذره للرهبنة . فبدون تردد ولكى يواصل العمل في الحصول على خلاصه بنفسه ، أعلن مارتن لوثر في سبتمبر ١٥٠٦ نذره النهائي للرهبنة ودعى باسم الراهب اغسطينوس^(١٤) .

سيامته كاهنا

بعد أن صرح الاخ مارتن أغسطينوس بنذره لحياة الرهينة في سبتمبر ١٥٠٦ قرر الدير سيامته كاهنا في الرابع من ابريل سنة ١٥٠٧ في كاتدرائية أرفورت . وفي يوم ٢ مايو من نفس السنة أقام الدير حفلاً عظيماً بمناسبة أول قداس يقوم به الكاهن لوثر . ولقد اجتاز في هذا اليوم اختباراً مريراً قاسياً فقد قال : « عندما قمت بخدمة أول قداس لي شعرت أني على حافة الموت »^(١٦) . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا هو : لماذا وصل لوثر الى هذه الحالة يوم قيامه بأول قداس له ؟ لماذا هذا الخوف والاضطراب والانزعاج ، لدرجة أن رئيسه الذي كان واقفا بجانبه اضطر أن يسنده ؟

لقد أصبح مارتن الآن كاهنا : أى الشخص الذى يقوم بعمل معجزة تحول الخبز والخمر الى جسد الرب . هذه المعجزة التى لا يستطيع أى علمانى مهما كانت درجته أو مكانته أو عظمته فى الدنيا . إن يعملها أن الله بجلاله وعظمته سيكون بين يديه بعد فترة قليلة عندما ينطق بالكلمات الجوهرية . قائلاً هذا هو جسدى وهذا هو دمي . سوف يختفى هذا الخبز الذى يمسكه الآن بين يديه كذلك الخمر أيضا ويحل محلها كنية وجزئية المسيح* فهل يمكن لى أنا الانسان الخاطيء أن أمسك بين يدي الله البار القدوس الذى اضطرب اضطراباً عظيماً من الوجود فى حضرته ؟!!!

هذا هو السبب الذى جعل مارتن يضطرب ويخاف وينزعج فى نفسه بل شعر أن قواه تدهورت وأن ساقيه لا تقويان على حمل جسده . كان هذا الاختبار بالنسبة للكاهن الجديد قاسياً ومريراً . على أى حال انتهى القداس وجاء المدعوون ليقدموا تهنئتهم المعتادة للكاهن الجديد . وكان عليه أن يلقي كلمة فى حفل الطعام . وفى هذه الكلمة وصف الحياة الرهبانية بانها « الحياة السعيدة الإلهية » هل كان يقصد بذلك النتيجة التى تؤدى اليها حياة الرهينة ؟... وفى هذه الحفلة رفع أبوه يوحنا لوثر بالقول : « هل من العدل أن يمدحوا هكذا رجلاً لم يقم أى وزن لارادة أبيه مكسراً وصية من أقدم وصايا الله ؟ » كان يقصد الوصية الرابعة الخاصة باكرام الوالدين - فعلى أى حال إن دلت هذه الكلمات على شئ تدل على أن يوحنا لوثر لم يكن حتى الآن راضياً كل الرضا عن ابنه^(١٧) . انتهى الحفل ورجع كل واحد الى أعماله ، كذلك مارتن الى قلايته وابتدأ من جديد دراساته وتأملاته وصراعه . كان مارتن فى صراع مستمر لأنه كان يرى الله دائماً كما لو كان قاضياً مخيفاً ويسوع المسيح دياناً للاحياء والأموات .

لقد اعتقد البعض أن الخطية هى السبب الأول والدائم الذى كان يثير الخوف والرعب والاضطراب فى نفسية لوثر ومما لا شك فيه أن الخطية كانت سبباً من أسباب اضطراب لوثر ، على أنها لم تكن السبب الأول والاساسى ، لأن السبب الأول والاساسى فى اضطراب

وخوف لوثر كان مفهومه الخطيئة عن شخص الله . فقد تصور الله قاضيا مرعبا مخيفا كما تصور يسوع المسيح ديانا مهيبا ولم يحاول أن يرى الله كأب محب ولم يحاول أن يرى يسوع المسيح مصلوبا على الصليب بدافع الحب ، لكنه كان يرى دائما يسوع المسيح الجالس على العرش ليدين الأحياء والأموات ، فهو الذى يأمر بأن يلقي الأشرار فى العذاب الأبدى . فحسب مفهومه هذا يكون يسوع قد جاء لكى يهلك لا لكى يخلص الهالكين .

شعاع من نور فى ليل حالك الظلام

مقابلة الشاب لوثر مع ستوبيتز (Staupitz)

لقد هرب لوثر من العالم والقى بنفسه فى أحضان الدير ، ظانا أنه سيجد داخل جدران الشايخة المرتفعة وفى الصلوات التى يرفعها الرهبان ليل نهار سيجد الملجأ والسلام اللذين يبحث عنهما . ولقد مرت الأيام والشهور ، بل سنتان ، ومازال فى شكوكه وصراعه وخوفه من الله القاضى الذى يعاقب الخطاة ويطاردهم أينما وجدوا .

وفى أحد الأيام أصيب مارتن بمرض خطير وأشرف على الموت . وعندئذ بدأت اضطراباته من جديد أمام مشكلة الموت والخوف من الله تثار من جديد وجاء إليه راهب شيخ وتحدث معه طويلا . ولقد وثق الراهب الشاب فيه واطمأن اليه . فقص عليه بعضا من مشاكله الروحية ، ومخاوفه من عقاب الله الديان العادل . وعندئذ ذكر الراهب الشيخ راهبا الشاب بما يقول قانون الايمان « أؤمن بغفران الخطايا » ثم أردف قائلا أنا أؤمن بمغفرة الخطايا^(١٨) كان لهذه الكلمات البسيطة التى كان يرددها لوثر كل يوم فى قانون الايمان وقعا جديداً وتأثيراً عميقا جدا فى نفسه وهكذا بدأ يفكر أن الله لا يدين فقط بل يغفر الخطايا أيضا .

ولانعلم بالضبط من الناحية التاريخية فيما إذا كانت مقابلة هذا الراهب الشيخ مع لوثر تمت قبل أو بعد أول مقابلة له مع النائب العام للاديرة الاغسطينية فى المانيا . ولكننا نعلم أن ستوبيتز لعب دورا هاما فى حياة لوثر .

كان ستوبيتز نائبا عاما لكل الاديرة الاغسطينية فى المانيا . ولقد تميز بنبل أخلاقه ودقة سلوكه وسمو حياته الروحية والتواضع وكان مثاليا فى حياته ووداعته ومحبه . وبما أنه كان مسئولا عن كل الاديرة الاغسطينية فى المانيا فقد كان كثير الترحال . ومن المحتمل أن يكون قد تقابل مع الراهب الاغسطينى (مارتن) لأول مرة فى أرفورت أو فيتمبرج (Wittenberg) وربما فى سنة ١٥٠٧ أو ١٥٠٨ لكن الأهم من هذا كله هو المقابلة التى حدثت بين هذين الرجلين : بين رجل تقى عميق الايمان مستنير ، ومطلع ليس فقط على اقوال الابهاء ، وخاصة كتابات القديس أغسطينوس بل على الكتب المقدسة أيضاً . وشاب

قلق مضطرب يبحث بمجد وامانة عن طريق الخلاص وهنا يتقابل هذا الشاب المضطرب الخائف من الله مع هذا الرجل الواثق من الله والمحِب له .

وبدون شك فإن الرئيس العام يوحنا ستوبيتز شجع هذا الشاب الراهب على أن يفضي اليه بأسرارهِ وان يعترف بخطاياهِ وان يشاركه همومه ومشاكله الروحية . ومما لا شك فيه أيضا أن لوثر انتَهز هذه الفرصة فرصة القلب المفتوح لكي يعترف له بكل شيء . يعترف له بشكوكه واضطراباته وخوفه من الله . وتوجد بعض الوثائق التي سجلت لنا بعض من المناقشات والمحادثات والرسائل التي تمت بين لوثر وستوبيتز وبين لوثر وآخرين . فما هي المشاكل التي كانت تقلق لوثر والتي حاول ستوبيتز مساعدته في حلها ؟

١ - مشكلة الخوف من الله ومن الخطية :

من المشاكل التي ناقشها لوثر مع ستوبيتز (Staupitz) مشكلة الخوف من الله ، ثم الخوف من ارتكابه خطية مميتة . ولابد أن ستوبيتز في شرحه للوثر جروح المسيح قد ابرز له موضوع محبة الله . « الله محبة » فلا خوف في المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى الخارج (١ يو ٤ ، ٨ ، ١٩) فإذا كنا ننظر الى الله كأب محب لانجد مكاناً للخوف . وفي أحد الأيام لاحظ المرشد وجه لوثر عابسا فسأله عن سبب عبوسه وكان الجواب هو خوفه من الخطية وغضب الله . فقال له ليس الله هو الغاضب عليك أو الثائر ضدك بل أنت الغاضب والثائر ضد الله^(١) ثم قال له ستوبيتز اني مرة أخرى « لقد تعاهدت مع الله أكثر من ألف مرة بأن اكون قديسا وحنثت بوعدي ولم استطع ، فإن لم يرحمني الله في المسيح فاني هالك »^(٢) .

٢ - مشكلة الاختيار (Predestination) :

ومن المشاكل الأخرى التي سببت للوثر القلق والاضطراب مشكلة الاختيار . فكان يتساءل، عمن يضمن له أنه واحد من المختارين ؟ وهل الله هو الذي يختار الانسان أم الانسان هو الذي يختار الله ؟ فإن كان الاختيار مبنيا على الاعمال الصالحة والامانات ، فهل أعمال الصالحة واماناتي كافية بأن تجعلني واحداً من المختارين ؟ وان كان الاختيار متوقفا على قصد الله وحده فهل أنا واحد من هؤلاء الذين سبق الله فعينهم للحياة الأبدية ؟ (رو ٩) وكيف يمكنني أن اعرف ذلك ؟ وهل استطاع مرشد لوثر الروحي ان يطمئن قلبه المضطرب وروحه المنزعجة . فلقد كتب لوثر خطابا في سنة ١٥٤٢ الى كونت مانسفلد الذي كان يمر بنفس المشكلة ، وقال في خطابه انه شديد الأسف لسبب اضطرابه وقلقه امام مشكلة الاختيار . ثم أردف قائلاً : « لقد كنت أنا أيضا غارقا في هذه الافكار . ولو لم ينتشلني الدكتور ستوبيتز أو بالحرى لو لم يستخدم الله الدكتور ستوبيتز لانتشالي لفقدت حياتي وصرت من مدة طويلة في الجحيم »^(٣) .



من هذا النص يمكننا أن نرى أن لوثر كان مشغولاً وقلقاً على مستقبله الأبدى . كما يتضح أيضاً أن مرشده الروحي استطاع أن يدخل السلام الى قلبه ، ولو جزئياً . يقول لوثر إنه تحدث ذات يوم مع ستوبيتز عن مشكلة الاختيار التي كانت تقلقه ، فقال له أن جروح المسيح هي التي تقدم للعالم المعنى الحقيقي للاختيار لاشيء آخر ثم قال له أيضاً ، ان الذين يريدون أن يناقشوا مشكلة الاختيار عليهم أن يثبتوا أنظارهم على جروح المسيح فإن الله بذل ابنه لكي يتألم بدل الخطاة^(٢٣) ومن يؤمن بهذا فهو في الطريق المستقيم . كان ستوبيتز عميقاً في الروحانيات وفي الفكر أيضاً . فقد فتح عيني الراهب الشاب على حقيقة أن الله ليس هو القاضي الخيف الذي يطارد الانسان ، بل بالعكس هو الآب المحب ومحبه لا حدود لها فهل يمكن للوثر أن يخاف من هذا الإله !!!؟

لقد لعب رئيس أديرة الاغسطينيين دوراً هاماً جداً في حياة لوثر ، وهذا الأخير لم ينس فضله ففي خطاب قد كتبه في سنة ١٥٤٥ يدعو فيه ستوبيتز « أباه » بين لوثر كيف أنه مدين له بالعقيدة الانجيلية وبميلاده الثاني في المسيح^(٢٤) كما أنه مدين له أيضاً بنور الانجيل الذي انار حياته .. وفي خطاب آخر كتبه الى أبيه الروحي يذكره بمحدث بينهما على المائدة بخصوص موضوع التوبة فقال : « ان الكلمات التي قلتها لي بدت لي كما لو كانت آتية من السماء ، وعندما قلت ان التوبة الحقيقية تبدأ بمحبة البر ومحبة الله » .

لقد كان تأثير ستوبيتز على لوثر عميقاً . فقد كانت زيارته لهذا الشاب الراهب ومناقشاته معه عبارة عن شعاع من نور في ليل حالك الظلام فأثار طريقه وهدى خطواته فقد استطاع هذا الرجل بنعمة الله وبصلاته الحارة وبمحبه العميقة وبمعرفته للكتاب المقدس استطاع ان يقود هذا الشاب الى الحق الإلهي ولو جزئياً ! فإن كان لوثر يدعى أباً للاصلاح الالماني ، فإن ستوبيتز كان الاب الروحي للوثر .

هوامش الفصل الرابع

1. H. Strohl, Luther Jusqu'en 1520 P. 37.
2. A.V. Muller Cite' Par Strohl, P. 37.
3. H. Grisar S J, Luther 3 Vol, Fribourg 1911. P. 12.
4. H. Strohl. Savie ... P. 39.
5. R. Stauffer, Le Catholicisme à la d'couverte de Luther, Delachaux & Niestle, P.P. 11-24.

★ Denife كاتب لاهوتي كاثوليكي دومنيكاني كتب أربعة مجلدات سنة ١٩٠٤ تحتوي على هجوم عنيف ضد المصلح بعنوان « لوثر واللوثرية » وترجمت هذه الكتب الى الفرنسية في سنة ١٩١٠ - ١٩١٣ ولقد اشتهر هذا الكاتب في العالم كله بكتاباتة عن القرون الوسطى . أما الاستاذ جرزار (كرزار) فهو كاثوليكي أيضاً ، استاذ ، كاهن يسوعي كتب ثلاثة مجلدات حولي في ٢٦٠٠ صفحة تحت عنوان لوثر . لم يستعمل نفس الاسلوب القاسي الذي استعمله دانفيل في هجومه ، غير أن أسلوبه المعسول كان يخفى سيما أشد فتكا من الاسلوب الجاف القاسي الذي استخدمه دانفيل .

6. R. H. Bainton. P. 34, H. Strohl. Savie P. 36, Greiner. P. ٤٦ ، ص ٥ ، دوينيه 29.
7. Grisar. 3. Vol. P. 692.
8. R. Baintoh P. 27-28.
9. H. Strohl, P. 45-46.

١٠ - د . عزت زكي ، ص ٤١

11. Strohl, P. 46.
13. Greiner P. 25.
14.
15. D. Hourticq. P. 21-22.
16. A. Greiner P. 28-30.

★ وهو اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية في عقيدة الافخارستيا وسوف نرجع الى هذا الموضوع في الحديث عن مفهوم لوثر والكنيسة الكاثوليكية في الافخارستيا .

17. D. Hourticq P. 22-23.

19. Greiner, P. 37.

20. Luther. Comm. Gal (1531), D. Hourticq 23. میرل دویینیاہ ص ۴۸

21. WBR 9,3716, P. 627, 1.215.

22. TI 2, 1940.

23. W. TI 2, 1820 (D 262)

24. Kostlin 1,71.

الفصل الخامس

عودة لوثر للتدريس

كان ستوبيتز (Staupitz) عميداً لكلية اللاهوت في فيتمبرج^(١) وعندما قابل ستوبيتز الراهب لوثر رأى فيه الشخص القلق المضطرب لكنه وجد فيه ذكاءً ملحوظاً ، وتقوى صادقة بلا رياء وجدية في العمل ورغبة في البحث والدراسة . كما شعر بما يجول في خاطره من مشاكل روحية .

ويبدو أن ستوبيتز وضع في قلبه أن يساعد هذا الراهب الشاب لكنه كان يفكر في الطريقة المناسبة لمساعدته سيما وأنه لا يسكن معه في نفس المدينة كما أنه كان كثير التنقل وأخيراً وجد هذا الرجل طريقة لمساعدته . فقد فكر أن يخرج هذا الشاب من الوسط الذي كان يعيش فيه وأن يحضره الى جامعة فيتمبرج .

ويعتقد البعض أن ارسال لوثر الى فيتمبرج تم بناء على قرار اتخذته جمعيته وكان لستوبيتز دور كبير في هذا القرار الذي صدر بعد اجتماع في ميونخ في ١٨ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥٠٨ .

وفي خريف سنة ١٥٠٨ ترك الراهب اغسطينوس وستة من اخوة الدير أرفورت وانطلقوا الى المدينة الجامعية الصغيرة في فيتمبرج وأقاموا في دير القديس اغسطينوس . وقد كلف لوثر بالقاء محاضرات في الجامعة عن فلسفة أرسطو^(٢) . وفي الوقت نفسه كان يتابع دراساته في كلية اللاهوت^(٣) .

وبعد انتهاء العام الدراسي وبعد أن تقدم أيضا لبعض الامتحانات في فيتمبرج للحصول على درجة البكالوريوس في العلوم اللاهوتية ، طلب منه أن يرجع الى أرفورت . رجع فعلا الى هذه المدينة قبل أن ينهى الامتحانات التي بدأها في فيتمبرج واضطر أن يتقدم من جديد لاجتياز الامتحانات التي كانت تجربها كلية أرفورت إذ انها كانت لا تقبل بسهولة الدرجة التي كانت تمنحها جامعة فيتمبرج^(٤) .

نجح لوثر في كل هذه الامتحانات وعين أستاذاً في هذه الكلية التي درس فيها لمدة قصيرة جداً قبل دخوله الدير في سنة ١٥٠٥ . وهكذا بدأ لوثر من جديد التدريس في جامعة أرفورت في سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥١٠^(٥) .

كانت الفترة التي قضاها الأستاذ الطالب مارتن لوثر في التدريس والدرس في جامعة فيتمبرج فترة عظيمة جداً ، فقد استطاع خلالها أن يغير الجو الذي كان يعيش فيه وأن يجد له نخبة جديدة من الأخوة والاصدقاء . كما أنه استطاع ايضاً أن يدرس في كلية اللاهوت . وبالرغم من هذا كله كانت المشاكل الخاصة بموضوع خلاصه الأبدى والخوف من الله القاضى القاسى ترافقه في كل مكان . ان هذه الفترة تعتبر من أهم الفترات في حياة لوثر إذ اشتد فيها القلق الروحي .

ولم تبدأ صداقته القوية العميقة مع رئيس الاديرة غالباً الا بعد سنة ١٥١١ . وحتى هذا الرجل لم يستطع أن يحل الا جزءاً من مشاكله .

لوثر في روما :

في اثناء هذا الصراع النفسى العنيف ، وبينما كان لوثر يجتاز فترة البحث عن طريقة يستطيع أن يهدأ بها غضب الله القاضى القاسى ، لاحت له الفرصة الذهبية فجأة بحسب اعتقاده . فقد كانت توجد بعض الخلافات بين الاديرة الأغسطينية في المانيا فيما يخص موضوع تجمع هذه الاديرة في جمعية واحدة . ولقد ذهب ستوبيتز نفسه عدة مرات الى روما لمقابلة الرئيس العام لعرض هذه القضية عليه . لكن المشكلة لم تحل واختار دير أرفورت لوثر لكى يذهب للدفاع عن هذه القضية لدى الرئيس العام لجماعة الاغسطيين وليس لدى البابا*^(٦) .

وعندما سمع لوثر بأن الاختيار قد وقع عليه للذهاب الى روما للدفاع عن هذه القضية . فاض قلبه بالفرح وامتلاّت نفسه بالسعادة والاطمئنان . وكيف لا يشعر بالسعادة والفرح لذهابه الى روما !! المدينة التى يقيم فيها البابا نفسه وكيل المسيح على الأرض وخليفة الرسول بطرس . المدينة التى استشهد فيها بطرس وبولس . روما التى شاهدت صراع ونضال المسيحيين الأولين الأبطال ، الذين استطاعوا ان يحصلوا على خلاص أرواحهم من العذاب الأبدى بصبرهم وعذابهم وآلامهم وتضحياتهم حتى الموت . روما التى أمتلاّت بالكنائس وبذخائر** القديسين وعن طريق زيارة بعض هذه الكنائس وبعض ذخائر القديسين يستطيع الانسان التائب أن يحصل على غفرانات كثيرة ولسنين عديدة . أليس هذا ما كان يبحث عنه من سنين عديدة ؟ ألم يكن هذا ما تتوق اليه نفسه من مدة طويلة ؟ بل ألم يدخل الدير لأجل هذا السبب عينه ؟

نعم كانت هذه الفرصة من السماء ، لأنها فتحت عينى لوثر فيما بعد ، وبعد عدة سنوات على حقيقة عظيمة .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها روما ، (اورشليم المقدسة) غادر لوثر أرفورت مع صديقه الذي أرسل معه في هذه المهمة في خريف سنة ١٥١٠ كانت الرحلة طويلة مرهقة : فقد استغرقت مايقرب من ٣٥ يوما ذهابا ومثلها للعودة كما مكثا شهراً في روما وكانا يسيران بسرعة ٤٠ كيلو متر تقريبا في اليوم^(٧) .

مما لاشك فيه بان لوثر قد أهتم بموضوع الدفاع عن القضية التي حضر من أجلها وهي موضوع النزاع الخاص بالاديرة الاغسطينية ، ولم يوفق في هذا الأمر . وبقيت القضية معلقة . على أن الذي كان يهم لوثر أكثر من ذلك والذي كان يشغل باله نهائياً وليلاً ويثقل قلبه ، هو موضوع خلاصه ولهذا فقد بدأ حال وصوله الى روما يطوف شوارعها ويزور كنائسها ويسجد طويلاً مصلياً ومتعبداً امام هياكلها . فلقد عزم أن يعترف اعترافاً شاملاً كاملاً لكي يحصل على أكبر عدد من النعم التي وعد بها الله عن طريق ذخائر القديسين الموجودة في تلك المدينة . هذا ماكان ينتظره لوثر من المدينة المقدسة . ولكنه بدأ يتعثر لا بل يتأثر شديداً جداً عندما رأى حالة الرهبان الذين نزل عليهم ضيفا وحالة الكنائس والاكليروس عامة . كان بعضهم يعيش عيشة البذخ والرفاهية ، كأمرأى وحكام لا خدام معلمين ومبشرين وخدامين^(٨) .

وبالرغم من هذا فقد واصل بجده واجتهاد زيارته للكنائس والمقابر والأمكنة المقدسة التي يتمتع من يزورها تائباً بالغفران . فقد كان ينتهز هذه الفرصة القصيرة لكي يحصل على أكبر عدد من الغفرانات .

وفي يوم من الأيام وجد نفسه أمام كنيسة القديس يوحنا . وعندما دخل تلك الكنيسة الصغيرة شعر بالأسى إذ كانت امه ما زالت على قيد الحياة . فمن المتعارف عليه انه إذا اقام كاهن قداساً مساء الاحد في هذه الكنيسة فان روح أم الكاهن الذي يقيم القداس تخرج من المطهر ولاجل هذا السبب فإنه تأسف شديداً لأنه لم يستطع ان ينتهز هذه الفرصة لخلاص امه من المطهر^(٩) . ولقد راودته نفس الفكرة عندما عرف بأن صعوده على السلم المقدس يمكن أن يخلص والديه من المطهر . وبما أنه كان يريد أن يحصل على أكبر عدد من الغفرانات الممكنة له وللعائلة . وبما أن والديه كانا على قيد الحياة ولا فائدة من عمل هذه التضحية التي لا تفيدهما فقد قام بصعود السلم المقدس لكي يخلص جده الذي كان يحبه كثير من المطهر .

لكن ماهذا السلم المقدس ؟ (Scala Santa)^(١٠) كان أمام كنيسة روما سلم مكون من ثمان وعشرين درجة يقال ان المسيح صعد عليه للمثول أمام بيلاطس عند محاكمته . وكان المعروف أن من يصعد هذا السلم على ركبتيه مصلياً على كل درجة الصلاة الربانية يحصل على غفران خطايا الشخص الذي يهيمه في المطهر . وعندما وصل لوثر الى آخر درجة ناجى جده

قائلاً : « هل خرجت الآن من المطهر أيها الجد العزيز ؟ وهل أنت سعيد الآن ؟ » وبعد هذه المناجاة شعر بسؤال يدور في ذهنه وهو : هل خرج جدى فعلاً من المطهر ؟ وهل هذا صحيح ؟ من يدري ؟ ولقد تضاربت الآراء حول هذه القصة الخاصة بصعود لوثر على هذا السلم .

فقد اعتقد البعض ان لوثر سمع وهو يصعد هذا السلم صوتاً يقول له : « اما البار فبالإيمان يحيا » فانسحب من بين الزاحفين ، (دكتور عزت زكى) ص ٤٤ ثم أ . موريسون ترجمة القس باقى صدقة ص ٣١ ، (Bainton) ص ٣٨ على أن بعض العلماء يرى بأن لوثر لم يكتشف حقيقة البر بالإيمان التى تكلم عنها الرسول بولس (رو ١ : ١٦ ، ١٦) مقتبساً ايها من سفر حبقون ٢ : ٤ عند صعوده على هذا السلم بل أن هذه القصة ماهى الا اسطورة من الأساطير التى أضافها التقليد البروتستانتي (Strohl 86) ويقول هؤلاء العلماء بأن الذين يعتقدون بأن لوثر قد اكتشف عقيدة التبرير بالإيمان عند صعوده هذا السلم يرجعون الى قصة قد كتبها بولس لوثر - ابن لوثر وهو طبيب - ويقول بانه سمع هذه القصة من فم أبيه وهو فى سن الحادية عشرة من عمره* على أن العالم (Kostlin) لايشك فى صحة هذه الرواية الا أنه يرى بأن البعض بالغ كثيراً فى استعمالها . أما (Buchwald) فقد اكتشف فى مكتبه زويكاو (Zwickau) مخطوطة تحل لنا هذه المشكلة ففى عظة القاها لوثر فى يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٥٤٥ قال فيها « لقد أردت وانا فى روما أن أخلص جدى من المطهر وصعدت سلم بيلاطس وكنت أتلو على كل درجة الصلاة الربانية . لانه قيل بان الذى يفعل هكذا يستطيع ان يخلص نفسه . ولكن عند وصوله الى النهاية تساءلت : من يعرف إذا كان هذا الامر حقيقة ؟ »

ويحتمل أن ابن لوثر - بولس - الذى سمع هذه القصة وهو فى سن الحادية عشر من عمره حاول ربطها بعبارات أخرى لاييه كان قد شرح بها اهمية رسالة رومية بالنسبة له بعد عودته من مدينة روما .

ونحن نعتقد أن لوثر لم يكتشف عقيدة التبرير بالإيمان الا بعد عدة سنوات من زيارته لروما ويحتمل بأن فكرة التبرير بالإيمان لمعت أمامه وهو يصعد هذا السلم الامر مع أن هذا غير مؤكد كما أن موضوع التبرير بالإيمان لم يظهر فى تعاليمه قبل سنة ١٥١٣ . وهذا واضح من هذه الناحية . لأن لوثر ذهب الى روما سنة ١٥١٠ وبعد أن رجع بدأ التدريس فى فيمتبرج سنة ١٥١١ ولم تتغير عقيدته ولم تتحسن حالته فى صراعه وشكوكه فيما يخص مفهومه عن الله القاضى القاسى . لقد ذهب الى روما يملؤه الأمل فى الحصول على السلام الداخلى ولكنه رجع منها مثقلاً وحزيناً وبائساً ولهذا فقد بدأ من جديد الصراع فى الحصول على الخلاص وعلى ارضاء الله القاضى ...

وعندما رجع من روما أرسل اليه ستوبيتز يطلب منه بان يعد نفسه للتدريس إذ انه يريد بأن يحل محله في تدريس الكتاب المقدس . لكن لوثر رفض هذا العرض رفضا باتا بدون تصنع أو تواضع ظاهري ولكن ستوبيتز عرفه بان هذا أمر وبما أنه راهب يجب عليه ان يطيع أوامر رئيسه وتحت هذا الضغط قبل لوثر هذا المركز . ولقد وصل الى فيتمبرج في صيف ١٥١١ واقترح ستوبيتز ان يعين لوثر نائبا لرئيس دير الاغسطينيين فعلا نائبا للرئيس ، وفي ٤ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥١٢ تقدم للامتحان حتى يسمح له بالتدريس في الجامعة بدرجة استاذ كرسى ، وفي ١٩ اكتوبر (تشرين الأول) من نفس السنة حصل على دكتوراه في العلوم اللاهوتية ، وهكذا صار لوثر استاذا وواعظا في جامعة ودير فيتمبرج ولكنه ظل يبحث عن الخلاص وكيفية ارضاء الله ...

هوامش الفصل الخامس

(١) أنشئت جامعة فيتمبرج سنة ١٥٠٢ عندما حث أسقف مجدبورج اخاه فردريك الحكيم ملك سكونيا على تأسيس جامعة في إمارته . واستقر الرأي على تأسيس الجامعة في المدينة الصغيرة « فيتمبرج » التي لم يكن عدد سكانها في ذلك الوقت يتجاوز ٢٥٠٠ شخصا (Bainton P, 39) وقد ضحك الملك عندما عرف بأنه قد وقع اختيار المجلس على هذه المدينة وقال أحد أعضاء المجلس : من يدري فرمما تصبح هذه المدينة موضوع أحاديث الناس أكثر من أي جامعة أخرى (Hourticq P. 23) .

2. Strohl P. 70. ميرل دوينياه ص ٥٣
3. Greiner P. 36.
4. Hourticq P. 23-24, Strohl P. 38.
5.

* لم يذهب لوثر الى روما لمقابلة البابا لعرض هذه المشكلة عليه ، كما يعتقد البعض ، بل لمقابلة الرئيس العام لهذه الرهبنة .

** ذخائر القديسين هي بعض البقايا من الأنبياء القديسين أو من أمتعتهم : مثل عظمة من عظام القديس يوحنا أو النبي اليسع ، أو شعرة من رأس العذراء أو قطعة من ثوب الرب يسوع الخ .

6. Hourticq P. 24.
7. strohl P. 84.

8. Strohl, P. 86. ميرل دوينياه ص ٥٥ ، د . عزت زكي ص ٤٣ - ٤٤
9. Hourticq, 25.
10. Baintoh, 38.

* لقد وجدت هذه القصة في مكتبة ر . ستادت Rudolf Stadt ومؤرخة بتاريخ ٧ اغسطس (آب) سنة ١٥٨٢ ، D 539 .

الفصل السادس

الاكتشاف العظيم

عندما اقترح ستوبيتز اسم مارتن لوثر لكي يكون استاذاً في جامعة فيتمبرج لتدريس الكتب المقدسة بدلا منه ، هل كان يعرف بأنه قد وضعه على الطريق السليم الذي سيؤدي به الى اكتشاف الحقيقة العظمى : حقيقة التبرير بالايمان ؟ وهل كان يعلم عندما حاول أن يرغمه باعتباره رئيسه بان يقبل باسم الطاعة كراهب هذا العمل ، انه يدفع أمامه عملاقا كبيرا سوف يستخدمه الرب لتغيير أوضاع كثيرة دينية وسياسية واجتماعية ليس فقط في المانيا بل في كثير من بلاد العالم ؟

كان ستوبيتز نبيا عندما أمر الراهب الشاب قائلا : « ان للرب الهنا عملا عظيما في الكنيسة يحتاج الى نشاط شاب مثلك .. أن لله عملا في السماء وعلى الأرض وهو في حاجة اليك حييت أم مت فاعمل ما يطلبه منك ديرك وما آمرك أنا به » (ميرل دوينياه ص ٥٩) .

عين لوثر استاذاً لتدريس الكتب المقدسة . في جامعة فيتمبرج كما سبقت الإشارة الى ذلك في سنة ١٥١١ . وهنا بدأت العناية الإلهية تهىء له الطريق من كل ناحية فهو يتمتع برعاية صديقه وابيه الروحي ستوبيتز ، كما أنه أصبح استاذاً لتدريس الكتب المقدسة . وفي دراسته لهذه الكتب المقدسة بالذات بدأ يبحث ويتعمق ويفتش . وفي اثناء بحثه ودراساته وصل الى تلك الحقيقة العظيمة والتي كانت تعد بالنسبة له اكتشافا محرراً : وهي عقيدة التبرير بالايمان .

متى اكتشف لوثر هذه العقيدة ؟ لم يكتشفها اثناء صعوده سلم بيلاطس في روما في سنة ١٥١١ ولكننا نتفق مع بعض العلماء الذين يعتقدون بأن الراهب الأوغسطيني قد توصل الى هذه الحقيقة العظيمة ربما في سنة ١٥١٢ أو سنة ١٥١٣ أو سنة ١٥١٤ .

يقول جرينر (Greiner) إنه من الصعب تحديد تاريخ هذا الاكتشاف ، وسيظل تحديد هذا التاريخ بطريقة دقيقة غير معروف ، لكن العلماء حاولوا دراسة الظروف التي مر بها الراهب ، لكي يتمكنوا من أن يجدوا تاريخا ولو نسبيا فمن المعروف أنه قام بالتدريس في أرفورت من سنة ١٥٠٩ - ١٥١٠ .

وفي سنة ١٥١١ عين استاذاً في جامعة فيتمبرج . وكان يلقي محاضراته هناك عن الكتب

المقدسة . ولقد اتفق معظم العلماء على ان المحاضرات التى كان يقوم بالقائها الراهب الاستاذ كانت كالآتى :

من سنة ١٥١٣ - ١٥١٥ محاضرات عن سفر المزامير .

من سنة ١٥١٥ - ١٥١٦ محاضرات عن رسالة رومية .

من سنة ١٥١٦ - ١٥١٧ رسالة غلاطية .

من سنة ١٥١٧ - ١٥١٨ الرسالة الى العبرانيين^(٢) .

فمن المحتمل أن يكون لوثر قد توصل الى هذا الاكتشاف العجيب فى الفترة التى كان يلقي فيها محاضراته عن سفر المزامير (١٥١٣ - ١٥١٥) . ويعتقد الكثيرون من المتخصصين فى الدراسات اللوثرية ان المزامير التى كانت تتكلم عن بر الله ، أو عن طلب بر الله ، وقداسة الله ، أو عن رحمة الله ومحبهه هى المزامير التى قادتته أن يسأل اسئلة كثيرة ، مثل أيمكن لله أن يكون باراً ؟ وهل يمكن ان يكون عادلاً وفى نفس الوقت رحيماً ؟ فإن كان الله يحب البر والعدل ويغض الشر والاثم فكيف يمكن أن يكون رحيماً مع الانسان الخاطيء الأثم ؟ ألم يكن هذا مصدر خوفه واضطرابه وانزعاجه من الله ؟ ..

وفى دراساته للبر الذى يتكلم عنه سفر المزامير ربما رجع الى بعض الكلمات فى رسالة بولس الرسول الى اهل رومية والتى كانت بعض عباراتها بالنسبة له مثل باب مغلق وسفر مختوم مثل : « لأن فيه أعلن بر الله بايمان لايمان كما هو مكتوب اما البار فبالايمان يحيا » (رو ١ : ١٧ ، حب ٢ : ١٤) .

ان بعض أساتذة لوثر علموا بان بر الله هو عطية من الله ولكن هذه العطية تمنح للذين يتعاونون مع النعمة ، أى أنه يوجد تعاون بين الله المانح لهذه النعمة وبين الانسان الذى يتقبل هذه النعمة ولكى يحصل الانسان على الخلاص يجب عليه أن يعمل اعمالاً صالحة يستطيع بها وعن طريقها أن يحصل على بر الله . وكان لوثر يعمل ليل نهار هذه الاعمال الصالحة لكى يحصل على الخلاص^(٣) وكان رفقاؤه يشهدون بذلك . أما هو فكان يشعر دائماً بالرغم من هذه الاعمال الصالحة . بأنه خاطيء وأن الله القاضى القاسى يطالبه ببر أعظم وبأعمال اكثر .

أما مطالبىب هذا الإله المغالى فى طلبه للبر أصبحت كلمة بر فى عيني لوثر كلمة تشمئز منها نفسه ويقشعر لها بدنه لدرجة أنه قال « لقد كرهت هذه الكلمة » ، ولماذا كرهها ؟ يواصل لوثر شرحه بالقول « لقد فهمت عبارة « بر الله » بمعنى أن الله بار ، وبما أنه بار فهو يعاقب الخطاة والاثمة . ولهذا نرى لوثر وقد ذهب ابعده من ذلك حينما قال « لم استطع أن احب هذا الإله البار المنتقم ، بل كرهته ... وكنت أقول لنفسى ألم يكتف الله بان يحكم علينا بالموت بسبب خطية ابائنا ؟ ألم يعذبنا بناموسه القاسى علينا حتى يضيف الى آلامنا

اخرى بالإنجيله الذى يعلن لنا فيه بره وغضبه وثورته «^(٤) وتذكرنا هذه الكلمات الأخيرة بما قاله له ستوبيتز مرة « أنت الثائر ضد الله وليس الله هو الثائر ضدك ». ويواصل لوثر فيقول : « كنت أبحث بدون هوادة لفهم هذا النص القائل : لأنه فيه يعلن بر الله بايمان لايمان كما هو مكتوب أما البار فبالايمان يحيا » (رو ١ : ١٧) كانت رغبتى عارمة لفهم هذا الاصطلاح الذى استعمله الرسول في هذه الرسالة . ماذا يقصد بهذه العبارة « بر الله » .. ؟ كنت أتأمل ليل نهار فاحصا هذه الكلمات « بر الله » يعلن في الإنجيل ... اما البار فبالايمان يحيا .. ؟

وبدأ لوثر يفكر ويصلى ويتأمل ، « واخيرا اشفق الله علىّ وعندئذ بدأت أفهم أن عبارة « بر الله » تعنى أن الانسان الذى يؤمن يحيا بالبر الذى يمنحه له الله . فإن معنى هذه الجملة أن الإنجيل يعلن بر الله . على أن هذا البر الذى يبررنا به الله . هو رحمة منه ننالها عن طريق الايمان . كما هو مكتوب وأما البار فبالايمان يحيا وحالا شعرت باننى أولد من جديد وأن أبواب السماء قد فتحت على مصراعها أمامى ومن هذه اللحظة بدأ الكتاب كله يظهر امام عينى بمظهر آخر وبقدر ماكنت أكره عبارة بر الله . صرت أحبها وصارت لها معزة خاصة عندى .. وهكذا أصبح هذا النص بالنسبة لى باب السماء ... وقد بدأت فى قراءة كتابات القديس اوغسطينوس عن الروح والحرف وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدته يشرح هذه المشكلة بطريقة مشابهة تماما لطريقتى^(٥) .

هنا بدأ المصلح يفهم حقيقة ومصدر عقيدة التبرير بالايمان . كان يعتقد قبلا بأن مصدر البر وأساسه الاعمال الصالحة والتضحيات وامانة الجسد والفقر والجوع والصيام وانكار الذات ... الخ وكان يظن أنه مطالب بالقيام بهذه الاعمال التى تؤدى للبر لذلك كان يثبت نظره على نفسه : على مارتن لوثر ، الذى يستطيع بأعماله الصالحة وتضحياته وبصيامه وانكار ذاته أن يخلص مارتن لوثر من يد القاضى القاسى الذى يزن اعماله بميزان دقيق . ولكن عندما ادركته نعمة الله كما يقول نفسه « واخيرا أشفق الله علىّ ... انفتحت عيناه وأبصر النور بنور الله نفسه » بنورك نرى نور (مز ٣٦ : ٩) عندئذ فقط فهم بر الله بطريقة تختلف تماما عن الطريقة التى علم بها كثير من أساتذته* فبر الله بحسب مفهوم لوثر هو هبة الله للانسان وبه يصبح الانسان مبررا فى عينى الله . فان التبرير (أو الخلاص من الخطية) لا يتوقف على أعمال الانسان الصالحة ، كثيرة كانت أم قليلة لكنه بايمان الانسان الخاطيء المعترف بخطاياها والنادم عليها من قلبه امام الإله البار وحتى هذا الايمان هو عطية الله « لانكم بالنعمة مخلصون بالايمان وذلك ليس منكم هو عطية الله » (أف ٢ : ٨ - ١٠) ولكن على الانسان أن يفتح قلبه لقبول عطية الله الذى ينير له الطريق ويكشف له حالته على حقيقتها .

ولقد استعمل لوثر عبارتين لكى يشرح بهما فكرة عن بر الله : عبارة « البر الفعال » (La

(Justice Active) ثم عبارة : « البر السلبي » (La Justice Passive) فماذا يقصد لوثر بهذين الاصطلاحين ؟ .

ان البر الفعال هو البر الذي يمنحه الله للانسان : فهو عمل الله ويسمى بر الله العامل أو النشيط أو الايجابي ، لأن الله هو الذي يمنح أو يخلق فينا هذا البر . أما البر السلبي فهو عبارة عن موقف الانسان امام الله ازاء عملية التبرير . فالانسان لا يأتي الى الله بأعماله الصالحة النشيطة التي تبرره امام الله ، بل تأتي سلبياً (بلا عمل) والله يبرر هذا الانسان : فالانسان هنا متقبل في هذه الحالة أي أن الله هو الذي يقوم بعملية التبرير المجاني . والانسان ماعليه الا أن يمد يده لكي يقبل هذا التبرير من الله الفاعل والعامل والمقدم لهذا البر^(١) .

كانت تعاليم أو كام تنادى بأن الله قاض عادل ويحكم على الانسان بحسب أفعاله وتصرفاته أما لوثر فقد تغير مفهومه الكتابي وبدأ يعتبر الله أبا محبا ينظر الى الانسان كابن له فيمنحه البر . ففي الحالة الأولى الانسان فاعل للبر وفي الحالة الثانية الله فاعل للبر : فهو الذي يمنح هذا البر مجانا للانسان والرجوع الى قول القديس اغسطينوس « ان السبب الذي من أجله يسمى بر الله ، لأنه هو الذي يمنحنا هذا البر ويبررنا به » . وهذا على عكس ما علم به أرسطو الذي يعتقد بأن البر يتبع اعمالنا وهو نتيجته . واما لوثر فهو يعتبر بان بر الله يسبق أعمالنا وأن أعمالنا هي ثمار^(٢) .

ومن هنا يتضح أن لوثر لا يرفض الاعمال الصالحة ولا يقلل من شأنها إذا كانت اثمارا لبر الله لكنه يريد أن يبرر أولا عمل الله في التبرير . فالله وحده هو الذي يبرر الانسان الخاطيء . فبعد أن يحصل الانسان على بر الله (ومن الله وحده) بعمل أعمالا صالحة ، لا لكي يخلص بها أو لكي ينال عن طريقها ثوابا بل لانه صار خليقة جديدة بالنعمة وتجدد قلبه وتغيرت حياته ، فانه يريد بدوره أن يكون عاملا صالحا في المجتمع الذي يحيا فيه . ويرى لوثر فكرة أخرى في بر الله . فإن بر الله يظهر أيضا في حكمنا على انفسنا . فعندما نعرف بخطايانا فاننا نعرف في نفس الوقت ببر الله . أي أننا نعرف بأن الله هو الحق في حكمه واننا مخطئون في احكامنا وتصرفاتنا^(٣) (١ يو ١ : ٨ - ١٠) .

ولكن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نسأل هذا السؤال : كيف واين اكتشف لوثر هذه العقيدة : عقيدة التبرير بالايمان ؟

أما كيف فقد انقسم الدارسون في الرد على الكيفية الى قسمين :

١ - اعتقد البعض أن هذا الاكتشاف لم يكن ابن يوم وليلة بل كان وليد البحث الطويل والصلاة الحارة والاضطراب والخوف^(٤) .

٢ - والبعض الآخر رأى أن هذه الفكرة طرأت على ذهنه بطريقة فجائية وسريعة كاختبار بولس وهو في طريقه الى دمشق . وقد رجع هؤلاء الى قول لوثر نفسه الذى يشعر القارئ عندما يقرأه كما لو كان هذا الحدث قد حدث بطريقة فجائية وسريعة . وهذا واضح من المقدمة التى كتبها فى سنة ١٥٤٥ بالاجابة فيما يختص بأين أو مكان حدوث الاختبار فيحتمل أن لوثر قد اجتاز فى هذا الاختبار العظيم عندما كان يقوم باعداد محاضراته فى برج الدير فى جامعة فيتمبرج^(١٠) .

هوامش الفصل السادس

1. G. Casalis P. 32, Strohl. P. 97.
2. G. Casalis P. 25, Strohl. P. 93-99, Strohl Savie P. 70, Bainton P. 45-46.
3. Greiner P. 36.
4. H. Strohl P. 94.
5. H. Strohl, P. 94.

* أقول هنا كثير من اساتذته - وليس كل اساتذته - لأنه من الظلم بل من الاجحاف أن توصم الكنيسة الكاثوليكية كلها بعدم فهم النصوص الكتابية . فبالرغم من الحالة الروحية الضعيفة التي وصلت اليها الكنيسة في هذا العصر فقد احتفظ الرب لنفسه بشهود أمناء في الكنيسة ومن ابناء الكنيسة الكاثوليكية مثل ستوييتز الذي كان واحدا من هؤلاء الشهود .. « لأنه لم يترك نفسه بلا شاهد ... » (اع ١٤ : ١٧) .

6. W4, 241, 25, W3, 199, 18
7. Strohl, P. 126.
8. W3, 29, 9-16, W3, 31, 3-7 D 595.
9. Str., P. 93.
10. Bainton, P. 46, Greiner, P. 39.

الفصل السابع

صكوك الغفران

يعتقد البعض ان المصلح الالماني قد قام بثورة عنيفة وحرب شعواء ضد الكنيسة الكاثوليكية بعد أن اكتشف حقيقة التبرير بالايمان ، ولم يستطع أن يبقى بعد ذلك داخل هذه الكنيسة لذا فقد ترك الكنيسة وبدأ كنيسة جديدة لوثرية أو بروتستانتية لكن الحقيقة التاريخية تدل على عكس ذلك تماما فبعد أن اكتشف لوثر هذه العقيدة العظيمة وهي حقيقة التبرير بالايمان أو بعد أن افتقدته نعمة الله بمعنى أصبح وبعد أن انفتحت عيناه ، لم يترك لوثر الكنيسة الكاثوليكية أبدا ولم يفكر قط ولا لحظة واحدة أن يهجر الكنيسة المحبوبة التي كان ينظر اليها في ذلك الوقت بكثير من الحب والاحترام والتقدير^(١) .

فمع أن لوثر قد فهم موضوع التبرير بالايمان في سنة ١٥١٣ أو في سنة ١٥١٣ أو في سنة ١٥١٤ لكنه لم يترك الكنيسة بعد هذا الاختبار العجيب . بل ظل فيها كاهن وخادم أمين لها . نعم لقد تغير سلوكه تغيرا كليا بعد هذا الاختبار . كما تحول هذا الراهب الخائف المضطرب الذي يقضى وقتا طويلا امام كرسي الاعتراف الى شخص جديد بعد أن زالت مخاوفه واضطرابه . كل هذا صحيح ، ولكن غير الصحيح هو أن لوثر ثار ضد الكنيسة الكاثوليكية بعد اكتشافه لعقيدة التبرير بالايمان مباشرة . بل على العكس فإن لوثر واصل دراساته وابحاثه ومحاضراته في الجامعة ، وخدماته في الكنائس والدير الذي كان مسئولاً عنه . كان يمارس نفس الاعمال والخدمات التي كان يقوم بها من قبل لكن بدل أن يقوم بهذه الاعمال مرغما حزينا متألماً لأنه كان يريد ان يحصل عن طريقها وبها على بر الله والمصالحة مع القاضى القاسى . فإنه يقوم بها وقلبه قد امتلأ بالفرح والسلام والاطمئنان . هكذا ظل لوثر راهبا وكاهنا واستاذا في الكنيسة الكاثوليكية بعد اختباره العظيم في سنة ١٥١٣ أو ١٥١٥ . حتى سنة ١٥١٧ وبالتحديد في يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) عندما علق على كاتدرائية جامعة فيتمبرج ٩٥ احتجاجا ضد مايدعى بصكوك الغفرانات .

صكوك الغفران :

ماهى صكوك الغفران ؟ ان فكرة صكوك الغفران لم تكن جديدة في ذلك الوقت ، بل يرجع تاريخها الى زمن الحروب الصليبية ، فقد منح بعض الباباوات هذه الامتيازات الى الذين

كانوا يذهبون الى الحرب مخاطرين بحياتهم . وبعد ذلك كانت تمنح ايضا للذين كانوا يذهبون الى الأماكن المقدسة . كما أنها منحت أيضا للذين كانوا يساهمون في اعمال « البر » والاحسان كبناء الكنائس والمستشفيات الخ^(٢) .

ولكى نفهم هذه المشكلة على حقيقتها يجدر بنا ان نذكر القارىء ببعض الحقائق والظروف الدينية والتاريخية والسياسية والاجتماعية . وهنا يجب أن نسأل هذا السؤال على أى اساس كانت تباع الكنيسة الكاثوليكية في هذا الوقت صكوك الغفران ؟

لقد علمت الكنيسة في ذلك الوقت بان الحصول على الخلاص يتم عن طريق التعاون بين الله والبشر ، أى أن نعمة الله تتعاون مع الانسان وتساعد على أن ينال خلاصه عن طريق عملية الفداء التى قام بها المسيح وعن طريق اعماله الصالحة . ولهذا السبب نرى لوثر الكاثوليكي المدقق يحاول ليل نهار الحصول على الخلاص بأعماله الحسنة .

وكان رأى السائد ان بعض القديسين قاموا بأعمال صالحة كافية لخلاصهم فقط . بينما قام البعض الآخر باعمال حسنة كثيرة زادت عن حاجاتهم : مثل السيد المسيح الذى لم يكن فى حاجة أبداً الى اعمال حسنة ، ولكنه عمل كثيراً جداً . كذلك قامت السيدة العذراء مريم والرسول وعدد كبير من الأنبياء والقديسين فى تاريخ الكنيسة على مر العصور باعمال صالحة كثيرة جداً زادت عما كانوا فى حاجة اليه لخلاصهم . وهذا ماكانت تسميه الكنيسة بحسنات القديسين الزائدة . وهذه الحسنات الزائدة مودعة فى بنك الكنيسة وهى ملك لها وللكنيسة الحق فى التصرف فيها كما تشاء ومتى تشاء . فمن حق الكنيسة أن توزع هذه الحسنات المودعة تحت تصرفها على النفوس التى لم تستطع ان تعمل اعمالاً حسنة كافية لخلاصها اثناء حياتها على الأرض .

لقد نادى بهذه النظرية الكسندر هالس فى القرن الثالث عشر وكذلك القديس توما الاكوينى القديس بونافانتير^(٣) وبما أن الكنيسة كانت هى المسئولة عن الاعمال الحسنة الزائدة . والتى تدعى كنز الكنيسة . لذلك كان يمكنها ان تباع أيضاً بعضاً من هذه الاعمال الحسنة لمن هم فى حاجة اليها ولم يستطيعوا فى حياتهم التكفير عن ذنوبهم وخطاياهم .

وفى بداية الأمر أحاطت الكنيسة هذه العقيدة بعدة احتياطات وشروط . فكان الحاصل على صك الغفران لا يخلص الا من المطهر فقط وليس من الجحيم . ومن يريد أن يحصل على هذا الصك كان عليه أن يعترف وأن يتوب عن خطاياهم . كما كان يمنح هذا الصك مجاناً للفقراء .

على أن هذه الشروط سرعان ما تغيرت مع مرور الوقت ، بل أصبحت صكوك الغفران

تجارة رابحة شائعة لجأت اليها الكنيسة - للأسف الشديد - في ظروف كثيرة كلما احتاجت الى المال . بل تطورت الفكرة حتى أن بعض الدول والأمراء استعملوها لابتزاز المال .^(٤)

وبما أننا نتكلم عن صكوك الغفران فيجب ان نشرح أيضا فكرة ذخائر القديسين لانها متصلة اتصالا وثيقا بهذا الموضوع .

ذخائر القديسين :

عبارة عن بقايا من القديسين أو بقايا من أمتعتهم . ولقد منح بعض الباباوات غفرانات عديدة لمن يزور هذه البقايا . وكان المقصود بهذه الغفرانات تقصير المدة التي يجب على الانسان ان يقضيها في المطهر . فمثلا كانت توجد غفرانات لاعفاء الانسان من العذاب في المطهر لمدة مائة سنة أو خمسين سنة أو عشرين سنة ... الخ يتوقف هذا على نوع الغفران والتمن الذي دفع فيه أو التضحية التي بذلت لأجله .

كما منحت بعض الغفرانات لمن قاموا بزيارة الأماكن المقدسة ، بعيدة كانت أو قريبة ، مثل اورشليم أو روما .

لهذا السبب نرى الملك فردريك الثالث ملك ساكس يحاول جمع اكبر عدد من ذخائر القديسين . ففي المرحلة التي قام بها الى اورشليم سنة ١٤٩٣ أحضر معه كمية كبيرة منها وكانت ذات أهمية عظيمة . ويقال انه أحضر معه احدى اسنان القديس جيروم ، وأربعة أجزاء من جسد يوحنا فم الذهب ، وأربع خصل من شعر العذراء مريم ، وقطعة من لفائف يسوع . وأشياء أخرى كثيرة .

وفي سنة ١٥٠٩ وصلت ذخائر القديسين المعروضة في كاتدرائية فيمتبرج الى خمسين ألف وخمس قطع . وفي سنة ١٥١٨ وصل عدد هذه الذخائر في نفس المدينة الى ١٧٤٤٣ قطعة وهذه الكمية تعطى اعفاء من المطهر لمدة ١٢٧٧٩٩ سنة ، ١١٦ يوم^(٥) . وكما قلنا فقد أستخدمت الكنيسة في مرات كثيرة هذه الوسيلة كلما احتاجت الى المال . ولذلك لجأ كل من البابا ليون العاشر والبرت رئيس اساقفة احدى الامارات الألمانية الى استغلال هذه الوسيلة لجمع المال الذي كانا في حاجة اليه .

جلس البابا ليون العاشر على كرسي القديس بطرس في سنة ١٥١٣م ونظراً لأنه كان من عائلة آل يتشي العريقة فقد تمسك ليون بحياة الرفاهية والبذخ وتعظم المعيشة والاسراف كما أنه كان شغوفاً أيضاً بالفن والعمارة ولذلك فقد عزم على إجراء بعض المباني والاصلاحات في كنيسة القديس بطرس . وتمويل هذا المشروع الضخم فقد أصدر قراراً في ٣١ مارس (آذار) سنة ١٥١٥ ببيع صكوك غفران كاملة . ولما رفضت بعض الولايات الألمانية هذا

المشروع ، فقد عرضه البابا على البرت (Albrecht) رئيس اساقفة ماينس (Mayence) ووعده بنصف ثمن الصكوك . وكان البرت يمر في هذا الوقت بأزمة مالية شديدة لكثرة الديون التي تراكمت عليه . فقد كان طموحا يحاول الوصول الى المناصب الدينية والدنيوية في آن واحد . ولقد استطاع فعلا أن يكون رئيس اساقفة لثلاثة أبرشيات ومنتخبا لمقاطعة ماينس (Mayence) وقد وصل الى بعض هذه المناصب بطرق غير قانونية وبدون حق^(١) ووصل الى البعض الآخر عن طريق الرشوة . ودفع المبالغ الكبيرة من المال ولذلك فقد لجأ الى بنك (Fugger) الذي أقرضه المال الذي كان في حاجة اليه ولكن بفائدة تبلغ ٢٠٪^(٢) .

لذلك قبل البرت عقد الصفقة مع البابا ليون العاشر في الرابع والعشرين من ابريل (نيسان) سنة ١٥١٦ .

وقد اتفقا على أن توزع الأموال المجموعة من بيع صكوك الغفران بالطريقة الآتية : النصف للبابا في ايطاليا لبناء كنيسة القديس بطرس والنصف الباقي يدفع مباشرة لبنك (Fugger) لتسديد القرض وفوائده .

وكان هذا حلا مثاليا ومريحا مرضيا للطرفين فهل كان مرضيا أيضا لله ؟ !! كان الحل مرضيا للبابا الذي شرع في اصلاح وبناء كنيسة القديس بطرس كما كان حلا مريحا ومرضيا أيضا لألبرت رئيس الأساقفة لسد ديونه وكان مريحا ايضا للبنك الذي سوف يسترد أمواله وكان مفيدا ومرضيا للذين يقومون ببيع الصكوك إذ كانوا يتقاضون عمولة عن عملهم وكان اخيراً مريحا ومرضيا ومطمئناً للذين يشترون هذه الصكوك لكي تستريح ضمائرهم وتطمئن قلوبهم على المستقبل .

كل هذه الأمور كانت حقيقية واكيدة أما الأمر غير الحقيقي فهو مدى فاعلية هذه الصكوك في نظر الله هذا هو نفس السؤال الذي سأله لوثر عندما تسلق السلم المقدس في روما : عندما قال : « من يعرف إذا كان هذا صحيحاً ؟ !! » ولهذا السبب عينه قام لوثر في يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) بتعليق ٩٥ احتجاجاً على صكوك الغفران . ويعتبر هذا التاريخ فعلاً بداية تاريخ الإصلاح .

لم تكن هذه المرة الأولى التي اظهر فيها لوثر عدم موافقته على عقيدة الغفران . فالدارس المدقق لتعاليم وعظات لوثر يلاحظ أن استاذ فيتمبرج وعظ عدة مرات ضد صكوك الغفران^(٣) فقد وعظ ضد صكوك الغفران وشرح طريقة التوبة الحقيقية والرجوع لله في يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥١٦ ؟ قبل أن يعلق هذه الاعتراضات على باب الكاتدرائية بسنة كاملة ولقد نشرت هذه العظة^(٤) كما أنه ألقى أيضا عظة من المزامير في ربيع عام ١٥١٧ مبينا فيها أن التوبة الحقيقية هي رفض الصكوك لأنه طريق سهل .^(٥) وقد سبق له أن كتب تصريحاً



من ٩٧ نقطة شرح فيه أفكاره الدينية وعرضها للمناقشة كما أنه انتقد أفكار أصحاب المدارس الفكرية^(١١)

وبعد أن تعاملت نعمة الله مع هذا الرجل ، لم يكف أبداً عن توصيل وتسليم ما قد تسلمه من الرب يسوع الى الذين كانوا يعيشون بعيدين عن نور انجيل المسيح المحرر . ولهذا فقد دعى الجامعة واساتذتها لمناقشة موضوع صكوك الغفران . ولكي يسهل أمر المناقشة فقد كتب الخمسة والتسعين احتجاجاً على صكوك الغفران التي كانت تباع في بعض الامارات الألمانية . وعلق هذه الاحتجاجات على باب كاتدرائية فيتمبرج في المكان الذي كانت تعلق فيه عادة الاعلانات الخاصة بالكاتدرائية والجامعة .

كان المسئول عن الحملة الدعائية لصكوك الغفران في بعض الولايات الألمانية لألبرت رئيس اساقفة ماينتس ، هو الكاهن الدومنيكاني يوحنا تنزل . ولقد نظم حملات واسعة النطاق للدعاية والوعظ فكان يصل الى المدن التي كان يريد أن يبيع فيها الصكوك في موكب ضخم عظيم يتقدمه مناد يدعو الجماهير بصوت عال للتجمع ، وعندما كانت تتجمع الجماهير كان يقف ليخطب فيهم خصوصاً وقد كان خطيباً جيداً وكانت عظاته مركزة على صكوك الغفران وفوائدها . فمن الفوائد التي وعظ عنها الدومنيكاني انها تحرر النفوس من عذابات المطهر الأليمة . وكان معروفاً أن كل نفوس البشر تمر بالمطهر الا نفوس القديسين لأن الأغلبية الساحقة - إن لم تكن النفوس كلها الا العدد القليل جداً من القديسين لا بد وأن تذوق عذابات المطهر التي قد تضارع في بعض الأحيان عذابات الجحيم . وما أقسى عذابات الجحيم !!! وما أقسى عذابات المطهر !!! .

وبعد إثارة مشاعر سامعيه بعظات من هذا النوع كان يختم عظته بجملة أصبحت جملة شهيرة في التاريخ « في نفس اللحظة التي ترن فيها دراهمكم في الصندوق تخرج النفس المطهرة حرة منطلقة الى السماء »^(١٢) .

لقد أساء تنزل (Tetzel) اساءة عظيمة الى الكنيسة الكاثوليكية في طريقة وعظه عن صكوك الغفران . على أي حال فإن هذه البدعة لم تكن جديدة في الكنيسة بل أن الكنيسة مارستها في ظروف كثيرة . ولكننا نريد أن نلفت نظر القارئ هنا الى نوعين من صكوك الغفران .

١ - صكوك الغفران للأحياء . وكان على كل من يريد الحصول على هذا الصك أن يتدم على خطاياهم وان يعترف بها أمام الكاهن ثم ينفذ العقوبات التي يفرضها عليه الكاهن بعد الاعتراف لكي يكفر عن ذنوبه المرتكبة .

٢ - النوع الثاني الصكوك للأموات : وهو الحصول على صك لتحرير نفس مطهره من

المطهر وكان يمكن الحصول على هذا الصك ككتابة وينص الصك على عدد السنين التي يريد الطالب ان يعفى منها النفس المطهرية في المطهر . وكان لكل صك ثمن معين سواء في التضحيات الشخصية أو الآلام أو دفع مبلغ من المال .. ولكن ما كان يهم تنزل ، هو أن ترن النقود في صندوق الجمع ...

لقد كلف تنزل بأن يعظ عن صكوك الغفران في الولايات الألمانية التابعة لرئيس الأساقفة ألبرت وحدها دون غيرها لأن بعض الإمارات الأخرى لم تقبل الاتفاق الذي تم بين ألبرت والبابا ليون العاشر . وبناء على ذلك منعت الصكوك فيها ، مثل مدينة فيتمبرج* . وبما ان الملك فردريك قد منع بيع هذه الصكوك في ولايته ساكس** فلقد ذهب الكثيرون عبر الحدود لشراؤها من المناطق التي كانت تباع فيها . وهنا وجد لوثر نفسه أمام مشكلة عقائدية خطيرة .

ويبدو أنه تقابل مع عدد لا بأس به من الذين كانوا يعترفون له في كرسي الاعتراف ، وعندما كان يطلب منهم التوبة الحقيقية والندم الصادق ، كانوا يخرجون من جيوبهم صكوك الغفران ضاحكين مستهزئين قائلين نحن لا نحتاج الآن الى هذه النصائح ، ويلوحون بها في وجهه . ماذا يعمل لوثر ١١١٩ .

لا بد وان لوثر - رجل الصلاة - قضى أوقاتا طويلة جدا امام عرش الله في الصلاة والتأمل قبل ان يقوم بكتابة هذه الاحتجاجات . لقد عاش هذا الأمر قبل ذلك ، وعلم عنه عدة مرات ، فلماذا لا يلخص عظمته وتأملاته وافكاره في عدة جمل قصيرة ضد بيع صكوك الغفران ١١١٩ ؟ وفعلنا جلس لوثر وبدأ يكتب عدة نقاط احتجاج على هذه التعاليم الخاصة بصكوك الغفران ، ووصلت هذه النقاط التي كان يسجلها بقلمه الى خمس وتسعين نقطة . وكانت هذه النقاط مكتوبة بأسلوب سريع وهادئ . ثم علقها على باب كاتدرائية فيتمبرج في يوم ٣١ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٥١٧ .

وتوجد عدة حقائق جديرة بالذكر فيما يخص هذه البنود .

١ - تاريخ تعليق هذه الاحتجاجات : علق لوثر احتجاجاته هذه في يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ ، وهو عشية عيد جميع القديسين ولقد اعتاد الشعب أن يأتي من كل حذب وصبوب من ولايات ساكسونيا للاحتفال بهذا العيد في أول نوفمبر (تشرين الثاني) للحصول على الغفران الذي يحصل عليه الزائرون لهذه الكاتدرائية المليئة بذخائر القديسين الغنية بالغفران والجدير بالملاحظة أن الهجوم ضد صكوك الغفران ، لم يكن موجها ضد تنزل وحده ، بائع الصكوك ، بل أن لوثر بجسارته هذه هاجم أيضا في نفس الوقت كل من يحميه أو يناصره أي الملك فردريك نفسه^(٥) وخاصة لأن هذا

JOHANNES TECELIUS PIRNENSIS

Dominicanus, Nundinator Romani-Pontificis, anno

1517. ἀμικλαδρῶ LUTHERO territus & in fugam versus,
 ut talis ejus effigies videretur in templo Parnali.

O ihr Deutschen mercket mich recht:
 Des heiligen Vaters Papstes Rache
 Bin ich, und bring euch jetzt alle
 Zehn tausent und neun hundert Laster
 Gnad und Ablass von einer Sünde
 Vor euch, erer Eieren, Weib und Kinder
 Sol ein jeder gewehret sein:
 Soviel ihr legt ins Kästlein
 So bald der Sünden im Decken flinger
 Im hundert die Seel in Himmel springt.



٢٠ الملك كان قد أعد مجموعة ضخمة من ذخائر القديسين وصلت الى مايقرب من ١٧٠٠٠ ذخيرة يمكنها أن تمنح مايقرب من ١٢٧٠٠٠ سنة اعفاء من عذابات المطهر^(١٦) .

٢ - الامر الثانى هو أن تكون اللغة التى كتب بها لوثر هذه الاحتجاجات . هى الالمانية لغة الشعب ، لكنه كتبها باللغة اللاتينية لغة المثقفين والمتعلمين . وكأنه يدعو أولا وقبل كل شئ الاكليروس كله والعلماء والمثقفين لمناقشة هذا الأمر العقائدى الخطير بهدوء وبطريقة علمية مدروسة وصحيحة . لقد كان يدعو أولا العلماء والمعلمين (اللاهوتيين) لدراسة هذا الموضوع وتحميلهم المسئولية الثقيلة .

٣ - الأمر الثالث ، المكان : لقد وضع لوثر هذه الاحتجاجات على باب الكاتدرائية فى فيتمبرج . ومع أنه علقها فى المكان الذى كانت تعلق فيه عادة اعلانات الكنيسة والجامعة ألا أن هذا المكان بالذات كان يخص الكنيسة اكثر من الجامعة .

فقد أراد لوثر بهذه الحركة أن يعلن للكنيسة عامة بانه فى الكنيسة ، بل ومن أجلها يقوم بهذا العمل . ولم يسمح لنفسه بأن يهاجم الكنيسة . ولم يخطر على باله حتى تلك اللحظة أو فى أى لحظة أن يترك الكنيسة أو يهاجمها أو أن يندد بتعاليمها . بل كان يحبها ويحترمها . ولهذا السبب فقد كتب فى هذه الاحتجاجات يقول : « ونحن لا نريد ان نقول أى شئ أو نعتقد بأى شئ - لايتفق وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية^(١٧) وبما أن لوثر لم يفكر قط فى الانفصال عن الكنيسة ولم يكن يريد الا اصلاحها من الداخل فقد قام بكتابة هذه النقاط كما أنه قام أيضا فى نفس اليوم الذى علق فيه هذه الاحتجاجات بكتابة خطاب فى غاية الأدب والرقه والاحترام والخضوع الكامل وأرسله الى رئيس اساقفة ماينس يشرح فيه سوء استعمال صكوك الغفران ويتوسل اليه ان يتدخل سريعا ويأمر بايقاف هذه العملية^(١٨) » .

كان لوثر يجهل الاتفاق الذى تم بين ليون العاشر والبرت وبنك فيكر . بل كن يعتقد بان رئيس الأساقفة لايعلم بهذه الاتفاقية . لذلك فقد رأى انه من الواجب عليه أن يلتمس منه باسم الرب يسوع أن يتدخل سريعا لحسم الأمور ، وابعاد هؤلاء الوعاظ ومنعهم من الوعظ . ولقد أرسل مع خطابه هذا نسخة من الاحتجاجات .

وكان ينتظر لوثر رد على هذا الخطاب ، ولكن للأسف طال الانتظار . لأن البرت أرسل خطابه وصورة من الاحتجاجات الى روما .

وقد سبق أن أشرنا الى ان المصلح قد كتب هذه الاعتراضات باللغة اللاتينية داعيا بذلك



العلماء والاساقفة والكهنة لأن يناقشوا معه هذه البنود . ولم يتحرك أحد من المسئولين . بل بالعكس قام بعض الطلاب - رغم رغبة لوثر - بترجمة هذه الاحتجاجات الخمس والتسعين الى اللغة الألمانية^(٢٠) وحالا تناولتها المطابع وقامت بطبعها ثم ترجمت الى لغات أخرى ، وفي خلال اسبوعين انتشرت داخل المانيا وخارجها . بفضل الذين جاءوا لكي يحتفلوا بعيد جميع القديسين .

فلقد جاء هؤلاء للحصول على صكوك الغفران فرجعوا الى بلادهم حاملين معهم احتجاجات المصلح المدعمة من الكتابات المقدسة ضد هذه الصكوك .

ماهى محتويات هذه الصكوك :

بما أن بائعى هذه الصكوك ادعوا أنها تمنح الحياة الأبدية للتائبين وتخرج النفوس المطهرة من المطهر ، فإن لوثر قدم فى أول احتجاج الطريقة السليمة التى يستطيع بها الانسان الخاطيء التائب أن يحصل على الحياة الأبدية ، وهى التوبة الحقيقية وانسحاق القلب (مز ٥١ : ١٧) ، وليست بشراء صك الغفران ثم الانغماس فى الحياة الشريرة .

وبما أنه ليس من السهل لضيق المكان هنا ذكر وتحليل كل هذه الاحتجاجات الخمس والتسعين . لذلك نكتفى بإشارة الى بعضها أو ماقصد لوثر أن يعلمه عن طريقها :

الاعتراض الأول : « عندما قال ربنا وسيدنا يسوع المسيح « توبوا » أراد بذلك أن تكون حياة المؤمن كلها توبة مستمرة وقد قال لوثر فى مكان آخر : «المؤمن هو البار الخاطيء»^(٢١) .

الاعتراض الخامس : « لا يستطيع البابا - حتى لو أراد - أن ينقذ الانسان من عقوبة قانون الا ما سنه هو نفسه بمحض ارادته .

الاعتراض السادس : « ليس فى سلطان البابا أن يزيح أو يلاشى عن الانسان عقاب خطيئته أو يغفرها له ، وانما يعلن للخاطيء ان خطاياها قد غفرت » .

الاعتراض الحادى والعشرون : « يضل الذين يقولون بأن صكوك البابا تخلص الانسان من كل عقاب » .

الاعتراض السابع والعشرون : « ضل الذين يقولون بأنه متى رنت النقود فى صندوق الجمع تخلص النفس من المطهر منطلقة نحو السماء » .

الاعتراض الثاين والثلاثون : « ضل الذين يتوهمون بأنهم فى أمان بسبب الغفران ، فانهم مع تعاليمهم هالكون » .

الاعتراض السادس والثلاثون : « ان المسيحى الحقيقى ، الذى يترك خطاياها بقلب منسحق

نادم ، تغفر خطاياهم ولا حاجة له الى صكوك الغفران » .
الاعتراض الثالث والأربعون : « على المسيحي ان يفهم حقيقة أن الذي يحسن الى مسكين أو يقرض محتاجا يقوم بعمل أفضل من شراء صك غفران » .
الاعتراض الثاني والستون : « ان كنز الكنيسة الثمين هو انجيل نعمة الله ومجده المقدس » .
ولا بد أن لوثر يشير بهذا الاعتراض الأخير الى ما قد ادعته الكنيسة في استخدام بيع استحقاقات القديسين لكنزها وتحت تصرفها . ان الكنز هو انجيل المسيح يسوع المحرر وهو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن (رو ١ : ١٦ - ١٧) .
ويمكننا أن نلخص محتويات هذه الاحتجاجات في الآتي :

الاحتجاجات من (١ - ٢٩) : مجموعة من الاحتجاجات ضد صكوك الغفران للنفوس المطهرة ، وحاول لوثر أن يبين أن سلطان البابا لا يمتد لابتعد من الأرض وليس له سلطان على الأرواح في المطهر ، ثم يرجع الى متى ١٦ : ١٩ ليعين أن سلطان الحل والربط نافذ المفعول هنا على الأرض فقط وليس في السماء .

الاحتجاجات من (٣٠ - ٦٨) : مجموعة أخرى يتكلم فيها عن الصكوك الخاصة بالأحياء . ويشرح لوثر أن الشرط الأساسي للحصول على الغفران هو التوبة الحقيقية .

الاحتجاجات من (٦٩ - ٩٠) : في هذه المجموعة من الاعتراضات يحذر المصلح الذين يرتكبون الخطايا والموبقات بدعوى أنهم حصلوا على صكوك غفران . كما أنه يتكلم عن المبالغة في سلطان البابا .

الاحتجاجات من (٩١ - ٩٥) : ويحتم المصلح الألماني هذه الاحتجاجات بتحذير الشعب من الأنبياء الكذبة الذين ينادون للشعب بالسلام ، ولا سلام حقيقي (خر ١٣ : ١٠ - ١٦) ويعلن للشعب ان دخول السماء أو الحصول على الخلاص ليس طريقا سهلا هينا لنا ، يشتري ويبيع بالمال ، بل كما هو مكتوب « انه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت السموات (أع ١٤ : ٢٢) ان دخول ملكوت السموات لا يتم بالوعود الكاذبة وغير الحقيقية ، بل بالتوبة الحقيقية وانسحاق القلب وقبول الرب يسوع المسيح كمخلص .
ويمكننا أن نقول ان الاصلاح قد بدأ فعلا في المانيا يوم ٣١ اكتوبر اليوم الذي تحتفل به كل الكنائس القديمة وبعض الكنائس الانجيلية المصلحة حتى الآن . كنقطة انطلاق للاصلاح وبدايته .

هوامش الفصل السابع

1. Strohl, P. 214., Greiner P. 49-50.
2. R. Bainton, P.54.
3. H. Strohl. SA. Vie 122-123.
4. A. Greiner, P. 52-53.
5. H. Strol, P. 245; Greiner un Passiome, P. 27.
6. Elsie Singmaster, The Story of his life., P. 44-45., Greiner. un pass. P. 29-32.
7. Daneil Oliver, Le Proces Luther, 1517-1521. Faxard. P. 21-23, Strohl, 244-245, casalis 49; R. Bainton, P. 56-57.
8. R. Bainton, P. 54.
9. W1 65 ss.
10. Strohl Sa vie 116.
11. E. Singmaster, 46, Strohl Sa vie 118.

12. A. Greiner, P. 53, R. Bainton 54.

د. عزت زكي ، ص ٤٨

13. Daniel Oliver, P. 14.

* ان تنزل لم يصل الى فيتمبرج ولم يكن مسموحا له ببيع صوك فيها .

** لم يمنع فردريك بيع هذه الصكوك لانه رأى فيها منافسا خطيراً لذكائر القديسين التي جمعها وعرضها في كاتدرائية فيتمبرج ، واضعافا لدخل هذه الذكائر .

14. A. greiner, Un Passionné P. 30-32.

15. G. Casalis. P. 52;

16. Greiner Bio. P. 54.

17. G. Casalis, P. 53.

18. WBr1, 48.

19. E. Sing Master P. 46-49.

* يوجد نص هذا الخطاب مترجما باللغة العربية في أ . موريسون . ترجمة القس باقى .

20. E. Singmaster, 49, WBr 62, P. 152, 1, 10. Luther à Scheurl

21. H. Strohl, P. 253.

الفصل الثامن

ماذا عملت يالوثر ؟!!!

بدء القضية :

كان لوثر أول المندهبين من رد الفعل الذى أحدثته هذه الاعتراضات الخمس والتسعين . ألم يذكر ذلك فى خطابه للبابا ؟ ان انتشار هذه الاعتراضات بهذه السرعة وهذه الكيفية يعد معجزة . وكل ما كان يقصده من كتابتها هو أن تناقش أولا فى الجامعة وعلى المستوى الجامعى فقط . ولكن بعد أن ترجم الطلبة هذه الاحتجاجات انتشرت ليس فقط فى المانيا بل فى كثير من البلاد المجاورة . وبدأ الجامعيون والعاميون ، التجار واصحاب الحرف فى دراستها بل أصبحت موضوع أحاديث جميع الناس . أما منافسو لوثر فقد رأوا أن نهايته قد اقتربت ، وان مصيره سيكون الحرق على خشبة مثل الذين سبقوه فى هذه الجرأة وقد سبق أن قلنا بأن لوثر أرسل فى نفس اليوم الذى علق فيه هذه الاعتراضات نسخة منها مع خطاب خاص الى رئيس الاساقفة . وعندما استلم البرت هذا الخطاب انشغل انشغالا عظيماً . ولم يكن سبب انشغاله هو الناحية التعليمية أو العقائدية أو الروحية بل أن الذى أزعجه فى هذا الخطاب أنه رأى فيه تهديداً واضحاً لمشروعه المالى إذ أنه كان يعلق آمالاً كبيراً على نجاح هذا المشروع لكى يسدد عنه طريقه ديونه الكثيرة وحالاً أرسل نسخة من الخطاب إلى البابا ليون العاشر . واستلم البابا رسالة رئيس أساقفة المانيا وقرأها ، ثم أعاد قراءتها ، انها معارك رهبان سكارى . لقد فسر البعض هذه الجملة بمعنى أن ليون العاشر لم يعر هذا الأمر اهتماماً كبيراً^(١) بينما حقيقة الأمر غير ذلك .

وربما لم يعر ليون هذا الأمر اهتماماً كبيراً فى أول لحظة ولكنه حالاً أدرك خطورة الموقف لأن الموقف كان خطيراً فعلاً بل فى غاية الخطورة ، إذ أن المصالح الرومانية كانت مهددة ، وبدأ يفكر فى حل .

ومع أن رئيس أساقفة المانيا كان قد أرسل هذه الاحتجاجات الى روما الا أنه لم يقف مكتوف اليدين ، كما أن الراهب الدومينيكاى تنزل . طلب من جامعة فرانكفورت أن تدرس هذه الاحتجاجات وبعد دراستها أقرروا بأنها تحتوى على ١١٦ خطأ عقائدياً وبناء عليه رفع الأمر الى روما بأن لوثر هرطوق^(٢) يجب محاكمته .

عندما وصل تقرير رئيس الاساقفة والجامعة ، طلب البابا من ا لكاردينال كاجتان (Cajetan) وهو دومينيكانى ومن أعظم علماء الفاتيكان فى ذلك الوقت أن يكتب له تقريراً عن هذا الموضوع^(٣) ومن أول ديسمبر (كانون أول) بدأ كاجتان فى دراسة الخمسة والتسعين احتجاجاً كذلك السبعة والتسعين التى سبق أن عرضها للمناقشة فى سنة ١٥١٧ أى قبل ظهور هذه الاعتراضات الخمسة والتسعين وفى آخر ديسمبر (كانون الأول) قدم كاجتان تقريره . وخلاصته :

أن لوثر يهاجم الكنيسة الكاثوليكية فى قضيتين :

- (١) لاخلاص بالاعمال الحسنة أو بالاستحقاقات الشخصية .
- (٢) ان السلطة الكنسية غير معصومة وعلى المؤمن الاعتماد على الروح القدس الذى يرشده والرجوع الى الكتاب المقدس^(٤) .

وفى ٣ فبراير (شباط) ١٥١٨ كلف البابا ليون الرئيس العام للأغسطينيين بأن يصدر أمره الى ستوبيتر المسئول عن الرهبانيات الاغسطينية فى المانيا بأن يعمل ما فى وسعه لكى يسحب لوثر احتجاجاته وأن يعلن طاعته وخضوعه والا فلا بد من محاكمته فى روما .

ولقد ظهرت ردود الفعل على هذه الاحتجاجات الخمسة والتسعين فى اماكن كثيرة ، فقد عقد تنزل اجتماعاً فى العشرين من يناير (كانون الثانى) ١٥١٨ فى دير فرانكفورت على نهر الودر لكى يرد عليها . وتعالى أصوات الوعاظ المكلفين ببيع صكوك الغفران مطالبين بحرق لوثر .

عندما كتب لوثر هذه الاحتجاجات كتبها بطريقة موجزة جداً لكى تناقش وتدرس فى الجامعة وعلى مستوى جامعي . ولكنه لما وجد أنها انتشرت فى طول البلاد وعرضها وأصبحت فى متناول العالم والجاهل . وخشى أن تفهم الاحتجاجات وتفسر بطريقة خاطئة . لذلك نشر عظة فى مارس (آذار) ١٥١٨ عن النعمة والصكوك يشرح فيها هذه المشكلة بطريقة واضحة^(٥) وزاد الجدل والنقاش بين الطرفين لدرجة ان تنزل تطرق وقام بحرق الاحتجاجات الخمسة والتسعين ورداً على هذا الفعل قام الطلبة أيضاً بحرق بعض صكوك الغفران^(٦) التى كان تنزل مكلفاً ببيعها .

هوامش الفصل الثامن

1. Greiner, P. 59.
2. Daneil Olivier, P. 26.
3. Strohl P. 268, D. Hourticq P. 37.
4. Strohl Savie P. 124.; Strohl 2 68, Hourticq 37, 38.
5. W.1, 239 SS
6. Strohl 2 68, 269.

الفصل التاسع

مجمع هيدلبرج (Heidelberg)

لقد وجد ستوبيتز - الصديق المخلص للوثر في موقف حرج جدا امام طلب البابا ، وعلى أى حال فانه كان مضطرا لأن يعرف لوثر بهذا الأمر . ورد المصلح في ٣١ مارس (آذار) سنة ١٥١٨ على خطاب أبيه الروحي شارحا اقتناعه بالآراء التي ينادى بها وانه لن يتخلى عنها مالم يقتنع كتابيا . وبناء عليه كان ستوبيتز مضطرا أن يدعو لوثر للمثول امام مجمع من الرهبان وتحدد تاريخ الاجتماع في يوم ٢٥ أبريل (نيسان) ١٥١٨ ومكانه في مدينة هيدلبرج . ولقد أراد لوثر أن ينتهز هذه الفرصة لكي يشرح للأخوة الرهبان أفكاره العقائدية ليس فقط فيما يخص صكوك الغفران والمطهر بل في مواضيع أخرى^(١) ولقد دعم حديثه باقتباسات من كتابات القديس بولس الرسول ثم من كتابات القديس أغسطينوس الذي كان يعتبره المفسر الأمين لبولس .

انتهت المنافسة في جو هادئ لطيف ، على أن لوثر لم يستطع أن يقنع معارضييه من الدومينكان أتباع توما الأكويني وخاصة كبار السن منهم الا أنه ترك في نفوس الشباب تأثيراً عميقا جدا بل أن كثيرين منهم قرروا من تلك اللحظة تأييد لوثر تأييدا كليا . لقد كان من بين الطلبة الذين سمعوا لوثر وتأثروا به في هذا اليوم مارتن بيسر (Martin Bucer)^(٢) الذي أصبح من أعظم المصلحين فيما بعد في ستراسبورج^(٣).

وبما أن لوثر لم يسحب هذه القرارات وصمم على التمسك بها فقد طلب منه أن يكتب الى البابا خطابا يشرح فيه موقفه . وبدأ لوثر دعوته الى فيتمبرج في ١٥ مايو (أيار) ١٥١٨ في الكتابة للبابا شارحا محتويات هذه الاحتجاجات والقصد منها ، ثم كتب أيضا خطابا يظهر فيه خضوعه الكامل له . كان لوثر في ذلك الوقت يثق في البابا كل الثقة . ولذلك شرح له في ذلك المكتوب الطريقة التي استعملها بائعو الصكوك . وكيف أن هذا الأمر يعتبر عارا وإهانة للمسيح . وكما طلب من رئيس اساقفة المانيا التدخل السريع لمنع هذه المهازل . فقد توسل الى البابا أيضا بأن يتدخل سريعا لمجد الرب وقد ختم لوثر خطابه بعبارات تدل على خضوعه واحترامه للبابا . ولطول الخطاب نقتبس منه الخاتمة فقد « ... أيها الأب الاقدس اننى ألقى بنفسى امام قداستكم خاضعا بكل مالي وبكل حالي احيونى أو أقتلونى ، أرفضوا أو اقبلوا

قضيتى واحكموا بخطيئة أو بصوابي كما تشاءون واننى اقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلماً عاملاً فيكم فإن كنت استحق الموت فلن ارفضه .. لأن للرب الأرض وملؤها ، فليكن اسم الرب مباركاً ، وليحفظكم الرب للأبد ، أمين «⁽⁴⁾» .

ومن يقرأ هذا الخطاب كله يلاحظ من أول وهلة خضوع لوثر التام للبابا ثم ثقته المطلقة فيه . وكيف لا يثق فيه وهو يعتقد بأن ليون رجل قد كرس حياته للخدمة وأنه نائب المسيح على الأرض ولا يعمل الا لمجد المسيح فلذلك يلقي بنفسه تحت قدمي هذا الرجل عارضاً مشكلته عليه واثقاً فيه وفي رسوليته وغيروته لمجد المسيح وحده . لقد ارسل لوثر تقريره للاحتجاجات التي تدعى بالحلول أو القرارات⁽⁵⁾ ثم خطابه الموجه للبابا ، الى رئيسه وصديقه ستويتز وكتب هذا الأخير تقريره عن ماحدث في مجمع هيدلبرج وأرسل الملف الى روما فوصل اليها في نصف يونيو (حزيران) ١٥١٨ . ولما وصل ملف لوثر الى روما وأحيل الى بريرياس (Priearias) المسئول عن الشؤون القانونية والمالية وقدم المسئول القانوني تقريره الآتي :

كل من يدعى بأن الكنيسة ليس لها الحق في أن تتصرف وأن تسلك بالطريقة التي سلكت فيها فيما يختص بموضوع صكوك الغفران فهو هرطوق ويجب محاكمته . وقد استعمل بعض العبارات الجارحة في وصفه للوثر (Stvohl 273)* .

وبناء على هذا التقرير أصدرت روما في أول يوليو (تموز) أمرها الى لوثر لكي يحضر للمحاكمة في خلال ستين يوماً من استلامه الرسالة وهذه المدة لا تكفى الا لقطع المسافة بين فيتمبرج وروما وقد وصلت اليه في السابع من اغسطس (آب) .

ترى هل يذهب لوثر الى روما ؟

هوامش الفصل التاسع

1. W1, 350, 374; I 160, 169.
2. Haurticq.
3. W Br. 1 75 p 174, 1, 46.

٤ - ميرل دويينياه ص ١١٩ - ١٢٠ ، أ . موريسون ٤٧ - ٥٠

Strohl 272-273.

5. W 1 522-628, 9 181.

★ Stvohl 273.

الفصل العاشر

لوثر امام الكاردينال كاجيتان (Cajetan)

كان لوثر لا يريد أن يحاكم امام محكمة رومانية ، بل امام محكمة المانية ، ليس خوفا على حياته ، بل كان يعلم جيدا أن ذهابه الى روما يعنى قتل القضية ودفنها .

ولذلك فقد كتب الى حامية الملك فريدريك . كما أنه كتب الى صديق له يدعى سبالاتين (Spalatin) وكان زميلا له في الدراسة واصبح سكرتير البلاط الملكي (Strohl 274)* .

اعتبر لوثر من ذلك الوقت هرطوقا ويجب أن يحاكم كهرطوق ولذلك فقد وعد الامبراطور العجوز فاكسيميليان بمعاقبته ومطاردته كهرطوق (Daniel Oliview 39-42) . ولقد كلف الكاردينال كاجيتان للقيام بالاجراءات اللازمة لدى السلطات الألمانية لكي يسلمه للمحاكمة في روما .

كان الكاردينال يعتقد بأن مهمة اخراج لوثر من المانيا ليحاكم في روما ليست بالمهمة الصعبة ، إذ أن الامبراطور اظهر رغبته في مقاومة كل الهرطقات ، فما كان عليه الا أن يقنع الأمير المنتخب فريدريك الساكسوني بتسليمه . وكان فريدريك رجلا نزيها شريفا ويحتل مكانة ممتازة في الامبراطورية وكان أيضا متقدما في السن وسياسيا محنكا . ولذلك كان يدرك تمام الادراك أن روما والامبراطور ماكسيميليان ، لن يتبعوا سياسة العنف ليرغماءه على تسليم لوثر للمحاكمة . على أن البلاط الروماني حاول بطرق عديدة وبكل الوسائل ان يكسب هذا الأمير الى جانبه . فقد استعمل الترغيب مرة والشدة اخرى . ولذلك ذهب الكاردينال كاجيتان حاملا معه وعدا من البابا بمنح الأمير وردة الذهب : وهو أسمى نيشان تمنحه البابوية . كما أنه أسر له أيضا عن نية البابا في ارسال كميات كبيرة من صكوك الغفران كان قد طلبها من عدة سنين^(١) وبأسلوب دبلوماسي طلب منه أن يسلم له لوثر لكي يحاكم في روما على هرطقته . وأمام هذا الطلب كان فريدريك رابط الجأش ، قوى العزيمة ، صلب كالصخر لا تليينه الوعود ولا يهزه الوعيد ، فأجاب الكاردينال بأن لوثر لا يمكن أن يحاكم في محكمة لاتعرف قانونا الا الكتب المقدسة . ولكن على أي حال لم يكن عنده مانع بان يتقابل قداسته مع لوثر في مدينة أوجسبورج (Augsbourg) . وامام هذا الأمر الواقع لم يجد الكاردينال مناصا الا القبول ظانا بأنه يستطيع أن يقنه لوثر بأخطائه المزعومة فيسحب اعتراضاته وينكرها .



وعندئذ طلب الاذن من روما بمقابلة الراهب العاصي . ووافقته روما على المقابلة . على أن فريديك اشترط على الكاردينال ألا يرغم لوثر على الانسحاب ان لم يرد هو نفسه ذلك . وعلى أن تكون المناقشة ودية . وحالاً أرسل الى لوثر خطاباً يؤمن نية لوثر في رحلة الذهاب من فيتمبرج الى اوجسبورج والعودة منها ويضمن سلامته .

كان لوثر يجهل بعض تفاصيل هذه الرحلة والشروط التي وضعها فريديك لضمان سلامته في الطريق ومقابلة كاجتان ، ولكنه كان لا يجهل ابداً أن رفضه سحب هذه الاعتراضات أو تمسكه بها سيقوده حتماً الى الحكم عليه بالحرق . ولا بد أن صورة بعض الذين حكمت الكنيسة بهرطقتهم . مثلت أمام عينيه وكتب اليه الاصدقاء والمحبون أن يمتنع عن الذهاب الى اوجسبورج ولكنه ثبت وجهه للذهاب اليها . وفي الطريق كتب الى صديق له يقول : « ليمت لوثر وليحيا المسيح »^(٦) .

وصل لوثر الى هذه المدينة الغنية الجميلة التي اشتهرت بفرسانها وأمرائها والسلطات الكنسية فيها . وبدأت المقابلة بين الكاردينال كاجتان ممثل البابا والراهب لوثر في يوم الثلاثاء الموافق ١٢ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥١٨ .

وقد استقبله العاهل الرسولي استقبالا حسنا . وبعد هذا الاستقبال اللطيف دخل الكاردينال في طلب الموضوع .

وقد اتفق معظم المؤرخين والمتخصصين في الدراسات اللوثرية على ان الطلب الأول الذي طلبه كاجتان من لوثر هو أن يتنازل عن تعاليمه التي نادى بها^(٧) فقال له إذا كان هذا هو كل المطلوب منه عمله هناك فلماذا إذن القيام بهذه الرحلة الطويلة المتعبة والمرهقة وكان في الامكان طرح هذا الطلب عليه في فيتمبرج !!!؟

كانت التعليمات التي تلقاها كاجتان من روما ، تأمره بعدم المناقشة لهذا فإن الكاردينال طالب لوثر بشيء واحد ولم يطلب أى شيء آخر غير ان ينكر صحة تعاليمه . فإن كل ما يريده من الراهب هو أن يعلن خطأه في تعليمه وتفسيره وانه مستعد أن يتراجع عما علم به . وأما لوثر فلم يكن ينتظر أى شيء إلا أن يقتنع من الكتب المقدسة ومن كتب الاباء بأنه على خطأ وعندئذ حاول كاجتان ان يلعب على الوتر الحساس في المصلح فطلب منه أن يتراجع عن تعاليمه حتى تعيش الكنيسة في سلام . وقد ردد عدة مرات هذه الكلمات : انسحب ، تراجع ، انكسر هذه التعاليم كما ذكر ان البابا لا يريد إلا ذلك وعندئذ يرجع السلام الى الكنيسة والى لوثر أيضا . على أن لوثر طلب من الكاردينال أن يتكرم ويشرح الذي يجب أن يكون مدعما بما في يتراجع عنها فإن لم تشرح له اخطاؤه وان لم يقتنع بالشرح الذي يجب أن يكون مدعما بما في الكتب المقدسة وأقوال الآباء، فإنه لن يستطيع التراجع عنها ولا قيد أنملة . وأمام اصرار هذا

الراهب العنيد الذى سيلقبه فيما بعد بـحيوان فيتمبرج بدأ الكاردينال يشرح للراهب بعض الأشياء التى علم بها لوثر والتى لا تتفق وتعاليم الكنيسة .

ومن الأخطاء الرئيسية فى رأى ممثل الكرسي البابوى انكاره كنز الكنيسة ، أى ان الكنيسة ليس من حقها أن تتصرف فى أعمال القديسين الزائدة (مشكلة التبرير بالايان) هذا الأمر الذى أنكره لوثر فى الاحتجاج رقم ٥٨ الذى تمسك به أيضا فى القرارات التى أرسلها للبابا ، ثم تمسكه بفكرة أن فاعلية الفرائض المقدسة متوقفة على ايمان الشخص وليس على الفريضة فى حد ذاتها واعترض ايضا كاجتان على مفهوم لوثر لعصمة البابا . وهنا طلب لوثر امهاله يوما للتفكير فى الاجابة وقبل طلبه (Strohl 227) .

وفى يوم الأربعاء ١٣ اكتوبر (تشرين الأول) ظهر لوثر أمام الكاردينال كاجتان وقد صاحبه هذه المرة رئيس الاديرة الاغسطينية ، صديقه ستوبيتز ، وأربعة من النواب واثنان من المحامين بامر الملك فريدريك ، وكاتب قانونى . وقد قرأ الكاتب اقرار لوثر بأنه لا يريد أن يقتنع من الكتب المقدسة . وعندئذ كرر الكاردينال كلامه : قائلاً بأنه لا يريد الا انسحاب لوثر واعترافه بأنه مخطئ . وهذا كل مايريده قداسة البابا . وأما لوثر فكرر بدوره أنه لا يريد هو أيضا الا شيئاً واحداً وهو أن يقتنع باخطائه قبل ان يعترف بها^(٤) .

وقال لوثر انه على استعداد لأن يقبل حكم جامعة بازل أو فريبورج أو لوفان أو باريسى . وعندما سمع كاجتان هذا الاقتراح لم يستطع أن يضبط نفسه ولا ان يحكم غيظه ضد هذا الراهب المتمرد العنيد ، وصرخ فيه قائلاً : « انه لا يريد أن يتناقش معه ، وانه لم يأت الى هنا لكى يتناقش بل لكى يسمع اعترافا ويرى ندما وسأله ان كان مستعد أن يعترف بأخطائه ؟ » وخشى ستوبيتز ان تتطور الأمور فى المناقشة فتدخل حالا واقترح على الكاردينال أن يتفضل ويمنح لوثر فرصة أخرى يكتب فيها اعتقاداته ثم يتكرم بفحصها^(٥) . كان كاجتان لا يريد أن يرجع الى روما دون حل ، فقبل اقتراح ستوبيتز .

وفى يوم الخميس الموافق ١٤ اكتوبر انتهز لوثر الفرصة لكى يشرح عقيدته فى موضوع سلطان البابا فهو يعتقد بأن الجمع فى حكمه يفوق سلطان البابا منفرداً بل أن شخصاً مؤمناً يعتمد على الكتاب المقدس ويرجع اليه فى احكامه وتفسيره يستطيع أن يثبت اخطاء البابا . ولكى يؤيد كلامه من المكتوب رجع الى قصة بطرس وبولس وقال ألم يوبخ بولس بطرس على خطأه علانية (غلا ٢ : ١١ - ١٧)^(٦) ثم قال إنه لا يمكنه ان يقبل مايرفضه ضميره .

ثم تحدث عن الايمان الذى يحرر الانسان بالنعمة ؟ انه يخلق الانسان خليقة جديدة وهذه الخليقة الجديدة التى هى عمل الله تأتى بالثمار الصالحة .

وفي يوم الجمعة الموافق ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٥١٨ جاء لوثر وقدم للكاردينال كاجتان اجابته مكتوبة ، اما الكاردينال فلم يتفضل الا بالقاء نظرة عابرة وسريعة جداً دون قراءة دقيقة للاجابات ثم بدأ من جديد ماقد بدأ به في أول مقابلة له مع راهب فيتمبرج قائلاً : « أنت على استعداد ان تسحب أقوالك واحتجاجاتك وتعترف بأخطائك أم لا ؟ » وكان رد لوثر أنه ان لم يثبت له من الكتاب المقدس ومن أقوال الآباء أخطائه المزعومة فلن يتراجع . فصرخ الكاردينال في وجه لوثر قائلاً : « اختف من هنا ولا ترني وجهك إلا إذا قررت الخضوع والاعتراف بأخطائك »^(٧) .

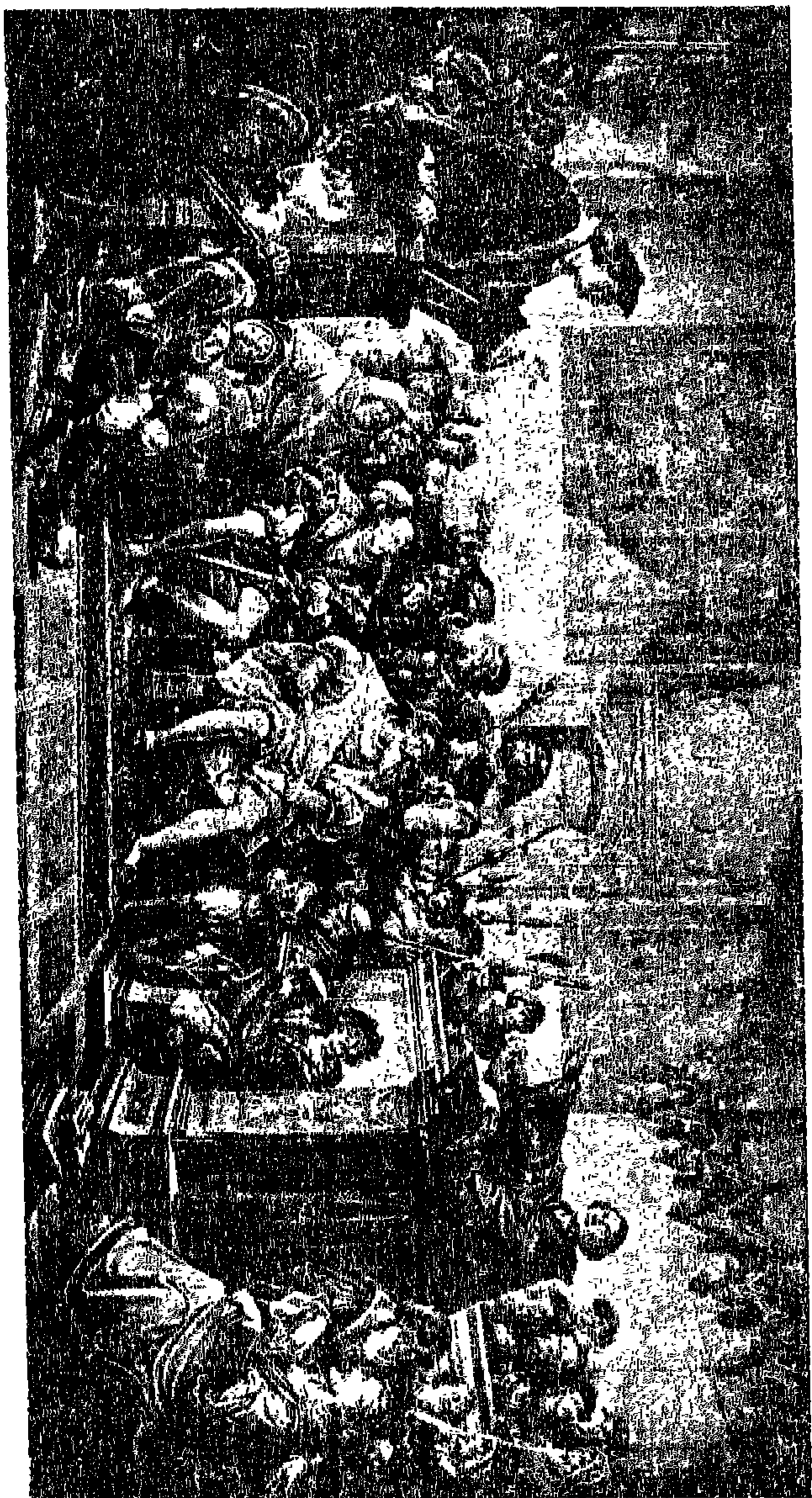
وفي مساء نفس اليوم طلب الكاردينال مقابلة ستويتز وطلب منه أن يستعمل كل سلطانه وتأثيره على لوثر لكي يجعله يتراجع . وكم كان هذا الموقف حرجاً ومؤلماً وقاسياً على أب يحب ابنه ويعطف عليه . نعم لقد كان لقاء ستويتز مع لوثر في ذلك المساء لقاء قاسياً . وطلب الأب الروحي من الابن الاعتدال وعدم المخاطرة واطهار روح الخضوع . وقبل لوثر لإرضاء لأبيه الروحي أن يكتب خطاباً في ١٧ أكتوبر الى الكاردينال واعدأ بالأ يتكلم فيما بعد عن مشكلة صكوك الغفران بشرط ألا يهاجم ثم أعلن ايضاً استعداداه بسحب كل ماكتب أو علم ، بشرط أن يقنعوه من الكتب المقدسة ومن أقوال الآباء بخطأ ماكتب أو علم (ميرل دوينيه ١٥٤ - ١٥٥) .

كان ستويتز حائراً ومتألماً بخصوص لوثر وكان يفكر كيف يمكن أن يخرج من هذا المأزق ؟ لقد فكر ستويتز في عدة طرق لكي ينقذ ابنه الروحي من هذه الأزمة : هل يحسن ان يهرب لوثر الى باريس ؟ أم يخفيه في مكان آمن ؟ وأخيراً فكر بأن يحله من نذوره ويطلقه ... وهكذا فعل .

وترك ستويتز ابنه مارتن لوثر في أوجسبورج في ١٦ أكتوبر . اما محامى لوثر فقد نصحه بأن يقدم طلباً مكتوباً قبل مغادرة المدينة باستئناف القضية لكي ينظر فيها من جديد رجال محايدون^(٨) .

اما الكاردينال كاجتان فقد كتب خطاباً الى الملك فريدريك يشرح فيه تفاصيل مقابلاته مع لوثر ويلتمس منه أن يسلمه الى روما أو يطرده من مقاطعته ويحثه على القيام بواجبه كمسيحي وأن يسلم هذا الهرطوقي الى السلطة الكنسية لمحاكمته .

وفي يوم ١٤ ديسمبر (كانون الأول) كتب الملك فريدريك خطاباً أظهر فيه دبلوماسيته وحزمه فقد ذكر للكاردينال بأنه ليس في حاجة الى من يعرفه بواجبه كمسيحي لانه مسيحي^(٩) . وبخصوص موضوع لوثر قال انه سوف يعمل ما في وسعه لضمان صمته كما عرفه ايضاً بأنه سوف يجمع بعض الضرائب للمساهمة في الحرب ضد الاتراك .



اما لوثر فقد وصل الى فيتمبرج في نهاية شهر اكتوبر وكان قد مضى على تعليق هذه الاحتجاجات سنة كاملة . وبالرغم من هذه المشاكل فان لوثر كان يواصل نشاطه في التدريس ودراسة الكتاب المقدس بل أراد أن يتعمق في دراسته أكثر فأكثر . ولذلك فقد بدأ يدرس باجتهاد اللغة اليونانية مع شاب نابه اسمه ملانكتون وصل الى فيتمبرج وانضم الى هيئة التدريس في شهر اغسطس (آب) ١٥١٨ وهو الذي اصبح الذراع الأيمن للمصحح فيما بعد وبينما كان لوثر في طريقه الى فيتمبرج وهو عائد الى أوجسبورج وجد خطابا في انتظاره في مدينة نورمبرج (Nuremberg) من صديقه وزميله سبالاين سكرتير الملك فريدريك يعرفه بأن الأمر قد صدر بالقبض عليه وتسليمه الى روما كما عرفه أيضا بخطاب كاجتان للأمير الذي ارسله ليحثه على تسليم لوثر . وذكر سبالاين في خطابه بأن الأمير لا يريد أن يترك لوثر فيتمبرج^(١٠) وفي ٨ مارس (آذار) عرف لوثر بان ميلتيتز (Miltitz) في طريقه للحصول على إذن بالقبض عليه وتسليمه الى روما . ولأول مرة شعر لوثر بان روما ضد المسيح^(١١) وهنا نشر مكتوبه لدعوة مجمع عام للنظر في قضيته .

كان كارل فون ميلتيتز الماني الجنسية ، ذكيا وسياسيا محنكاً . ودبلوماسيا ماهراً بالرغم من صغر سنه ، وقد كلف من قبل البلاط الروماني بان يذهب الى المانيا لاحتضار لوثر للمحاكمة . وقد جاء لمقابلة الملك فريدريك حاملا في احدى يديه سوطا وفي اليد الأخرى هدية .

وكانت الهدية هي تسليم الملك فريدريك وسام الوردة الذهبية . وعندما بدأ الكلام معه بخصوص تسليم لوثر الى روما نبه الملك - الذي كان أكثر دبلوماسية واطول خبرة وحنكة في الأمور السياسية - الدبلوماسي الشاب بأن الخطر سيكون عظيماً إذا هرب لوثر الى بوهيميا حيث يمكن ان يتجدد الصراع العقائدي والسياسي القديم . فاقتنع ميلتيتز بهذا الرأي . ولقد لاحظ الملك رغبة الشاب في النجاح في مهمته ولذلك أوحى اليه بان لوثر لا يطلب الا الاقتناع باخطائه . وربما إذا وجد رجلا حكيماً يمكن ان يقتنع . فطلب ميلتيتز مقابلة لوثر وهذا ماكن يسعى اليه الأمير إذا أنه كان يريد أن يثبت ان لوثر كان ومازال محقاً في طلبه للمناقشة وليس الخضوع دون اقتناع .

وقد تقابل الرجلان يومى ٥ ، ٦ يناير (كانون الثاني) ١٥١٩ في مدينة ألتنبرج (Altenbourg) وخرج ميلتيتز بانطباعات طيبة من هذه المقابلة . ونتيجة لهذه المقابلة قبل لوثر ألا يتكلم فيما بعد عن صكوك الغفران شريطة الا يهاجم^(١٢) وطلب ميلتيتز الى البابا دون ان يستشير كاجتان ان يسند هذه القضية الى قضاة المان للحكم فيها . لكن آك نشر هجومه في ٢٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٥١٨ ضد أحد زملاء لوثر وهو الدكتور كارلستادت (Carlstadt) وفي حقيقة الأمر لم يكن كارلستادت هو المقصود بهذا النقد بل لوثر نفسه وكان

هذا الهجوم حلاً للوثر من العهد الذى قطعه مع ملنيتز وأصبح حراً فى الدفاع عن آرائه ضد هذا الهجوم ، ولم يعرف لوثر بموضوع آك الا بعد اجتماع ٦ يناير (كانون الثانى) وظل الصراع بين آك وكارلستادت مستمراً .

ثم جاء موت الامبراطور ماكسيمليان فى يوم ١١ يناير (كانون الثانى) بمثابة هدنة مؤقتة لوقف هذا الصراع بين الطرفين فقد احتل موت الامبراطور العجوز ماكسيمليان وانتخاب امبراطور جديد المكانة الأولى فى عقول الناس وانقسم امراء وملوك الامبراطورية فقد أيد بعضهم شارك الأسباني بينما أيد الآخرون فرانسوا الأول . كما إنقسم الامراء فيما بينهم على تعيين الامبراطور الرومانى ، فإن البلاط الرومانى كان فى حيرة : يميل تارة الى الواحد وتارة الى الآخر^(١٣) وإنتهت هذه المعارك السياسية بانتخاب شارل الأول ملك اسبانيا والذى حكم المانيا باسم شارل الخامس . وهو حفيد الامبراطور ماكسيمليان^(١٤) وعندما تربع الامبراطور الجديد على عرش هذه الامبراطورية المترامية الاطراف كان فى التاسعة عشر من عمره . وقد انتخب فى يوم ٢٨ يوليو (تموز) ١٥١٩^(١٥) .

هوامش الفصل العاشر

* لا نعرف الا القليل كيف بدأت العلاقة بين لوثر والملك فريديريك ، فإن البعض يعتقد بأن ملك ساكسونيا (فريديريك) سمع مرة لوثر يعظ فاعجب به وقال ان هذا الراهب ليس انسانا جاهلا فارتبط به من ذلك الوقت (Daniel Olivier, 28) ويقول البعض الآخر بأنه لم يره الا مرة واحدة (G. Casalis) والبعض الآخر يعتقد بأنه لم يتكلم مع المصلح اكثر من عشرين دقيقة (Greiner 61, Bainton 69) وعلى ما يبدو فإن الملك فريديريك كان يحب لوثر ويحترمه كثيراً فهو الذى سهل له وسيلة السفر والعناية بحراسته فى رحلته الى هيدلبرج ومن تلك اللحظة لم يتخل الملك فريديريك عن الدفاع عن المصلح والوقوف بجانبه .

1. Strohl P. 267, Strohl sa vie, p. 128.
2. W BR 1 96.
3. R. Bainton P. 69-71, Greiner un Pass.. 34-38; Daniel Oliver 60-62; Strohl sa vie 128.
4. Strohl P. 267-278. Hourticq P. 41-43.
5. W2 9-16.
6. W2 10-12.
7. Daniel Olivier P. 63-66.
8. W. Br. 1, 104 P. 123.
9. Strohl P. 281-285.
10. W. Br 1, 116; 1 118.
11. W. Br 1, 121.
12. Strohl P. 130-131.
13. Strohl sa vie, P. 133.
14. Greiner un Pass. 36-37.
15. Strohl 286.

الفصل الحادى عشر

حوار مفتوح فى مدينة ليبزج (Leipzig)

ظهر منافس جديد للمصلح وهو الدكتور آك (Eck) الذى شن هجوما عقائديا عنيفا ضد الدكتور كارلستادت ، وكان أستاذاً فى جامعة فيتمبرج وصديقاً حميماً للوثر . وعندما بدأ الدكتور آك فى انتقاداته لتعاليم كارلستادت كان فى الحقيقة يريد أن يسحب مارتن لوثر الى المناقشة معه ، إذ أنه كان يعتقد دون أن يصرح بذلك علانية أن الطريقة التى اتبعها كاجتات طريقة غير صحيحة وأنه هو الشخص الكفء الذى فى استطاعته أن يناقش لوثر وأن يوقفه عنده حده . وقد تحدد ميعاد ومكان الاجتماع لحوار مفتوح بين العميد آك والدكتور كارلستادت . وابتداء من ٢٢ يونيو (حزيران) ١٥١٩ توافدت الجماهير على مدينة ليبزج وتوجه أساتذة وطلبة جامعة فيتمبرج الى هذه المدينة وكان عدد كبير منهم مسلحين^(١) بدأ الحوار فى الاسبوع الأول^(٢) بين الدكتور آك وبين الدكتور كارلستادت كان آك قوى الذاكرة حاد الذكاء عليم بأقوال الآباء وتعاليمهم متبحراً فى دراسة قرارات المجامع ، كما أنه كان خطيباً مفوهاً . أما كارلستادت فقد تميز بمعرفته الكتب المقدسة معرفة جيدة . وقد تعمق فى دراستها وفهمها وبعد خطاب الافتتاح الذى القاه (موزيلانوس) (Mosellanus) عميد جامعة ليبزج بدأ الحوار بعد الظهر . وكان المتكلم الأول هو الدكتور آك واستطاع ان يجذب انتباه عدد كبير بسلاسة أسلوبه وقوة حجته وتمكنه من معرفة أقوال الآباء أما كارلستادت فكان يستشهد فى خطابه بعدد كبير من الكتب فى جمعها ووضعها أمامه . وكان موضوع النقاش فى هذه الايام مركزاً على مشكلة حرية الارادة .

وفى يوم الأحد الموافق ٢٩ يونيو (حزيران) طلب دون بارنيم (Barnim) من لوثر أن يعظ فى الكنيسة للشعب الذى جاء معه من فيتمبرج وكانت عظته من انجيل متى ١٦ : ١٣ - ٢٠ ولقد ترك تأثيراً قوياً وعميقاً للدرجة أن السلطات منعت من الوعظ مرة ثانية هناك .

ظل الحوار بين آك و كارلستادت وان كان تفوق آك ورجحان كفته ظاهراً . وفى يوم ٤ يوليو وهو اليوم الذى كان ينتظره آك بفارغ الصبر من عدة شهور لمناقشة الدكتور مارتن لوثر ودار الحوار لمدة خمسة أيام حول سلطة البابا . وحاول آك أن يستخدم اقوال الآباء فى اقناع لوثر وشدد آك على ان الذى لا يعترف بسلطان بابا روما لا يعتبر عضواً فى كنيسة

يسوع المسيح . وعندئذ سأله لوثر ماذا تقول إذاً في الذين قدموا حياتهم وعاشوا الايمان المسيحي بكل تقوى وقداسة ؟ لا بل استشهد من اجل اسمه في الكنائس الشرقية ؟ واستطرد أيضاً يقول : مارأيك في موقف بولس الذي وبخ بطرس علانية ، هل كان بطرس معصوماً من الخطأ ؟ وواصل دفاعه بالقول : ومارأيك في المجامع فقد حكم الواحد على الآخر وحرمه ، فمن هو الحارم الحقيقي ومن هو المحروم الحقيقي ؟ .. وفي نهاية الأمر وجه لوثر انظار السامعين الى الأساس الثابت القوي المتين وهو الكتاب المقدس ، الكتاب الوحيد المعصوم الذي يجب أن يرجع اليه المؤمن لأنه كلمة الله .

وفي الاسبوع التالي واصل كارلستادت حواراً مع آك وانتهى النقاش في يوم ١٥ يوليو (تموز) ١٥١٩ . ويعتبر هذا الحوار نقطة من النقاط التي وسعت الفجوة بين الفريقين . ومع أن السامعين أحسوا في أحيان كثيرة أن لوثر كان قويا في حجته عميقا في تفكيره جديداً في أسلوبه روحيا في كلامه ، الا أن لوثر نفسه اعترف بأنه لم يكن بالقوة التي كان ينتظرها وبالرغم من اعترافه هذا فقد تغير اتجاه عدد لا بأس به من الحاضرين وقبلوا افكاره الجديدة بفضل هذه المناقشات ، على رأسهم السكرتير الخاص للدكتور آك^(٣) ولكن للأمانة العلمية يجب أن نعترف بأن آك قد أحرز بعض النجاح في هذا الحوار لكنه بالغ فيه مبالغة كبيرة جداً عندما حمل بنفسه خبر هذا النجاح الى روما .

لم يستطع الكونت جورج دفع المبلغ الذي طلبته جامعة باريس لبحث الحوار الذي دار في مدينة ليبزج بين الدكتور آك و كارلستادت ولوثر ولذلك لم تقم جامعة باريس بدراسته وتقديم رأيها فيه وأما جامعتا كولوني و لوفان فقد قدمتتا تقريراً دون أى مقابل تحكمان فيه بهرطقة لوثر^(٤) .

ولقد أعتبر آك حوار ليبزج نجاحاً شخصياً عظيماً . ولذلك فقد انطلق الى روما وبدأ في تحريك الأمور واثارة النفوس ضد لوثر . فعندما وصل يوم ١٥ مارس (آذار) قبله البابا ليون بفرح عظيم . واعتبره الرجل الذي يجب الرجوع اليه في هذا الموضوع . وتكونت لجنة جديدة للحكم على لوثر ضمت كل من أكليتي (Accolite) وكاجتان (Cajetane) وآك (Eck)^(٥) . ولقد كلف آك باكمال قائمة أخطاء لوثر . وفي يوم ١٥ يونيو (حزيران) ١٥٢٠ صدر القرار الذي يهدد بحرمان لوثر إذا لم يعترف بأخطائه وهرطقته في غضون ستين يوماً ولقد منح آك سلطاناً مطلقاً لتنفيذ هذا القرار وتطبيق الحرمان على كل من يعترض على تنفيذه .

هوامش الفصل الحادى عشر

1. Deniel Olivier 46-50; Deniel Olivier 105.

(٢) لقد انقلبت عربة كارلستادت عند وصوله الى المدينة على أن هذه الحادثة لم تعطل الحوار .

3. Haurticq P. 49.

4. Daniel Olivier p. 118-119.

5. Daniel Olivier, P. 133.

الفصل الثاني عشر

انفصال لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية

منذ أن بدأت الأزمات تواجه لوثر وحتى شهر ديسمبر سنة ١٥١٩ لم يفكر المصلح ولم يحاول أن يترك الكنيسة الكاثوليكية . فعندما كان يتصارع ضد مخاوفه وقلقه واضطراباته وهو طالب كان يصارع ويناضل للحصول على خلاصه في الكنيسة ولما لم يجد حلاً لمشكلته الروحية أثناء دراسته الثانوية التحق بالدير واستمر في الصلاة والبحث ليحصل على الخلاص عن طريق الصلوات والفروض والطقوس التي عملت بها الكنيسة . في أثناء هذه المراحل كان لوثر يؤمن بأن الخلاص الذي يبحث عنه هو في الكنيسة ، ولا يجب أن يبحث عنه إلا في داخلها . وحتى بعد أن دخل النور إلى قلبه فجده ، وبعد أن اكتشف الاكتشاف العظيم : وهو أن الخلاص بالآيمان والاعتماد على شخص الرب يسوع المسيح وحده وليس بأعمال لكي لا يفتخر أحد ، لم يفكر لوثر ولا لحظة واحدة أن يهجر الكنيسة المحبوبة . بل نراه راهباً مطيعاً لرؤسائه وكاهناً مثالياً واستاذاً قديراً في محاضراته وتدريسه . وفي الكنيسة أدركته نعمة الله ، وفيها أيضاً أراد هذا المصلح العظيم أن يعلن انجيل المسيح الذي هو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن (رو ١ : ١٦ - ١٧) .

كان لوثر ابناً مطيعاً ومخلصاً للكنيسة ، ولهذا السبب فقد ظل داخلها ولم يحاول تركها كما أنه كان يثق ثقة تكاد تكون ثقة عمياء في البابا . كان يحب هذا الرجل ويكن له كل الاحترام والتقدير والخضوع . كما كان يحب ويقدر ويحترم رؤسائه رهباناً كانوا أو كهنة أو اساقفة . واستمرت هذه الثقة في رؤسائه . تملأ قلبه وفكره . ومن منطلق ثقته في رؤسائه ومحبهه للكنيسة واخلاصه لها علق لوثر الخمسة والتسعين بنداً على باب كاتدرائية فينمبرج مطالباً الكنيسة والمسؤولين فيها باستبعاد كل عقيدة لا تتفق وطهارة تعاليمها الرسولية ولأجل ذلك فقد كتب مخلصاً إلى رئيس اساقفة منطقته . وكذلك إلى البابا وآخرين . وقد اعتقد في ذلك الوقت بأن مايقوم به سيلاقى بلا شك تشجيعاً وترحيباً عظيمين . ولكن للأسف الشديد ، لم يجد منهم ترحيباً ولا تشجيعاً . وعلى قدر ما بذل هذا الشاب من جهده في اصلاح هذه الكنيسة من الداخل على قدر ما كان يرى الكنيسة ترفض هذا الاصلاح ، بل تحتقره وتضطهده . ولقد استطاع ان يحتفظ بمحبته العميقة للبابا واحترامه له مدة طويلة (ميرل بو ٢٢١ - ٢٢٣) . وقد شجعه على الاحتفاظ بهذه المحبة للبابا ليون العاشر اعتقاده بأن الأخبار

لا تصل اليه الا مشوهة أو أنه لا يعرف الا الناحية السلبية من الموضوع . وهذا الأمر كان صحيحا جزئيا الا أن ثقته في بعض المسؤولين بدأت تهتز ، حتى في البابا نفسه عندما علم بخبر وصول ميليتيز لكي يحضره الى روما للمحاكمة . لقد قام الدومينيكان بحرب شعواء ضده وكذلك الكاردينال كاجتان وآك والآن ميليتيز . كل هؤلاء جندوا أنفسهم لكي يجروه جراً الى روما لا لكي يدافع عن مايؤمن به بطريقة ديمقراطية حرة ، بل لكي يلصقوا به تهمة الهرطقة .

ولقد اتفق بعض المؤرخين على ان ثقة لوثر في البابا بدأت تهتز اهتزازاً عنيفاً بل تزول تماماً عندما علم في يوم ٨ ديسمبر بوصول ميليتيز الى المانيا للقبض عليه . ففي هذا اليوم ولاول مرة خطرت له فكرة ان البابا هو ضد المسيح^(١) .

بدأت هذه الفكرة تختمر وتكبر في رأسه وكانت الحوادث التي مرت به ، وصراعه العنيف مع الكنيسة ومع قادتها والمسؤولين فيها يقوى اعتقاده بهذه الفكرة . ومما ساعد أيضا على نمو هذه الفكرة في ذهنه ، هو موقف الكنيسة والبابا بعد مناقشة ليبيزج . فقد ذهب آك الى روما لكي يعلن بنفسه هذا النصر العظيم الذي استطاع به أن يحطم لوثر . ولقد استقبله البابا استقبالا رائعا وكون حالا لجنة جديدة لكي تدرس موضوع حرمان لوثر . وهذا ما كان يسعى اليه آك . فاصبح عضوا في هذه اللجنة التي ضمت معلمين لاهوتيين وقانونيين وبعد دراسات طويلة واجتماعات عديدة . صدر القرار بحرمان لوثر في يوم ١٥ يونيو (حزيران) ١٥٢٠ وأرسل في يوم ٢٣ من نفس الشهر ونشر في اغسطس واصبح نافذ المفعول في اكتوبر^(٢) . وعلى مايعتقد البعض أن نص الحرمان - أو على الأقل جزء كبير منه كان من تأليف آك . وقيل أيضا انه قدم هذا النص على البابا لكي يوقع عليه عندما كان البابا يقضي فترة استجمام وراحة في منزل خاص ويقضي أوقاته في الصيد . (Daniel Olivier 134) وفي مقدمة قرار الحرمان صلاة كتبها البابا ومنها : « ... قم يارب وانصر حقلك ضد الثعالب المفترسة التي تعمل على تخريب كرمك ، ضد الوحوش البرية التي تدمره ... قم يابطرس وأذكر كنيستك الرومانية المقدسة .. قوموا يا جميع القديسين وتضرعوا الى الله » (أ . موريسون ٦٩ ، م . دوينيا ٢١٤ - ٢١٥) وبعد هذه الصلاة يجيء نص الحرمان الذي يحتوي على الرد على ٤١ احتجاجاً من احتجاجات لوثر التي حكمت الكنيسة بهرطقتها .

(١) ان يعلن خطأ تعاليمه في غضون شهرين من استلام هذا الحرمان .

(٢) ان يمتنع عن الوعظ والتعليم والكتابة والنشر .

(٣) ان يحرق كتبه التي كتبها .

هذا الحرم الصادر ضد مارتن لوثر ينطبق أيضا على كل الذين يتعاونون معه أو يدافعون

عنه كما حث القرار كل الكاثوليك ، ليس فقط على رفض تعاليمه بل ، على عدم التعامل مع كل من يعتنق مذهبه^(٣) وقد انتشر هذا الخبر في المانيا انتشار البرق في سرعته . وخاصة ان الذين تولوا نشره أمثال آك كانوا مغرضين .

ماذا يعمل لوثر إذا ؟

لقد سبق أن شرحنا أن لوثر كان يحاول حتى ذلك الوقت ان يوصل انجيل الخلاص للكنيسة ، كان يحاول أن يبشر في الكنيسة وان يصلحها . ولم يحاول قط ان يهاجم لأنه كان يكن لها حبا عميقاً . أما الآن فقد تغير فكره ، إذ انه وجد أن الكنيسة لا ترفض الاصلاح فقط ، بل انها تريد قتله والوقوف ضده حتى لا يقوم بالتبشير ، وفي نفس الوقت فقد سمع بأخبار اجتماع آك مع البابا في روما ، ثم سمع ايضا بأخبار الحرمان .

ماذا يعمل لوثر ؟

أمام هذه المشاكل والاضطرابات .



هوامش الفصل الثاني عشر

1. W. Br, 1, 121. P. 270, 1. 12, Strohl, 283.

للتوسع في دراسة وبمّث هذا الموضوع يجب الرجوع الى هذه الشواهد .

Yoes congar, Martin Luther-Sa Foi; Sa Ke'forme, etudes le thèobogière historique Les editions du CERF P. 56-58.

2. Hourticq Notes 17.

أ . موريسون ص ٧٠ ، ٧١ - دوينياه ص ٢١٤ - ٢١٥

3. Daniel Olivier P. 130-140.



الفصل الثالث عشر

كتابات لوثر العظمى

... of the ...
... ..

كانت هذه الفترة بالنسبة للوثر فترة تعب وارهاق وانتاج عظيم ، فبالرغم من هذه الاضطرابات والتهديدات لم يكف لوثر عن القيام بالتدريس والزيارات والكتابة والتأليف . فقد قام في ذلك العام بكتابة ثلاث كتيبات تدعى « كتابات المصلح العظمى » . وعظمة هذه الكتيبات ليست في كبر حجمها بل في معناها والرسالة التي احتوت عليها هذه الكتيبات . لقد كتبت ونشرت في ظروف دينية وسياسية واجتماعية معينة . والمنشور الأول من هذه المنشورات عنوانه :

الكتيب الأول : الى الأمة المسيحية الألمانية النبيلة

لقد خرج هذا الكتيب من المطبعة في شهر اغسطس (آب) ١٥٢٠ أى بعد انتهاء الحوار اللاهوتي الذي استمر اكثر من اسبوعين في ليبزج بين لوثر ومنافسيه . وبعد انتخاب الامبراطور الجديد شارل الخامس (Greiner. 72) .

محتويات هذا الكتيب :

يقول لوثر في مقدمته : « مضى وقت الصمت وجاء وقت الكلام »^(١) وكان يريد بهذه الجملة ان يلفت نظر اصدقاءه ومنافسيه الى أن وقت الصمت والطاعة العمياء والخضوع الذي لا فائدة منه ، قد مضى وجاء الوقت الذي يجب ان يتكلم فيه فلا فائدة من الصمت (ارميا ٢٠ : ١٧ - ٩) ولقد كتب لوثر هذا المكتوب باللغة الألمانية لغة الشعب وتخطفه القراء حال ظهوره . لدرجة ان ال ٤٠٠٠ نسخة التي ظهرت منه اختفت خلال الستة أيام الأولى من ظهورها^(٢) .

وقد دعا لوثر في هذا الكتيب الأمة الألمانية كلها ، وعلى رأسها الامبراطور الجديد والملوك والامراء الى القيام بواجباتهم ليس تجاه المدينة التي انتخبوا لها فحسب بل أيضا للقيام بواجباتهم الروحية التي تتطلب اصلاحا جذريا عجز المسئولون (الاكليروس) عن القيام به . ويستعمل لوثر في هذا الكتاب لهجة وطنية مناشداً الشعب أن ينفذ عن كاهله التدخل الاجنبى في شئون الأمة الألمانية ، وأن يحمل بنفسه المسؤولية في قيادة الأمة والكنيسة . وقال إن الرومان قد وضعوا ثلاثة حواجز لكى يحتفظوا بالسلطان في المانيا وهى :

(١) الحاجز الأول الذى تفرضه الكنيسة الرومانية هو أن السلطان الروحي فوق السلطان الزمنى فلقد طالبت كنيسة روما بخضوع الأباطرة والملوك والامراء للسلطة الروحية العليا ألا وهى سلطة البابا وسلطة الكنيسة ويرفض لوثر هذا المفهوم ويقول انه لا يوجد أمام الله اكليروس علمانيون فأن مجيء المسيح غير اوضاع كاهن العهد القديم لأن المسيح هو كاهن العهد الجديد : وهو الكاهن والذبيحة فى نفس الوقت كما انه دعا أيضا جميع المؤمنين الذين يقبلونه بالايمان أن يكونوا كهنة مثله فليس الكاهن المرتسم وحده الكاهن الحقيقى بل ان الكاهن الحقيقى هو الذى يقبل المسيح يسوع مخلصا وفاديا^(٣) وهذا مايدعى بكنهوت جميع المؤمنين ولقد اقتبس عدة فصول كتابية لكى يثبت فكرته هذه (رؤ ١ : ٦ ، ٥ : ١٠ ، ٢٠ : ٦ ، ابط ٢ : ٩) فهو يقول ان عبارة كاهن تساوى تماما فى المفهوم الكتابى مؤمن أو معمد أو مجدد (رو ١٢ : ١ ، عب ١٣ : ٥ ، ابط ١ : ٥ ، ٩)^(٤) . فلا يوجد إذن فرق بين الاكليروس والشعب^(٥) ولا توجد طبقة اكليروسية حاكمة مهيمنة وطبقة علمانية مسيطر عليها . كلنا ملوك وكهنة لله أئينا . لنا نفس الامتيازات وعلينا نفس الواجبات . وعلى كل مؤمن أن يقوم بالعمل الموكل اليه فالخادم يعمل كمخدوم والمدير يعمل كمدير والحاكم كحاكم ... الخ .. هذا هو الحاجز الأول الذى فرضته الكنيسة على الشعوب وحاول لوثر هدمه^(٦) .

(٢) الحاجز الثانى الذى حاول هدمه هو حق الاحتفاظ بتفسير الكتاب للاكليروس فقط : فقد نادى الكنيسة بأن رجال الاكليروس فقط هم الذين لهم حق تفسير الكتاب المقدس . أما لوثر فقد نادى بان تفسير الكتاب المقدس لا يجب ان يكون حكرا على الاكليروس فقط ، بل للجميع ، لأن روح الله هو الذى يعمل فى القارىء كاهنا كان أو علمانيا عالما أو عاميا لكى يفهم المكتوب . فإن الله الذى جعل حماراً يتكلم لكى يوبخ نبيه الا يمكنه ان يتكلم على فم انسان تقى لكى يوبخ البابا ؟ فإن لوثر يدعو الجميع الى فتح الكتاب ليس فقط لقراءته بل لتفسيره أيضا .

(٣) أما الحاجز الثالث الذى حاول هدمه فهو الادعاء بان البابا وحده له الحق فى دعوة المجمع فيقول ان الذى دعى لانعقاد أول مجمع فى التاريخ هم الرسل كلهم وليس بطرس وحده كما ان البابا لم يكن هو الذى دعى لعقد مجمع نيقية أو صدق على قراراته .

لكن بعد عملية الهدم التى قام بها لوثر فى كتاباته فانه لا يترك الانقاض ، بل يحاول أن يبنى مجتمعا جديداً . فهو يدعو لاصلاح الادارة العامة فى روما . وينادى ايضا باصلاح التعليم وتنظيم المساعدات الاجتماعية والعمل على تنظيم الكنيسة بطريقة أخرى .

الكتيب الثالث : الأسر البابلي للكنيسة :

كان الكتيب الأول موجها الى الأمة الألمانية كلها وكتبه بلغه الشعب اما هذا الكتيب فانه يوجهه الى جماعة العلماء في العلوم الدينية أى اللاهوتيين والى المثقفين ولذلك فقد كتبه باللغة اللاتينية . ولقد ظهر في ٦ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢٠^(٧) . يقول فيه لوثر أن سلطة البابا مؤسسة على مفهوم خاطيء لعقيدة الفرائض* ولم يقبل لوثر من الفرائض السبع** التي علمت بها الكنيسة الا اثنتين :

وهما فريضة الأفخارستيا أو العشاء الرباني ، وفريضة المعمودية . كما أنه سمح بقبول فريضة التوبة كفريضة مهمة .

وقد تعرض لوثر في هذا الكتيب لمسألة العشاء الرباني . وكان المصلح الالماني الذي عاش في القرن السادس عشر متمسكا بحضور المسيح فعليا وحقيقياً في الخبز والخمر ، بدرجة تفوق عقيدة الكثيرين من الكاثوليك في الوقت الحاضر . إذ أنه علم بطريقة واضحة وصريحة أن الخبز والخمر يحملان فيهما حقيقة وفعلا وليس بطريقة رمزية أو استعارية جسد ودم يسوع المسيح .

فعندما نطق السيد قائلاً : هذا هو جسدي ، وهذا هو دمي فإن جسد الرب ودمه حلا فعلا في الخبز والخمر ، وان المؤمن عندما يأكل الخبز ويشرب الخمر إنما يأكل ويشرب جسد الرب يسوع ودمه . على أن لوثر رفض كلياً وجزئياً عقيدة التحول (La Trr Hssvbstahtiation) إذ قال عنها انها فكرة غير كتابية الا انه يميل لاستعمال بعض الاصلاحات الأخرى مثل : Impanation أو Consubstahtiation بمعنى الحضور المزدوج أو وجود شيئين في وقت واحد فكان لوثر يعتقد بحلول المسيح في الخبز والخمر ، وهذا الحل هو حلول ازدواجي وليس بدلي : بمعنى أن جسد المسيح لا يحل محل الخبز والخمر بعد أن يختفى هذان العنصران عندما ينطق الكاهن بالكلام الجوهري ، بل هو حلول ازدواجي بمعنى أن الخبز والخمر يظلان كما هما بدون تغير أو تحول والمسيح يحل فيهما . فهذه العملية تشبه عملية التجسد فإن اللاهوت لم يلاش الناسوت عندما حل فيه لكن حل كل ملء اللاهوت في الناسوت واحتفظ كل منهما بطبيعته^(٨) وبنفس الطريقة فإن الخبز يظل خبزاً والخمر يظل خمراً ويحل فيهما المسيح الذي نتاوله بالايان عند ممارسة فريضة العشاء الرباني .

ان ما كان يخشاه لوثر في مشكلة العشاء الرباني هو المفهوم الشعبي له وابعاد الناحية السحرية فيه . ففي كلامه عن المعمودية أو عن العشاء الرباني حاول ان يبرز بطريقة واضحة وصريحة بان فاعلية هاتين الفريضتين لا تنتج من ممارسة هذه الفرائض في حد ذاتها : أى أن فريضة الأفخارستيا لا تحمل في حد ذاتها النعمة أو الخلاص لكن فاعلية هذه الفرائض متوقفة



على موقف الشخص نفسه الذى يشترك فى الافخارستيا . أو فى العماد (إذ كان بالغاً) . فإن الفرائض لا تمنح الخلاص ولا حتى هى ضرورية له بل أن هذه الفرائض تمارس كدليل على ان الانسان الذى يمارسها ينبغي أن يكون قد حصل على الخلاص .

فاننا لا نشترك فى العشاء الربانى لانه يمنحنا الخلاص ويعطى لنا الحياة الابدية بل اننا نشترك فى العشاء الربانى لانه من المفروض أن نكون قد خلصنا بالايمان الذى هو عطية الله قبل أن نتقدم لتناول العشاء الربانى إذ أن يسوع المسيح هو الذى يستطيع بروحه القدوس أن يعمل فى الانسان وان يقوده الى الخلاص ، لا الفرائض والفاعلية فى مفهوم لوثر لا تتوقف على من يمارسها بل على من يقبلها . ومما لاشك فيه أن فاعليتها تتوقف على روح الله فى الانسان ، ثم على الشخص الذى يشترك بالايمان فى الفريضة ويرفض لوثر الطريقة المتبعة حتى الآن فى الكنيسة الكاثوليكية وهى تقديم الخبز فقط للشعب وحرمانه من الكأس* ويطلب بان الشعب يجب أن يشترك فى الكأس أيضا : لأن المسيح حاضر حقيقة وفعلا فى هذا الخبز المكسور وهذا الخمر كما أنه حاضر فى كلمته التى نطق بها . وهذا أمر فى غاية الأهمية .

الكتيب الثالث : الحرية المسيحية :

ذكرنا أن ميلتيتز (Miltitz) أراد مصالحة البابا مع لوثر ولم يفلح ، ولقد تألم جدا لتطور الأمور بينهما . على أنه لم ييأس قط ولذلك نراه يحاول مرة أخيرة لاجراء المصالحة بين الاثنين فاقترح على لوثر أن يرسل خطابا للبابا وبه نبذة صغيرة يشرح فيها ايمانه وعقيدته ، ثم اخلاصه وولائه وانتز المصلح هذه الفرصة وكتب فعلا هذا الكتيب الذى يدعى الحرية والمسيحية ، وقد كتبه وارسله الى البابا مع خطاب شخصي وهكذا نرى لوثر يمد يده مرة ثانية للبابا للمصالحة ولكن للأسف الشديد كان الوقت متأخراً إذ ان خبر قرار الحرمان كان قد انتشر فى كل المانيا وخارجها .

ولقد ظهر هذا الكتيب باللغة الالمانية واللاتينية ويشرح فيه لوثر مبدئين متناقضين هما :

(١) المسيحى انسان حر وسيد لكل الأشياء .

(٢) المسيحى خادم مطيع للجميع .

ولقد حاول لوثر أن يشرح أن الإنسان الذى حرره المسيح يسوع من كل خطاياہ وأثامہ أصبح حراً من الخطية وأصبح حراً أيضا من القلق والاضطرابات ومن الموت ومن الجحيم . والايمان بالمسيح يحرر الانسان بل يجعله ملكاً .

وهذا الانسان الذى حررته نعمة الله أصبح انساناً جديداً وخليقة جديدة . وهذه الخليقة الجديدة تنمر اثماراً صالحة . ان لوثر لا يرفض الاعمال الصالحة ، بل بالعكس أنه يشدد عليها

وعلى ضرورتها فى الحياة العملية واليومية لكنه يرفضها عندما يلتجئ اليها الانسان لكى يخلص بها ، فهو يقول : « إننا لا نرفض الاعمال الصالحة ولكننا نرفض فكرة أن الانسان فى استطاعته ان يخلص بأعماله الصالحة » (Greiner 88) فليست الأعمال الشريرة هى التى تجعل من الانسان انسانا شريراً أو رديئاً بل ان الانسان الشرير أو الرديء هو الذى يصنع الأشياء الرديئة وهذا يمكن تطبيقه ايضا فى موضوع البر والخلاص فليست الاعمال الصالحة هى التى تخلق من الانسان انسانا صالحاً وقديساً ، بل ان القديس هو الذى يعمل اعمالا صالحة . وهذا يعنى ان الانسان الذى لمستة نعمة الله وتجدد وتبرر بالايمان مجانا يصبح انسانا جديداً عاملاً وليس خاملاً .

لوثر يحرق قرار الحرمان

قابل بعض الكاثوليك ، أمثال آك واتباعه ، منشور البابا الذى هدد فيه لوثر واتباعه بالحرمان بفرح عظيم . بل دفعت بهم الحماسة فى بعض المدن والقرى الى جمع كتابات لوثر التى كانت قد انتشرت بسرعة عجيبة فى طول البلاد وعرضها والقائها فى النار . بل أن بعضهم كان يهدد باكثر من ذلك ، وعندئذ بدأ الخوف يدب فى بعض الضعفاء . اما لوثر فكان ثابت العزم قوى الارادة راسخاً كالصخر أمام هذه الامواج المتلاطمة .

وفى يوم ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٠ دعت هيئة التدريس فى فيتمبرج الأساتذة والأصدقاء وكل الذين يهمهم الأمر الى حضور اجتماع هام عام . ثم كلف بعض الطلبة باعداد حجرة كبيرة من النار . وخرجوا جميعا الى مكان خارج مدينة فيتمبرج كانت تحرق فيه عادة ملابس المرضى الذين أصيبوا بمرض الطاعون . وعندما وصلوا الى المكان تقدم لوثر أمام النيران المشتعلة والقى فيها أولاً كتب القانون الكنسى ثم المنشور الذى كان يحتوى على تهديدات البابا له بالحرمان وقال : « بما أنك أحزنت روح القدوس (يقصد يسوع المسيح) لتلثمك النيران » (دوينياه ٢٣٢ - ٢٣٧) .

وبهذا أعلن لوثر خروجه واستقلاله عن الكنيسة الكاثوليكية التى لم تقبل الاصلاح الداخلى الذى حاول المصلح القيام به . وردا على هذا الفعل أصدر البابا ليون العاشر فى يوم ٣ يناير (كانون الثانى) ١٥٢١ حرمانا ضد لوثر واتباعه وبذلك قصد أن يعلن أن لوثر اعتبر هرطوقيا ومرفوضا من الكنيسة .





هوامش الفصل الثالث عشر

1. E. Singmaster, P. 63-65.
2. G. Casalis P. 67, Daniel O. P. 145.
3. WAB, 415, 8, 422.
4. WA6, 369, 8, 420, 12, 158, 306.
5. Uilmos Vajta, Luther on Worship. 152.
6. Greiner 73-76, G. Casalis P. 67.

* لقد ترجم الكثيرون كلمة Sacrements بأسرار وربما يعتبر هذا خطأ ويستحسن أن نستعمل لهذه الكلمة اما اصطلاح فرائض أو طقس والافضل في نظرنا فريضة .

** ١ - فريضة الافخارستيا ٢ - العماد ٣ - التوبة ٤ - الشبث ٥ - الكهنوت ٦ - الزواج ٧ - المسحة
الانخيرة .

٧ - ميرون دوبينيه ٢١٨ ، D. Olivier 146 ،

ان استعمال الاصطلاح « استحالة » الذي تعود المفسرون في بلادنا العربية على استعماله يبدو لنا خطأ لغويا : فإن كلمة استحالة لغويا تعبر عن عدم امكانية حدوث الشيء أو استحالة . على سبيل المثال نقول بان هذا الامر مستحيل تنفيذه . ولذلك نفضل استعمال كلمة التحول أو التغير الكلي لكي نعبر به عن فكرة أن الخبز والخمر تحولا الى جسد ودم الرب يسوع .

8. WA 30, 1, 232, 388.
9. WA 6. 511.

* كانت الكنائس الكاثوليكية تعطي الكأس والخبز معا للعلمانيين ، ولكن المجمع الذي عقد في كنستانس Constance سنة ١٤١٥ قرر بان لا يعطى للعلمانيين الا الخبز فقط (Strohl. 206 Sa, Vie) .

** كتب لوثر كميات ضخمة جدا من التفاسير لا يمكننا ان نتعرض لها هنا لكثرتها وتشعبها . (ان ماترجم الى الفرنسية والانجليزية فقط ، من اعماله ينيف على مئة مجلد ورسالة) .

الفصل الرابع عشر

فورمس « بوثقة التجربة »

مات الامبراطور ماكسيمليان في ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٥١٩ وانتخب الدايت (مجلس الأمة) في ٢٨ يوليو ١٥١٩ حفيده شارل الأول ملك اسبانيا امبراطوراً للأمة الألمانية شارل الخامس وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره^(١) . وقد شعر شارل بثقل المسؤولية على كتفيه ، فهو صغير السن قليل الخبرة وأمامه امبراطورية ضخمة تعاني من مشاكل سياسية ودينية وطبقية وثقافية ... الخ ومن المشاكل التي كانت تتعرض لها المانيا في ذلك الوقت مشاكل الاصلاح مثل مشكلة الراهب الاغسطيني مارتن لوثر : وامام هذا الراهب انقسمت الامة . فالكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا والاساقفة وبعض المنتخبين يعلنون هرطقته ويطالبون بمحاكمته في روما ، وأما المنتخب فريديريك ملك ساكسونيا فيقف بجانبه يطالب بان يحاكم لوثر محاكمة قانونية في محكمة المانية . بل كما أن البعض امثال هيتين (Hutten) حاولوا استغلال ظهور لوثر لكي يشعلوا نار الثورة (Greiner 72) . ماذا يعمل الامبراطور الصغير أمام كل هذه المشاكل ؟ لقد كان فريديريك ملك ساكسونيا رجلاً حكيماً نزيها ويتمتع في الدايت بسمعة طيبة وبسلطان لاينافس . وقد وقف هذا الرجل بكل ثقله السياسي والديني والادبي والمالي في جانب لوثر .

وكان الملك فريديريك يخاف كل الخوف أن يسلم لوثر الى السلطات الرومانية ليحاكم في روما ولذا عرض على الامبراطور مشروع محاكمته في المانيا . ولابد أن الامير الذي حنكته السنوات وصاغته وصقلته التجارب السياسية والكثيرة ساق البراهين الكافية حتى يقبل الامبراطور أن يحاكم لوثر أمام مجلس الأمة . ويحتمل أن يكون الملك فريديريك قد أقنع الامبراطور الشاب بأن محاكمة لوثر الالماني في محكمة المانية أمام الدايت هي خطوة سياسية عظيمة يستطيع أن يبرهن بها على استقلاله عن سلطة روما وسيطرتها وخاصة ان الظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد كانت تحتاج الى حكمة سياسية حتى يشعر المواطنون بضرورة التخلص من السلطة الرومانية ومنعها من التدخل في الشؤون الألمانية الداخلية . زد على ذلك أن شارل كان يعتقد بأن البابا وفرانسوا الأول يدبران مؤامرة ضده في ايطاليا . وبهذا استطاع الملك فريديريك ان يحصل على وعد من الامبراطور في ٢٨ نوفمبر

(تشرين الثاني) ١٥٢٠ بأن يحاكم لوثر في المانيا^(١) وعلى رأسهم جبرم اليندر ثم يوحنا آك (Jean Eck Jerome Aleandreer) بتنظيم حركة مقاومة مناهضة للاصلاح فقد كلفا مع آخرين بنشر المنشور الذى يهدد بحرمان لوثر^(٢) كما أن اليندر استطاع هو ايضا ان يحصل من الامبراطور على إذن بحرق كتب لوثر وقام فعلا بحرق بعضها^(٣) فى بعض المدن .

كانت هذه الافعال التى قام بها الطرفان : من الجانب الكاثوليكي ومن جانب الاصلاح من العوامل التى ساعدت على تأزم الموقف . فعندما امر البابا بتهديد لوثر بالحرمان استغل بعض الاساقفة هذا الأمر أسوأ استغلال وقاموا بحرق كتب لوثر فى بعض المدن كما ان لوثر من جانبه قام بحرق منشور البابا الذى كان يهدده بالحرمان . وهذا الصراع وضع المانيا فى موقف خطير .. موقف انقسام وحرب وخراب ودمار . وكان كل من الطرفين يحاول أن يسيطر على الموقف . فكما حصل ملك ساكسونيا على وعد من الامبراطور بمحاكمة لوثر أمام الدايت فان اليندر ممثل البابا حاول هو ايضا الغاء هذا الوعد وقام اليندر فى ١٧ ديسمبر (كانون الثانى) ١٥٢٠ بكتابة تقرير الى البابا عن الحالة فى المانيا وينصحه فيه بأن يكتب الى الامبراطور متعهداً بأن يكون على استعداد لتأييد وتدعيم سياسة الامبراطور فى ايطاليا على شرط ان ينهي المعارك الدينية فى المانيا . وكان البابا يعرف أن الدايت (مجلس الامة) سوف يعقد جلساته فى شهر يناير (كانون الثانى) ١٥٢١ ولذلك فقد أصدر قرار حرمان لوثر بتاريخ ٣ يناير ١٥٢١ حتى يصبح نافذ المفعول عند موافقة الامبراطور على هذه الاتفاقية . وكما أن الملك فريدريك حصل على موافقة الامبراطور ان يحاكم لوثر امام الدايت فإن القاصد الرسولى اليندر قام هو أيضا بنشاط مكثف وسريع . فقد أوحى الى الامبراطور الشاب بأن المانيا تحتاج الى القوة والحزم فى اتخاذ القرارات وان الامبراطور يجب أن يتصف بهذه الصفات ويجب أن تقوم فى بداية حكمك بما يلفت الأنظار . وأن العمل الذى يستطيع به جذب انتباه شعبه هو ارسال لوثر الى روما ومحاكمته هناك^(٤) ولقد طلب أن يسمح له بالتحدث فى مجلس الأمة لكى يشرح موقف روما فى هذه القضية قبل مجلس الامة أن يتكلم الممثل الرسولى للبابا فى يوم ١٣ فبراير (شباط) ١٥٢١ . وكانت مهمة اليندر صعبة ومعقدة وحساسة إذ كان يجب عليه ان يبذل كل جهده فى اقناع مجلس الأمة ، ليس فقط بتسليم لوثر لكي يحاكم فى روما ، بل ان يثبت سلطان البابا الذى بدأ يهتز ويتزعزع فى المانيا . ولقد خطب القاصد الرسولى فى المجلس لمدة ثلاث ساعات^(٥) مبينا للمجلس أنه ليس من حق مجلس أمة زمنى التدخل فى شئون الكنيسة الروحية ، فليس من حقه ولا من اختصاصاته أن يتدخل فى الحكم على هرطوقي ، إذ انه غير مؤهل علميا للقيام بهذا العمل . وبعد أن قدم قائمة طويلة ليصف بها الهرطقات العديدة التى نادى بها لوثر . قدم قائمة أخرى ليصف بها الاعمال الثورية التى تبينها اتجاهات هذا الراهب وتبين مدى خطورته لا من الناحية الدينية فقط بل من الناحية السياسية أيضا

وقال انه يريد قلب الأوضاع القائمة . إذ انه لا يقبل ، سلطان البابا أو سلطان المجمع أنه يوحنا هس الجديد .

وطلب من مجلس الأمة ألا يضيع وقته الثمين في مناقشة هذا الامر الذى سبق قداسة الآب ليون العاشر وأصدر حكمه فيه . بحرق كتب هذا الهرطوق وحرمان كل من يتبع مذهبه . بعد هذا الخطاب الطويل البليغ انقسم أعضاء المجلس فقد رأى البعض أن لوثر يجب ان يحاكم أمام مجلس الأمة والبعض الآخر رأى أن يرسله الى روما . وبعد ستة أيام من تاريخ هذا الخطاب قرر المجلس أن يحضر لوثر الى فورمس لكي يحاكم أمام مجلس الأمة (الدايت) . وطلب الامبراطور من الامير فريدريك أن يرسل دعوة للوثر ، إذ أنه واحد من رعاياه . على ان الملك التمس من الامبراطور أن يقدم هو نفسه الدعوة بصفته امبراطور الامبراطورية مع ارسال ضمان الأمان فى الذهاب والعودة .

وفى يوم ٦ مارس (آذار) أرسل الامبراطور بنفسه الى لوثر دعوة لحضور مجلس فورمس معنونة هكذا : « ايها المحبوب المكرم التقى الدكتور مارتن لوثر » ولقد حدد له فى هذه الدعوة ٢١ يوما للحضور وقبل ان تصل الدعوة الى لوثر فى فيتمبرج فى ٢٦ مارس (آذار) سارع صديقه سيالاتين سكرتير ملك ساكسونيا فأخبره بالأمر .

لقد سيطر الخوف والقلق والانزعاج على معظم الأخوة فى فيتمبرج . ولما علم أصدقاء لوثر فى كل مكان بخبر ذهابه للمحاكمة تذكر الجميع قصة يوحنا هس وذهابه للمحاكمة فى تنستانس وكيف أنه حكم عليه بالموت حرقاً ، وتم حرقه فعلاً بالرغم من ضمان الأمان الذى سلمه له الامبراطور سييجيسموند (Sigismonad) .

كان لوثر واصدقاؤه يدركون هذا الخطر كل الادراك لذلك حاول اصدقاؤه بكل الوسائل أن يمنعوه عن الذهاب الى فورمس فقال لهم بصوت يملؤه الايمان العميق : « ساذهب الى فورمس ولن أترجع حتى لو أصبح عدد الشياطين هناك اكثر من عدد قطع القرميد فوق سطح المنازل » . وبدأ يعزى اصدقاؤه بالقول : « إنهم استطاعوا قتل يوحنا هس ولكنهم لم يستطيعوا قتل الحقيقة ولكن الامر الذى يحتمل حدوثه هو استعمال القوة والعنف ضدي لأنهم لم يستدعوني الى فورمس ليتعلموا . على أى حال فاني قد وضعت نفسى بين يدي الله (Greinp-H 101) وفى يوم الأحد الموافق ٣١ مارس (آذار) قام بخدمة عيد القيامة فى كنيسة فى فيتمبرج وكان موضوع حديثه « النعمة والحرية المسيحية » ثم ودع أعضاء كنيسة المحبوبة . وفى ٢ ابريل (نيسان) قدمت له مدينة فيتمبرج عربة لكي يذهب بها الى فورمس وقبل رحيله التفت الى الشاب النشيط العالم وقال له : « ميلانكثون أيها الأخ العزيز إذا اصابني مايريده الاعداء فواظب أنت على التعليم واثبت على الحق » (دوينياه ٢٣١) .

حاول ملانكتون الذهاب معه الا انه رفض بشدة ولكن ثلاثة من الاخوة اصرروا على الذهاب معه وهم يوحنا وبيترستايز (Jean Petzensteiner) وهو راهب اغسطيني وصديقه وزميله أمسدورف (Amsdorf) وشاب من النبلاء وهو الطالب بيير سوابفن (Pierre Swaven) وكانت عربة مندوب الامبراطور ويدعى كاسبارد ستورن (Casparo Sturn) تتقدم عربة لوثر .

ولقد نظمت له المدن التي مر بها استقبالات مختلفة حسب قبولها أو رفضها لتعاليمه . فمدينة فيمر (Weimar) علقت بعض الاعلانات تطالب بحرق كتب لوثر كما خرج شعبها صارخا في وجهه قائلا ليحرق مثل هس . أما مدينة أرفورت خرجت عن بكرة أبيها في موكب عظيم ضخيم يتقدمه عميد الجامعة واربعون من الفرسان لاستقباله ووعظ في كنيسة يوم الاحد الموافق ٧ ابريل (نيسان) ولقد انهار الطابق العلوي من الكنيسة لكثرة الشعب ولكن لم تحدث أية أضرار للحاضرين . وقال لهم لوثر : « لا تضطربوا فإن الشيطان يحاول أن يظهر نفسه » وهكذا واصل رحلته وقد توقف قليلا في مدينة ايزناخ ثم فرانكفورت حيث استقبل استقبالاً رائعاً . اما في مدينة نورمبورج (Nourmburg) فقد خرج كاهن واقترب من عربة المصلح وقدم له في صمت وبدون أى تعليق صورة سافونارولا (Savonarole) التي كان يعتز بها وقد علقها على حائط حجرته .

بعد هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت اكثر من اربعة عشر يوما وصل لوثر أخيرا الى مدينة فورمس وكان وقت تناول طعام الغداء . وعندما بوق حارس برج الكاتدرائية معلنا وصول الهرطوقي ترك الناس موائد الغداء وخرجوا لكي يروا لوثر الهرطوقي الذي سمعوا عنه الكثير . ولقد جاء اعضاء البلاط الساكسوني لاستقباله واحاط به اكثر من مئة فارس .

وكتب ليندر في هذا الوقت تقريرا الى روما لكي يصف تطور الاحوال ذكر فيه ان الأحوال تغيرت والشعب لا يتكلم الا عن لوثر وقد انتشرت كتبه في كل المكتبات بل ان صورته قد ظهرت على احدى النبد وقد احاطت بها هالة من المجد . ويصرخ ٩٠٪ من الناس قائلين : عاش لوثر اما الـ ١٠٪ فيصرخون : الموت لروما^(٧) . ولاشك ان هذا التقرير فيه شيء من المبالغة ، لكنه يحتوي على الكثير من الحقيقة .

وصل لوثر الى ورمس في يوم ١٦ ابريل (نيسان) واستقبل استقبالاً عظيماً وكان يقوم بحراسته بصفة مستمرة فارسان من فرسان الملك فردريك . وعندما نزل لوثر من عربته قال : « الله معي » ولقد جاء لزيارته كثيرون مكثوا معه الى ساعة متأخرة من الليل .

وفي يوم ١٧ ابريل في الساعة ١٠ صباحا جاء رسول من قبل الامبراطور لكي يخبره بان مجلس الأمة (الدايت) سيستمع له في نفس اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر . وفي الميعاد

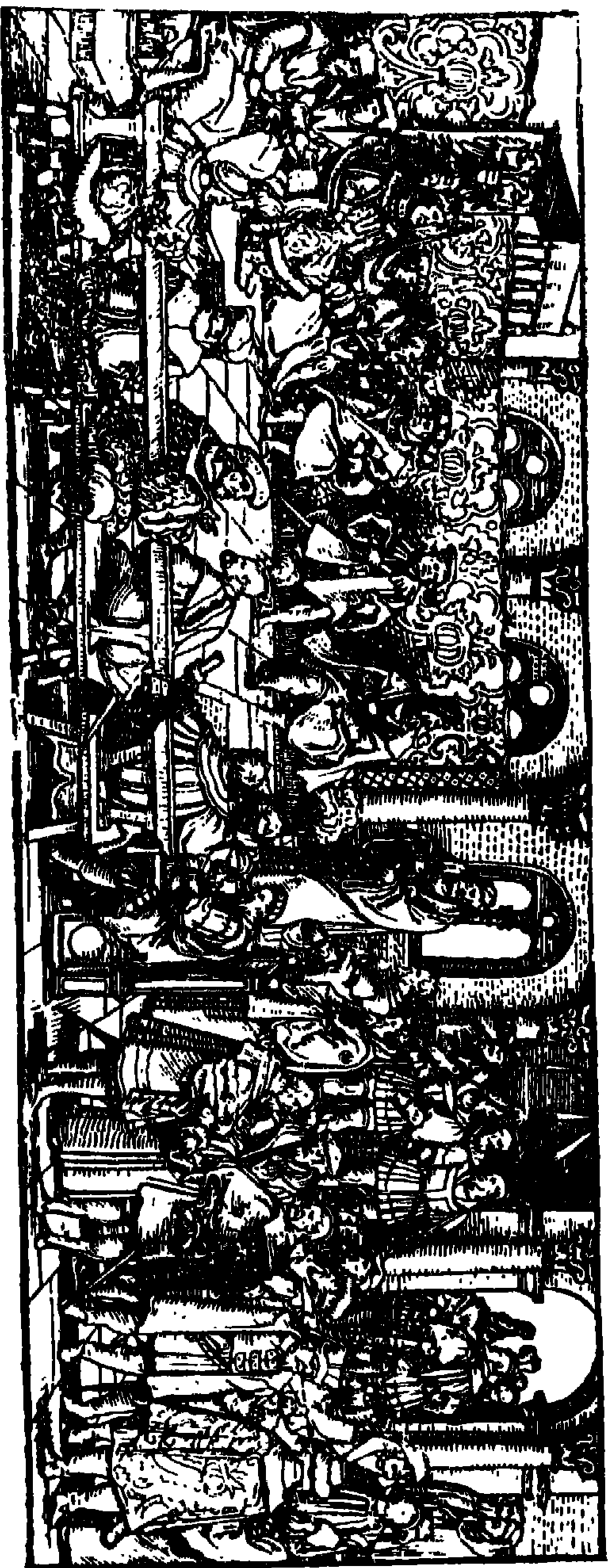
جاء مندوب الامبراطور مع الحرس لاصطحاب لوثر الى مكان الاجتماع . وكانت الشوارع قد اكنظت بالجماهير لدرجة انه لم يكن من السهل المرور فيها . ولذلك فقد اضطروا للسير في شوارع جانبية داخلية وفي بعض الحدايق الخاصة للوصول الى مكان الاجتماع . وعندما وصلوا اليه كان عليهم ان ينتظروا مع الجماهير الى ان ينتهى المجلس من مناقشة بعض المواضيع الأخرى .

ولما دقت الساعة السادسة مساء . فتحت الابواب ودخل لوثر وفجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام اكبر واعظم وأقوى هيئة حاكمة متسلطة في ذلك الوقت . فقد وجد امامه الامبراطور شارل الخامس وأخاد فرديناند رئيس الأمراء وستة من الملوك المنتخبين وأربعة وعشرين دوقا .. وثمانية من الشرفاء وثلاثين من رؤساء الأساقفة والاساقفة ورؤساء الأديرة وسبعة من السفراء : منهم سفير ملك فرنسا - وسفير انجلترا ونواب عشر مدن حرة وعدد آخر من الأمراء والشيوخ والبارونات العظماء ومندوبى البابا . وقد بلغ عددهم اكثر من مئتين (ميرل دوبينيه ٢٧٨) .

امام كل هؤلاء وقف لوثر الراهب الفقير ابن الفحام طلب الملك فريدريك من مستشاره القانونى وهو جيروم شورف (Jerome Schurf) بان يكون قريبا من لوثر لمساعدته . ولقد نصح هذا المستشار لوثر بأن لا يتكلم الا إذا سئل . وكان المكلف بادارة هذه المناقشة كاتب رئيس أساقفة تريف (Trèves) يوحنا آك (Jean De Eck) * .

ووقف جون آك ونظر الى مجموعة من الكتب فاقت العشرين كتابا وقد وضعت أمامه على المائدة وقال « يامارتن لوثر هل تعترف بأنك انت الذى ألقت هذه الكتب ؟ وهل انت على استعداد ان تتراجع عن الأقوال التى خطتها يدك أم أنك مصر على التمسك بها ؟ » . وقبل أن يفتح لوثر فاه لكي يجيب على السؤال الأول طلب المستشار القانونى جيروم شورف بان تقرأ على الأقل عناوين الكتب المشار اليها . فقرئت العناوين واجاب لوثر بانه كاتب هذه الكتب التى قرئت عناوينها وكتب اخرى أيضا لم تذكر . فقال جون آك ، « هل انت مستعد أن تتراجع عما كتبته فى هذه الكتب ؟ » فاجاب لوثر بأن هذا الامر فى غاية الخطورة ويحتاج الى تفكير عميق وعندئذ وجه كلامه الى الامبراطور قائلا التمس من جلالتك أن تمنحونى وقتا للتأمل والتفكير . وبعد الاستشارة منحه الامبراطور يوما للتأمل . وقال الامبراطور لمن كان على يمينه « لا يمكن أن راهبا مثل هذا يغوينى للهرطقة » (Bainton 140) .

خرج لوثر من هذا المحفل وانطلق الى فندقه وكان الليل طويلاً والصراع فى الصلاة عنيفا . هل نام قليلا أو كثيرا فى تلك الليلة لا نعلم بالضبط ولكننا نعلم انه فى نفس الساعة فى اليوم التالى كان يمثل امام نفس الهيئة .



وقف جون آك وسأله قائلا : « هل انت مستعد بان تتراجع عما فى هذه الكتب التى قرئت عناوينها على مسامعك البارحة ؟ فبدأ الراهب الأغسطينى يقدم أولا اعتذاره للامبراطور وللملوك وللرؤساء لجهله بالألقاب لأنه لم يترب فى بيوت الملوك والعظماء بل فى عائلة فقيرة وفى دير للرهبان ، ثم قال اما فيما يختص بهذه الكتب التى ألفتها فهى تنقسم الى ثلاثة انواع :

١ - النوع الأول :

كتب عاجلت مواضيع خاصة بالايان المسيحى والاخلاقيات ولقد قبلها الكثيرون لا من اصدقائى بل حتى من الذين يختلفون معى فى رأى فكيف يمكنى ان انكر كتبنا اعترف بفائدتها العدو والصديق ؟ .

٢ - النوع الثانى :

هى الكتب التى هاجمت فيها البابوية والباوبيين الذين افسدوا المسيحية وان الكثيرين شهود لذلك بل ضحية لهم . فان تراجعت عن هذه الكتب فإنى أشجع الظلم والطغيان . فكيف يمكنى أن اتراجع عن ذلك !!؟ .

٣ - النوع الثالث :

كتب احتوت على نقد شديد ضد الاشخاص الذين اشتركوا فى أعمال الظلم والعدوان وأنا اعترف بأنى كنت شديدا فى أسلوبى قاسيا فى نقدى ، فارجوا معذرتى واعتقد أنى كنت أدافع عن عقيدة هامة . وعندما أدافع عن العقيدة فإننى لا أدافع عن نفسى بل عن الحق الإلهى .

وهل يمكنى أيضا أن اتراجع عن الحق الإلهى !!؟

وانا اناشدكم أيها الامبراطور المعظم والملوك الكرام بل اسألكم جميعا أن تبرهنوا لى من الكتب المقدسة على خطئى. وأنا سأكون أول من يقوم بطرح هذه الكتب فى النار وان كنت قد أخطأت فعرفونى بخطئى ؟ ثم انهى خطابه بكلمات وجهها الى الملوك والامبراطور على وجه الخصوص أن يحذر من أن يبدأ ملكه بسفك الدماء أو العنف ، وان سفك الدماء يجلب سفك دماء اكثر واغزر فاحترسوا من ذلك . فالعنف يولد عنفا اشد وسفك الدماء يؤدى الى سفك دماء اخرى .

وكان لوثر يلتقى خطاب باللغة الالمانية وكان التعب قد اخذ منه وظهر عليه الارهاق والضعف عندئذ رفع واحد من الحاضرين صوته قائلا « كفى يادكتور مادمت تشعر بالارهاق » ، لكنه بدأ من جديد يعيد خطابه باللغة اللاتينية لان الامبراطور لم يكن يعرف الألمانية . وبعد أن انهى المصلح خطابه التاريخى العظيم باللغة اللاتينية قال له جون آك : « ايها الأخ مارتن لقد تكلمت كثيرا ، وفى كلامك قد تمسكت بهرطقات قد سبقت الكنيسة

وحكمت بيطلائها . وهذه المرطقات التي تكلمت عنها سببت مآس كثيرة للشعب الالماني واننا على أى حال لا نريد النقاش هنا . ولكن كل مانطلبه منك باسم الامبراطور : هل انت مستعد بان تتراجع عن تعاليمك المذكورة فى هذه الكتب اننا نريد منك جوابا واضحا وصرىحا وعندئذ قال لوثر « بما أنكم تطلبون منى اجابة واضحة وصرىحة فهذه هى اجابتي : أن لم تقنعونى ، من الكتب المقدسة ، لا يمكننى ان اراجع لان ضميرى لم يعد يخضع بعد ، لا للباباوات الذين حكم بعضهم على بعض ، ولا للمجامع التي ارتكبت أخطاء وحكموا بعضهم على بعض أيضا . فإن ضميرى لا يخضع الا للكتب المقدسة . ولذلك لا يمكننى ان اراجع لانه ما اخطر ان يتصرف الانسان ضد ضميره . وهذا ما أؤمن به فليعنى الرب^(٨) آمين .

وقف الامبراطور مذهولا مندهشا من شجاعة لوثر وتأثير كلمات هذا الراهب ثم قال : « رفعت الجلسة ... » عندئذ رفع الحاضرون اصواتهم . فكن البعض يصرخ قائلا انه شيطان يجب ان يقتل والبعض الآخر يقول انه مجرم وثائر ضد الله وضد السلطة الحاكمة ، والبعض الآخر يقول انه نبي ، ان الله يتكلم على فمه . اما لوثر فقال : « لم يكن من الممكن ان افعل غير ذلك فليكن الله فى عونى » .

وعندما خرج من القاعة التف حوله الجند واصطحبوه الى حجرته فى الفندق وجاء خادم يحمل له بعض المرطبات وقال له تفضل واشرب هذا المشروب وانعش نفسك ، فان مولاي الامير ذاقه بنفسه ويقدمه لك ، لانه أعجب اعجابا عظيماً بخطابك الرائع . فشرب لوثر وطابت نفسه وشعر أنه اجتاز فعلا الامتحان فى بوثقة . ولكن اين سيذهب الآن ؟ ماهو مصيره ؟ .

كانت مدينة فورمس ثائرة تغلى . رسم بعض المتطرفين صورة هزلية لمثل البابا وقد علق من رجله بعد شنقه ، بل وصلت الجرأة بأحدهم حتى وضع اعلانا فى حجرة الامبراطور نفسه مكتوبا عليه : « ويل لبلد يحكمه طفل ... » .

وفى وسط هذه الاضطرابات والانزعاجات حاول الامبراطور حسم الأمور بحزم وشدة . ففى يوم ١٩ ابريل (نيسان) أصدر منشوره الامبراطورى مكتوبا باللغة الفرنسية وأعلن فيه بأنه حفيد الاباطرة وحفيد الملوك اسبانيا والنمسا وبورجونى* العظماء الذين شهدوا بأيمانهم وكثلكتهم فى حياتهم وأنه سيسير على منوالهم مقاوما ومطارداً ومحاربا كل المبتدعين .

بالرغم من شدة لهجة هذا المنشور فقد تمسك الامبراطور بوعده ولم يسحب من لوثر صك الايمان وسمح له بالرجوع الى فيتمبرج .

رجع بعض الملوك والامراء الى بلادهم وخاصة الذين كانوا يؤيدون لوثر . وانتهر اليندر

هذه الفرصة وقدم الى الامبراطور مرسوما ليوقعه يتكلم فيه بلسان الامبراطور قائلا : « تمسكا بوعدنا الامبراطورى ، فقد أعطينا لوثر الهروطوق الأمان للعودة الى فيتمبرج ، ولكن بعد انتهاء مدة هذا الصك نأمر بأن يقبض عليه وأن يسلم الى السلطات المختصة لكي يحاكم ، لانه شيطان فى صورة انسان . وسنعطى مكافأة لمن يقوم بهذا العمل المقدس العظيم . كما يجب معاملة أتباعه أيضا بنفس الطريقة . أما أموالهم فهى حلال لكم وغذوا النار بكتب لوثر لانها ممنوعة من الطبع والنشر والقراءة .. » .

قدم اليندر هذا المرسوم الى الامبراطور فى كاتدرائية فورمس بعد القداس ، ووقع عليه فى يوم ٢٥ مايو (أيار) سنة ١٥٢١ ثم جعل تاريخه مايو^(٩) كما لو كان الامبراطور قد وقع على هذا المرسوم قبل أن يغادر معظم الامراء المدينة .

أما لوثر فقد غادر مدينة فورمس فى ٢٦ ابريل (نيسان) عائداً الى فيتمبرج ، ولكنه لم يصل اليها . ففى الطريق . وبالتحديد بالقرب من التنستين (Altenstein) فى منطقة تورنج (Thuringe) هجمت عليه ومن معه جماعة مكونة من خمسة فرسان ، وقبضوا عليه ووضعوه على فرس واختفوا به فى الغابات الكثيفة الضخمة . وعندما رجع بتزنستينر وامسدورف ويعقوب اخو لوثر وسائق العربة انتشر خبر اختفاء لوثر بسرعة البرق . وبكاه كثيرون بكاء مرأ .

ففى يوم ١٧ مايو (آيار) كتب الرسام البرت دورر (A. Dürer) فى مذكراته اليومية قائلا : هل هو حى بعد ؟ هل اغتالوه ؟ اننا نجهل مصيره تماما . فإن كان قد اغتيل فانه قاسى الموت لأجل الحق المسيحى .. ايها الاله العظيم اعطنا من جديد انسانا شبيها بهذا الانسان المتلىء بروحك ، لكي يجمع البقية الباقية من الكنيسة ويعلمنا أن نحيا كمسيحيين .. »^(١٠) ولقد اذاع البعض بان جثة لوثر وجدت فى منجم للفضة . كما انتشرت قصص أخرى كثيرة .. وحقيقة الامر كان يعرفها جيدا الملك فردريك وكاتم سره سبالاتين ، فإن الملك قد دبر أمر اختطاف لوثر واخفائه لانه كان يعلم بالخطر الذى كان يهدد حياته . واعتقد البعض بان الملك قد دبر هذا الامر ووافق عليه الامبراطور شارل الخامس^(١١) .



هوامش الفصل الرابع عشر

2. Daniel Olivier P. 158-165; Greiner P. 98.

Strohl 1N144 Sa Vie

3. R. Bainton P. 120-129.

4. Daniel Olivier P. 156.

5. Strohl 143.

كل الوثائق التاريخية الهامة الخاصة بموضوع فورمس والمحاكمة موجود في المجلد السابع لدار نشر فيمر . 70
Vol. De L'edi. Weimer

6. Daniel Olivier 160-165, Strohl Sa Vie 145,

ميرل دوينيا ٢٥٧ - ٢٥٩

7. Strohl Sa Vie 150, Greiner 38, Bainton 130.

* ليس هو يوحنا آك الذي قام بالحوار ضد لوثر في مدينة ليبزج (ميرل دوينيا ٢٧٨. Bainton 142.)

* بعض المؤرخين يعتقد بأن لوثر قال : « وهذا ما أؤمن به فليعني الرب ، وها انا اقف ، على أن البعض الآخر يعتقد بان هذه الجملة الاخيرة اضيفت فيما بعد . (اضافها التقليد الانجليي) .

8. Greiner 106-108, D. Olivier 174-183, Bainton 137-145, Kostline 91-106, Singmaster 78-82, D. Hourticq 55-62, Strohl Sa vie 143-166.

د . عزت زكي ٥٣ - ٦٥ ميرل دوينيا ٢٤٧ - ٢٨٥ ، دكتور القس ليب مشرق ، حديث مع لوثر ، ص ١٠٢ - ١١٨ .

* بورجونى (Bourgoghe) مقاطعة من مقاطعات فرنسا .

٩ - دوينيا ٢٩٥ - ٢٩٩ ، Strohl. 158.

10. Singmaster 82-83, D. Olivier 193-200

11. G. Casalis 73

• هذا مايعتقده جورج كازليس

الفصل الخامس عشر

قلعة الفارتبوج والفارس جورج (LA. Wartboug)

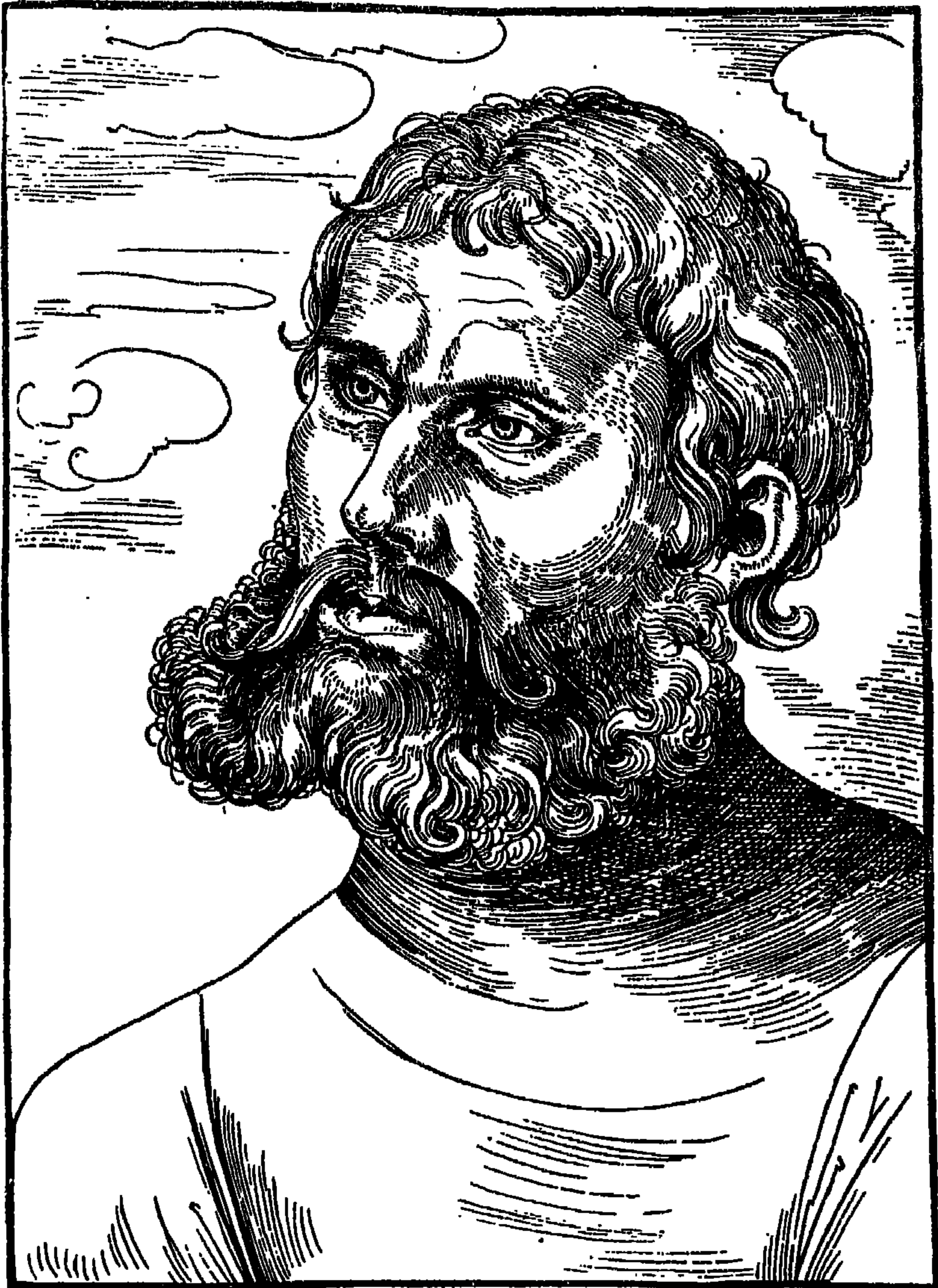
بعد أن قطع الفرسان مسافة طويلة في وسط الغابات المظلمة الكثيفة ، وبعد أن أرخى الليل سدوله وصل الفرسان الخمسة مع الراهب الأغسطيني المخطوف الى قلعة حصينة شائخة وكأنها برج قد بنى لمراقبة كل ما يحدث في قلب الغابة المظلمة الواسعة المترامية الأطراف . وقبل أن يقرعوا الباب ، فتحت أبواب هذه القلعة ودخل الفرسان والراهب . فقادوه الى شقة صغيرة تحتوى على حجرتين . وهناك قال له واحد من الفرسان ، مرحبا بك أيها الفارس جورج في هذه القلعة ، فمن الآن اسمك جورج ومن الآن ايضا ممنوع الخروج من هذا المكان الا بعد أن تطول لحيتك وينبت شعر رأسك المخلوق مستديراً ثم أعطى له ملابس فارس وسلسلة ذهبية التي كان يلبسها الفرسان في ذلك العصر . وخلع الراهب ثياب الرهبان ولبس ملابس الفرسان ، وتركوه وحيدا منفرداً .

وعندما استيقظ لوثر في الصباح ، والقى نظره من نافذة حجرتة على الغابة الممتدة حول هذه القلعة المرتفعة ، تذكر أيام صباه تذكر اضطراباته وقلقه ، وكم من المرات قد عبر هذه الغابة ، إذ أنها لا تبعد كثيراً عن ايزناخ (Eisenach) حيث كان يسكن بعض أقاربه نعم لقد قطع اميالا كثيرة على قدميه في هذه الغابة .

كتب لوثر حالا الى كثيرين من اصدقائه واحبائه حتى يعرفهم بحقيقة الأمر . اما الذين كانوا يقومون بخدمة الفارس جورج فكانوا يهتمون به كل الاهتمام ويبادرون لخدمته والعناية به ، فزاد وزنه بل انه تعرض مرات عديدة للمرض لانه لم يكن معتادا على هذه الراحة وكثرة الطعام .

على ان هذا لم يكن كل ما كان يقوم به الفارس جورج في هذه الفترة . فمع انه أبعد عن الوعظ والتعليم ، غير انه لم يكف قط عن الوعظ والتعليم مع انه كان وحده وفي شقته الصغيرة . فلقد شعر لوثر بانه مدعو لا لهدم الاباطيل والخرافات فقط . بل كان عليه ان يعلم التعليم الكتابي الصحيح للبناء . ولذلك فقد ألف في هذه الخلوة مجموعة من العظات تغطي أيام أعياد ومواسم السنة كلها . لكي يستخدمها الرعاة الذين يرغبون في تقديم الانجيل بطريقة جديدة وسهلة لاعلان كلمة الله . ولقد استعمل فعلا كثيرون من الخدام الانجيليين

Zuthrus



هذه العظات كنماذج لعظاتهم في القرن السادس عشر . لا بل ان المصلح بوسر (Bucer) ترجم هذه العظات الى اللغة اللاتينية لمساعدة الانجيليين في فرنسا .

بعد ان أنهى هذا العمل بدأ في عمل جديد آخر شعر بان الكنيسة كانت في حاجة اليه ايضا وهو ترجمة الكتاب الى اللغة التي يتكلمها الشعب - أى اللغة الالمانية . نعم لم يكن لوثر هو أول من قام بترجمة العهد الجديد الى لغة الشعب ، فعندما شرع لوثر في هذه الترجمة كانت هناك اربع عشرة ترجمة المانية للعهد الجديد ، لكنى اغلب هذه الترجمات كانت مترجمة عن الفولجاتا اللاتينية . ولذلك فقد جاءت ركيكة في اسلوبها ، صعبة في لغتها ومفرداتها و كانت تحتوى على جمل وصيغ لاتينية . أما لوثر فقد قام بترجمة العهد الجديد من اللغة اليونانية مباشرة . ولقد احسن في انتقاء الكلمات وابدع في اختار اسلوب سلس متناسق مترابط . ولقد بدأ في هذا العمل في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢١ ونشر العهد الجديد في اللغة الالمانية في شهر سبتمبر (ايلول) ١٥٢٢ ولقد استمر في هذا العمل بعد خروجه من القلعة حتى انهى ترجمة الكتاب المقدس كله في سنة ١٥٣٤ على انه كان يضيف في كل طبعة جديدة في كل سنة بعض التصحيحات للترجمة السابقة^(١) وواظب على هذا العمل طيلة حياته . ولقد ساعده كثيرون في هذا العمل العظيم وخاصة ملانكثون . كما ألف أيضا اثناء اقامته في القلعة بعض العظات عن الرسائل . ثم كتب بعض المقالات ليعالج فيها موضوع النذور الرهبانية كما كتب مقالات عن القداس ، ثم كتب بعض المقالات لكي يرد فيها على معلمى باريس ولوفان (D. Olivier, 198) .

وبينا كان الفارس جورج منهمكاً في الكتابة من ترجمة وتأليف وصلت اليه أخبار كثيرة تنبئ بسوء الحالة في فيتمبرج . لقد ترك لوثر كنيسة وكلية فيتمبرج كنبئة صغيرة لا تقوى على مواجهة العواصف الشديدة والرياح العاتية . ولقد هبت فعلا هذه الرياح القوية على الكنيسة والكلية .

كان الشاب العلامة ملانكثون عميقا في ابحاثه متبحرا في دراساته وفي محاضراته متواضعا في حياته وتصرفاته : كان كأليشع بالنسبة لايليا . ولكن بجانب هذا كان يوجد عدد كبير من امثال جيحزى ٢ مك ٥ : ٢٠ الذين كانوا يسعون الى مجد الله بشرط تمجيد انفسهم ايضا فلقد ظهر عدد كبير من القادة والمعلمين الوعاظ والمبشرين مثل كارلستادت (Carlstadt) الذى كان يعتبر نفسه كالرئيس الروحي لفيتيمبرج بعد غياب لوثر (Hourticq, 64, D. Oliver, 199) .

ومما لا شك فيه بانه كان تقيا مخلصا ولكن بالرغم من تقواه واخلاصه كان في بعض الأحيان ميالا الى المجد الذاتي . لقد عاش عدة سنوات كظل للوثر وعندما اختفى المصلح

اصبح الظل حقيقة . لم يكن هذا هو ما حدث في حياته الجامعية وفي الحوار ايضا الذى استمر اكثر من اسبوعين في مدينة ليبزج ؟ كان كارلستادت يريد أيضا تغييرا سريعا وجذريا دون دراسة للظروف . لذلك فقد قام في أحد أحاد شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢١ بممارسة العشاء الربانى مقدما الخبز والخمر ، كما علم لوثر ولم يكن الشعب معتاداً على هذا التغيير الجذرى وفي يوم عيد الميلاد قام بعمل القداس باللغة الالمانية لا باللغة اللاتينية كالمعتاد . بل انه ذهب أبعد من ذلك في عملية التغيير الجذرى . فقد فكر في الغاء الأديرة وانحلت فعلا جمعية الرهبان الاغسطينية في فيتمبرج في يناير (كانون الثانى) ١٥٢٢ لا بل اراد ارغام الرهبان على الزواج . وفي ٢٤ من نفس الشهر وزعت ممتلكات الأديرة لمساعدة الكنائس واستخدامها في المشاريع العامة . والبعض الآخر وزع على بعض الامراء . كما أنه الغى بعض التقاليد الكاثوليكية السائدة مثل الصور والتماثيل والملابس الكهنوتية . وفي شهر فبراير (شباط) قام بمظاهرة واشترك معه شعب المدينة بالمنادة بالحكم الديمقراطى .

وعندما علم لوثر بهذا كتب الى اصدقائه والى كثيرين من المسئولين بايقاف هذه الاعمال . وكتب كتيباً صغيراً بعنوان « النذور » وقد اهداه الى أبيه ، وشرح فيه ان الشخص الذى يعتقد بانه يستطيع ان يحصل على الخلاص أو ينال استحقاقات خاصة لانه اصبح راهبا فهو في ضلال مبين^(١) ولكن كل شخص يتمتع بالحرية الكاملة أن يختار الرهبة أو يحيا في العالم . ولا يرغب أحد على ان يدخل الدير أو أن يخرج منه . ليحيا كل انسان حسب الحرية التى منحت له في المسيح .

ان رجل القرن العشرين قد لا يجد أى تطرف في افكار كارلستادت أما لوثر فمع انه كان مشغولا هو ايضا بنفس هذه الافكار التطورية بكل فهم وعمق ولكنه كان يرى من الحكمة اختيار الوقت والمكان المناسبين للمناداة بأفكاره الجديدة .

لم يدرك كارلستادت أن الوقت غير مناسب لهذه التغييرات وهذا ما كان يخشاه لوثر لأنه كان يدرك تمام الادراك أن الشعب لم يكن معداً الاعداد الكافى لهذه التجربة الجديدة مما يعرضه لتيارات مختلفة . وهذا ما حدث فقد انطلق كثيرون وراء حركة النهضة التى قام بها بعض الفلاحين والعمال والنساجين البسطاء لا بل الجهلاء الذين جاءوا من مدينة زويكاو (Zwickau) الذين اعتبروا انفسهم أنبياء مهملين من الروح القدس مباشرة . فلا حاجة لهم إذن للكتاب المقدس ولا للتعالم ولا للدراسة ولا لنظام كنسى أو إدارى ، لأنهم قالوا ان الروح القدس هو الذى يرشدكم فى كل شئ وفى كل ظرف بطريقة مباشرة . ولقد شجعهم كارلستادت كثيراً ، ورأى فيهم برهانا عملياً على عمل الروح القدس ونادى بالخضوع لهم والسماع لنبواتهم وارشاداتهم لانه كان يعتقد بأن الروح يهب حيث يشاء^(٢) . اما ملانكثون فقد كان حديث السن لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد ولم يقو على مقاومة الاستاذ

كارلستادت^(٤) وعلى الذين جاءوا من الشمال من مدينة زويكاو مبشرين بقلب النظم القائمة وعدم عماد الاطفال ... الخ . ج

وصلت هذه الأخبار المحزنة المؤلمة الى لوثر وشعر بأن الاصلاح كان مهدداً فعلاً بالانزلاق الى الفوضى وعدم النظام ويحتمل انه ذهب سراً في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٢١ دون أن يخبر بذلك الملك فردريك ، الى مدينة فيتمبرج وتقابل مع ملانكثون ومع بعض القادة واطلع على حالة الكنيسة هناك^(٥) .

وفي شهر فبراير (شباط) ١٥٢٢ كتب لوثر الى الملك فردريك يعرفه بأنه سيرجع الى فيتمبرج حتى لا يشغل الملك بأمره . ويرد الملك فردريك الى الفارس جورج طالباً منه ان لا يتحرك من القلعة . وبالرغم من ذلك فإن الفارس جورج ترك القلعة ، ثم كتب خطاباً رقيقاً في غاية النبل يشكر فيه الملك على عنايته به وعمل كل ماقدمه له . ولكنه يعتبر نفسه من تلك اللحظة في حماية سيد أقوى واعظم منه بل طلب من الامير ايضا ان يحتوى هو نفسه في ظل هذا السيد .

ترك الفارس جورج قلعة الفارتنبورج في أول مارس (آذار) ١٥٢٢ وكان قد دخلها في يوم ٤ مايو (آيار) ١٥٢١ .

هوامش الفصل الخامس عشر

1. Strohl Sa vie 160-165-
2. Strohl, 166-172.
3. R. Bainton, 152-158, Greiner, 120-130.
4. Strohl, 166.
5. D. Hourticq, 65-67.

میرل دوبینیاہ ۳۶۷ - ۳۶۹

الفصل السادس عشر

عودة المصلح الى فيتمبرج

وفي اليوم التالى لوصوله استقبلت مدينة فيتمبرج - شعبا وجامعة - المصلح استقبالا حاراً لكى تعبر له عن المحبة العميقة والتقدير العظيم والولاء الكامل ولقد كتب لوثر خطابا ثانيا رسميا الى الملك فردريك يعرفه فيه بأنه قد رجع الى فيتمبرج بمحض ارادته ونزولا على رغبة شعب المدينة وكان الملك حكيما وسياسياً ، فأمر بنشر صورة من هذا الخطاب فى المانيا كلها .

عندما رجع لوثر من قلعة الفارتبورج وجد أشياء كثيرة قد تغيرت بالشدة والعنف والقوة إذ أن أيدي التخريين المتعصبين امتدت الى بعض الكنائس الكاثوليكية فكسرت تماثيلها وحطمت صورها وغيرت نظام العبادة ولغتها ، فحاول لوثر ان يضمّد بلطف هذه الجروح « فاعاد المياه الى مجاريها » وقام حال وصوله بحملة وعظ لمدة ثمانية أيام متواصلة فى مدينة فيتمبرج . ومن دواعى السرور أن تلك العظّات مازالت محفوظة حتى الآن^(١) .

ولقد شرح لهم فى تلك العظّات انه لا يدعى بان كارلستادت كان مخطئاً على طول الخط الا انه وضع لهم أن الظروف لم تكن مناسبة لأجراء هذا التغيير الجذرى كما أنه شدد ايضا فى عظّاته على أن انجيل المسيح لا يجب أن يفرض على الناس فرضا بالعنف والسيف والقوة بل علينا أن نلقى البذار وروح الله هو الذى ينمىها .

ثم ضرب لهم مثلاً بنفسه فهو لم يقاوم السلطة الباباوية بالقوة أو بالعنف ، بل بالكلمة المكتوبة ولا لألقى بالمانيا كلها فى أتون من نار وفى بحر من الدماء .

عندما رجع لوثر الى المدينة الجامعية سكن فى دير الاغسطينيين الذى كان خاليا تقريبا . كان عليه أن يبدأ من جديد فى عمل البناء وكان عليه أيضا ان يجد حلاً للمشاكل الجديدة التى ظهرت . كان بعض الرهبان والراهبات تركوا الأديرة وبدأوا فى البحث عن عمل . وكانت المشكلة حساسة بالنسبة لبعض الراهبات اللاتى تركن الايرة .

أما كارلستادت الذى كان لا يريد الا حلولاً جذرية وسريعة ولم يقبل هذا الاسلوب وترك كرسيه كاستاذ فى الجامعة دون ان يخبر المسئولين ثم جال مبشراً بهدم الهياكل وترك

العادات الكاثوليكية القديمة ، ثم نادى ايضا بعدم عماد الاطفال وبعض التعاليم الاخرى . ولم يقف لوثر مكتوف اليدين بل جاء هو نفسه الى مدينة اورلا موند (Orla Munde) التي كان يبشر فيها كارلستادت وحاول أن يقنعه بالرجوع فلم يفلح في اعادته وترك لوثر المدينة فالتقى بعض المتعصبين عليه الحجارة^(٢) لقد نفى كارلستادت من ساكسونيا كمثير للاضطرابات وذهب الى بازل وعين استاذاً ، ولقد مات في سنة ١٥٤١ متمتعا باحترام الكثيرين^(٣) .

تناقش لوثر مع بعض قادة حركة النهضة الروحية أمثال توما وكلاريوس وعرفهما بان ارشاد الروح القدس لا يعنى عدم الرجوع الى الكتاب المقدس واهماله - لان هذه الجماعة قالت بان الروح القدس يقود المؤمن في كل لحظة فلا داع لدراسة الكتاب المقدس . ولقد حاول لوثر ان يعرف قائدى هذه الجماعة خطورة هذه التعاليم التي تعمل على قلب المجتمع رأسا على عقب . كما أنه حاول ان يفتحها بعقيدة عماد الأطفال وبأشياء أخرى هاجمها . اما هما فقد خرجا من هذا الاجتماع حاقدين على لوثر ووصفاه بأنه لا يختلف عن البابا في شيء وان الكنيسة كلها فاسدة ، لانهما كانا يعتقدان بانهما على حق لانهما يملكان كل الحق .

كانت تعاليم هؤلاء المبشرين قد انتشرت في مدن كثيرة ولذلك فقد ذهب لوثر الى هذه المدن ووعظ وعلم ولكن كلمات اولئك المتطرفين كانت حماسية ثورية فدفعت بالكثيرين الى الانضمام الى حركتهم والاشتراك في اعمالهم التعصبية والتخريبية . ومما زاد الطلينة بلة ظهور شخص آخر هو منزر (Munzer) وقد سمي نفسه مطرقة الرب . فعندما كان يحل عليه الروح القدس ، كما كان يدعى ذلك - كانت الحرمانات واللعنات تتساقط من فمه تساقط الامطار الغزيرة على اعدائه . ولقد أعلن بان القضاء الإلهي قريب ولن ينجو منه الا هو وعدد قليل جدا من الذين يسمعون له . وعندما طرده الملك فردريك ذهب الى اماكن اخرى مبشراً بنفس الطريقة ونفس الأسلوب . واما لوثر فلكى يبين الفرق بين تعاليمه وتعاليم هذه الجماعات فقد كتب كتابا بعنوان « ضد الانبياء السمايين » وجاء هذا الكتاب خليطا من الروح والعنف وضح فيه بان المؤمن الحقيقي يستطيع ان يعرف ارادة الرب وارشاده بقراءته للكلمة والتأمل فيها ثم بقيامه بما يجب ان يقوم به في الحياة اليومية والكنسية وخاصة في اشتراكه في جسد الرب وفي دمه . فإن الرب لم يأمرنا باثارة الحروب ومقاومة السلطات القائمة وقلبها بل لنشر السلام وتغيير الأوضاع الراهنة والتبشير بالانجيل وعندما يتغير قلب الانسان يتغير المجتمع . فلا نحاول إذن تغيير المجتمع بالقوة والسيف بل بالانجيل وبالاقناع وبالحب وبالصبر .

كان العمل كثيراً ومتعدد الجوانب بعد رجوعه من القلعة . كان عليه ان يعظ وان يعلم الطلبة - كما كان عليه أيضا أن يرأس حلقات نقاش ويقوم بزيارات واستقبالات والقاء خطابات ، ثم كان عليه ايضا ان يكتب كتباً تفسيرية يترجم الكتاب ويؤلف ترانيم ويلحنها . كتب مرة الى أحد أصدقائه يصف له بعضا من الاعمال التي يقوم بها ، وبعد ان عدد له

الأعمال قال : « فهل ترى الآن حياة هذا الراهب الكسوف الخامل .. » .

أما من الناحية السياسية فإن لوثر كان يعتبر مواطناً خارجاً على القانون لأنه كان محكوماً عليه بالحرمان . ولقد طالب البابا اديان السادس الذى جاء بعد ليون العاشر من مجلس الأمة الألمانى (الدايت) العمل على سحق الهرطقة ، على أن مجلس الأمة الذى اجتمع وانفض فى مارس (آذار) ١٥٢٣ لم يقد بعمل أى شىء الا كتابة قائمة جديدة يحدد فيها الأشياء التى اساءت الكنيسة الكاثوليكية استخدامها . ولقد اجتمع الدايت مرة اخرى فى شتاء ١٤٢٤ فى مدينة نورمبرج (Nuremberg) وقرر تطبيق قرار مجلس الأمة الذى اجتمع فى فورمس ١٥٢١ باستعمال الشدة مع لوثر والمصلحين ولكنه طالب أيضا بالدعوة بعقد مجمع كنسى فى مدينة سبير (Spire) لبحث مشكلة لوثر .

على أية حال كان الامبراطور والملوك والأمراء مشغولين بأمر كثيرة جداً فيما يختص بالسياسة الخارجية والداخلية فلم يكرسوا الوقت الكافى لحل المشكلة الدينية .

هوامش الفصل السادس عشر

1. Strohl, 170.

(٢) ميرل دوينياه ، ص ٣٨٥ - ٣٩١ .

3. Hourticq. Notes 22.

الفصل السابع عشر

ثورة الفلاحين

لقد ظهرت وانتشرت كتابات لوثر وخاصة الكتب الثلاثة الصغيرة التي تدعى بكتابات لوثر الكبرى ، قبل أن يذهب الى ورمس ، وأقبل الشعب الالماني على التهام هذه الكتب بطريقة غريبة لدرجة ان الكتاب الأول الذي طبع منه ٤٠٠٠٠ نسخة نفذ في اليوم السادس من ظهوره ولم تبق منه ولا نسخة واحدة . لقد بدأ المصلح بعرض لا افكار جديدة مفيدة فحسب ، بل كان يعالج بكتابه مشاكلهم اليومية والعقائدية أيضا . ففي المكتوب الذي وجهه الى الأمة الالمانية النبيلة ناشد الشعب الألماني أن يتحمل بنفسه مسئوليته الوطنية والدينية ونادى بأن المسيحيين متساوون لا فرق بين كاهن أو علماني لاننا كلنا كهنة لله ، ثم في كتابه « الأسر البابلي » عندما تكلم عن الفرائض حاول أن يخرج من الناحية السطية التي اضافتها الكنيسة الى هذه الفرائض موضحا بأن قوة الفريضة ومفعولها كامنان لا في من يقوم بتأديتها (الكاهن) ولا حتى في الفريضة نفسها ، بل في الشخص الذي يمارس هذه الفرائض . وفي مجال حديثه عن الحرية المسيحية علم بان المسيحي حر وغير مستعبد لأحد . أن الانسان الذي حرره المسيح يتمتع بالحرية الحقيقية . لقد انتشرت هذه الافكار وسط الشعب الالماني وحاول ان يفسرها بطريقته الخاصة ولذلك فقد رأى فيها دعوة للحرية وللاستقلال بل للثورة فلا عبد ولا سيد بل الكل سواء . قرأ الشعب هذه الافكار الجديدة لكن لم تتح له الفرصة لكي يناقشها مع لوثر عندئذ إذ أنه قد اختفى بعد ورمس . وهو ذا يظهر من جديد وينادى بنفس الأفكار وبنفس المبادئ حاول كثيرون من الشعب تفسير هذه الآراء بطريقة عملية وجذرية وسريعة وبدون مرونة . وهنا ظهرت مشكلة ثورة الفلاحين على أى حال لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثور فيها الفلاحون ضد الأمراء والنبلاء . فعندما نرجع الى التاريخ نجد سلسلة طويلة جداً من الثورات فقد قام الفلاحون بثورة عنيفة في فرنسا في سنة ١٣٥٧ وفي إنجلترا في ١٣٨١ ، وثورة فلاحى بوهيميا في القرن الخامس عشر ، وفي سويسرا ١٥١٣ ، وفي فينمبرج ١٥١٤ . واندلعت ثورات الفلاحين مرة اخرى ايضا في سنة ١٥١٧ في كل من النمسا والمجر ومدن الراين .

ومما لاشك فيه ان الفلاحين قاموا عبر التاريخ بثورات ضد الأغنياء والأمراء لأنهم شعروا بالظلم الصارخ والضغط الساحق الذي مارسه الاغنياء عليهم . وهو نفس الشعور الذي ساد

طبقات الفلاحين والعمال الذين قاموا بثورة ١٥٢٤ - ١٥٢٥ في أيام لوثر^(١) ولم يكن الشعور بالظلم هو السبب الوحيد لانفجار هذه الثورات التي قام بها فلاحو المانيا بل سبق أن اشرنا بأن كتابات لوثر كانت قد انتشرت في كل مكان وقرأها عدد كبير من الناس . ولقد اعتبر الفلاحون والعمال والصناع أن كتابات لوثر موجهة لهم بالذات . فلم يحاولوا ان يطبقوها روحيا كما قصد لوثر بل فسروها ماديا واقتصاديا . وحتى بعض المتطرفين الذين حاولوا تفسير تعاليمه بطريقة روحية تطرفوا ايضا امثال كارلستادت ومنذر (Munzer) وآخرون فلقد اعتقد الفلاحون أن دعوة لوثر للحرية المسيحية تعنى التخلص بالعنف والقوة من الظالمين الذين يقسون عليهم أى دعوة للتخلص من الأمراء والسادة والاغنياء الخ ...

ولذلك فقد قام الفلاحون بثورتهم بدأت الثورة في ستوهلينجن (Stuhlingen) بالقرب من مدينة شافهوس (Schaffhouse) إذ ان زوجة كونت هذه البلدة قد تعودت اثناء موسم البذار وموسم الحصاد ان ترغم الفلاحين الذين كانوا يعملون في المزارع على جمع بعض الخضر النادرة واسماك القواقع لها كما كانت تأمر بقلع أعين الذين يحاولون قتل طيور الصيد التي كانت تتلف مزارعهم

وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٢٤ انضم هؤلاء الفلاحون الى فلاحى بلدة فالدشوت (Waldshut) الذين ثاروا هم أيضا لأن الحكومة أمرت بقطع رأس سكرتير المدينة أمام زوجته واولاده لانه قبل الاصلاح . وفي شهر يناير (كانون الثاني) ١٥٢٥ أعلنت كلتكجاو (Klettgau) تضامنها معهما . وانتشرت الثورة الى مقاطعة سوابيا والى مقاطعات ومدن أخرى وتوسعت هذه الحركة الثورية ، فلم تعد قاصرة على الفلاحين فقط ، بل انضم اليهم بعض العمال . ففي بالترنجن (Baltrungen) استطاع الحداد اولريش شميث (Ulrich Schmid) ان يجمع ثلاثين الف رجل لا يعترفون باى قانون الا بالقانون الالهى . ولقد قدم قادة هذه الحركة قائمة بمطالبهم . وتحتوى على ١٢ بند : ومنها المساواة والتحرر من خدمة الأمراء والاغنياء ، وحق الصيد والقنص ، والغاء العشور التي كانت تدفع للكنيسة وللأمراء .. ولقد حرصوا على تدعيم مطالبهم هذه بشواهد من الكتاب المقدس ، وللأسف الشديد تمسك المطالبون بمطالبهم وتمسك الأمراء والسادة بمراكزهم وسيادتهم واملاكهم . وهنا يظهر توما منذر (Thomas Munzer) ويتنبأ قائلاً : « ان رصال الأمراء سيكون بدون تأثير على الذين سيخرجون الى الحرب معنا »^(٢) .

كان الملك فردريك في هذه الايام يلفظ انفاسه الاخيرة ومات فعلا في يوم ٥ مايو (أيار) ١٥٢٥ بعد طلب تناول العشاء الربانى . خبزاً وخمراً على الطريقة المصلحة ولم يستطع لوثر الحضور قبل موت ذلك الرجل الذى وقف بجواره في أشد اللحظات وفي أضيق

الظروف . لكنه ذكر عند موته اسم لوثر على ان المصلح حصر يوم ٦ مايو (ايار) و اقيمت صلاة « الجنازة » في يوم ١٠ مايو في فيتمبرج .

لم يغير موت هذا الأمير شيئاً من الحرب الاهلية التي اندلعت نيرانها . فقد هجم الفلاحون على القصور والحصون فخربوا منها ماخربوا ودمروا منها مادمروا ، وارتعب الامراء والاغنياء والاساقفة لدرجة أن بعض الامراء اضطروا - من الخوف - الى الانضمام الى جماعة الفلاحين . ولقد أصدر بياناً في يوم ٢٦ ابريل (نيسان) قال فيه : « تقدموا تقدموا الى الامام ولتظل سيوفكم ساخنة بالدماء بدون شفقة »^(٢) وعندئذ قام الامراء بتنظيم صفوفهم واستأجروا بعض المحاربين الايطاليين والاسبانيين فاستطاعوا سحق الفلاحين بطريقة مريعة يعجز القلم عن تصوير بشاعتها . ولقد شجع لوثر الامراء على الدفاع عن انفسهم ولكنه كان يجهل تماماً أن وحشية الأمراء والأغنياء وتجردهم من الانسانية ستصل بهم لدرجة ارتكاب الفظائع التي ارتكبوها ضد الفلاحين . فقد قتلوا الآلاف المؤلفة منهم كما قتل منذر ايضا (قائد من قواد ثورة الفلاحين) .

وبعد هذه الثورة البشعة المريعة التي أرتقت فيها الدماء غزيرة ، وراحت ضحيتها النفوس الكثيرة ، قام لوثر وعدد كبير من الأمراء باصلاح مايمكن اصلاحه ونظموا المساعدات والاسعافات للعائلات التي حطمها الحرب . وراح ضحية هذه الحرب حوالى ١٠٠.٠٠٠ نفس^(٣) .

ان كثيرين من الذين قاموا بتحليل هذه الحوادث دهشوا كثيرا من موقف لوثر ازاء الفلاحين عندما قال للامراء الذين كانوا يحاربون الفلاحين الجملة التي سجلها له التاريخ « قاتلوا هؤلاء الفلاحين ككلاب مسعورة »^(٤) ان هذا الرجل الذى لم يدافع قط عن الاهانات الشخصية التي وجهت اليه ، والذي حاول في كل الظروف التي مر بها أن يستعمل المحبة والصبر واللطف وكيف يمكن أن يأمر الامراء بان يقاتلوا الفلاحين ككلاب مسعورة !! وستظل الجملة بلا جدال نقطة سوداء في تاريخ هذا الرجل العظيم . وكما يقول الاستاذ جرنر (Greiner) ان قولاً كهذا يعد عثرة ليس فقط لانسان القرن العشرين بل حتى لانسان القرن السادس عشر (ص ١٥١) ولكي نفهم موقف لوثر على حقيقته ، يجب ان نرجع الى الظروف نفسها . ان لوثر قد سبق واطلع على مطالب الفلاحين وكان هو نفسه يتفق معهم في كثير منها ، بل انه ناقش هذه المشكلة قبل ذلك مع بعضهم . الم يذهب لمقابلتهم حتى في اساحة القتال يقنعهم حتى يعدلوا عن القتال والحرب^(٥) وهذا ما منعه من ان يكون بالقرب من الملك فردريك عند موته !!! .

لقد سبق ان قلنا بان المصلح كان متفقا مع الثوار في كثير من مطالبهم التي طالبوا بها .

لكنه عرفهم بان الحصول على هذه الحقوق لا يجب ان يتم عن طريق العنف والقتل والسيف ، بل عن طريق الحوار الهادىء السلمى كما انه أوضح لهم هذا الامر فى خطاب ارسله لهم بتاريخ ٢٩ ابريل (نيسان) ١٥٢٥ (Strohl, 230) ألم يقم هو نفسه أيضا بحرب شعواء ضد جشع الاغنياء وحطمهم وظلمهم وحذرهم متنبأ بما سوف يحدث لهم عندما كتب كتابه « السلطة الزمنية » والذي ظهر فى ١٥٢٤ - ١٥٢٥ فى حديثه عن الامراء يقول « ان طغيانكم لم يعد يحتمل .. ولا يمكن ان يسمح به .. إذ وصل اشمئزاز الشعب منكم الى المدى »^(٧) كان لوثر قد حذر الأمراء من غضب الفلاحين وعرفهم - فى نفس النص - بأن غضب الفلاحين يعلن لهم غضب الله على أعمالهم وسوء تصرفاتهم وفى نفس الوقت نفسه حاول لوثر من الجانب الآخر اقناع الفلاحين بطرق عديدة ومختلفة : تقابل مع بعض قادتهم الروحيين والعسكريين ، وعظ .. وكتب ... ولكن لم تفلح كل هذه المحاولات وهنا يجد لوثر أن المانيا كلها غرقت فى بحر من الدماء . ولقد رأى فى كل من الجانبين جانب الامراء ، وجانب الفقراء نفوسا قد سيقت سوقا الى الحرب واکرھت على القتال . فلقد رأى الفلاحين وقد خرجوا للقتال وللتدمير ككلاب مسعورة . فإن الكلب المسعور يقتل ان لم يقتل . لذلك فهو يقضى على كل من يدل اليه باسنانه . كان هدف هؤلاء الفلاحين القتل واراقة الدماء وملاشاة الطبقة الحاكمة والغنية من الأمراء والاكليروس . كانوا يلجأون لكل الوسائل لازالة هذه الطبقات الغنية من الوجود . ألم يقل لهم منذر « لاحياة كريمة لكم إذا مابقى واحد من هؤلاء على قيد الحياة »^(٨) اننى لا احاول هنا أن أبرز موقف المصلح ولكنى احاول ان أبسط الظروف السياسية التى مر بها لوثر وعاشها مضطرا دون ان يسعى اليها أو ان يرغب فيها . ولقد عانى هو نفسه من هذه الكارثة مدة طويلة واعترف بخطئه .

قبل ان تندلع هذه الثورة كان الفلاحون والعمال يعتقدون بان لوثر هو واحد منهم وسيكون الأول فى الوقوف بجانبهم مؤيدا مطالبهم بالقول والعمل والسيف كما فعل الوعاظ . ولكنه لم يفعل ذلك فخاب ظنهم فيه . كانت هذه الثورة سببا فى تعميق العداوة فى قلوب الفلاحين ضد الكنيسة الكاثوليكية وسببا فى خيبة آمالهم فى الكنيسة المصلحة . وأما لوثر فقد أحس أن قلبه يذوب وهو يشاهد تلك الحوادث المؤلمة التى أرغم على الخوض فيها دون إرادته .

هوامش الفصل السابع عشر

1. Strohl 222-226, D. Hourticq.
2. D. Hourticq, 42.
3. Strohl, 233.
4. Strohl, 221-251, Greiner, 133-153, Bainon 201-221,
ميرل دوييناه ٤٥٨ - ٤٦٨ ودكتور عزت زكي ٦٨ - ٧٤
5. Strohl, 233.
6. A. Greiner 142-150.
7. Henri Strohl, 227.
8. A. Greiner, 149.

الفصل الثامن عشر

زواج الراهب مارتن لوثر

تعود بعض الاغنياء والنبلاء ان يضعوا نياتهم في سن مبكرة جداً في الاديرة بحجة تعليمهم وتهذيبهم روحياً وثقافياً وأديباً . ولكن الحقيقة أن هؤلاء النبلاء كانوا يقصدون التخلص منهم | مدى الحياة^(١) .

فعندما كانت الواحدة من هؤلاء البنات تبلغ سن السادسة عشر من عمرها (أى السن الذى فيه يمكنها أن تلبس الملابس الرهبانية) كان أبوها يدفع مبلغاً من المال الى الدير كمهر لهذه الفتاة وبهذا تصبح راهبة لمدى الحياة ومن ثم فلا حق لها في اقتسام الميراث مع اخوتها .

وعلى ما يبدو فان كاترين هانزفون بورا كانت واحدة من هؤلاء البنات اللاتي كن ضحية لتلك العادة المتبعة . فقد ماتت امها وتزوج والدها بأخرى وأرسلها مدرسة الدير في الخامسة من عمرها . وعندما بدأ الاصلاح كان هناك عدد كبير من البنات في عدة أديرة لمثل هذه الاسباب .

وفي دير نيمبتش (Nimptsch) في ساكسونيا بدأ بعض الراهبات في قراءة كتابات لوثر ثم دراسة الكتاب المقدس . وعندئذ بدأن في التفكير في حالتهم ، ولم يقبلن هذا الوضع الذى فرض عليهن فرضاً أو على الاقل فرض على بعضهن . ولذلك فقد قررت اثنتى عشرة فتاة الاتصال بعائلاتهم للعودة الى منازلهم وكان رد عائلاتهم بالرفض وعندئذ كتبن الى بعض المصلحين في مدينة نورمبرج (Nuremberg) الذين اتصلوا ببعض الشخصيات المعروفة والكريمة والتي لايشوب سمعتها شائبة في مدينة توركو (Torgau) فنظم ليونار كوب وابن اخيه عملية لختطف هؤلاء الراهبات من الدير ، وتم ذلك فعلاً في احدى ليالى أبريل (نيسان) ١٥٢٣ وقد احضرهن الى فيتمبرج* وكان على المصلح ان يجد لهن حلاً واستطاع ان يقنع بعض العائلات بعودة بناتهن أما باقى البنات فقد حاول لوثر أن يجد لهن عملاً . وكان من بينهن كاترين بورا . وفعلاً وفق في الحاقهن جميعاً بأعمال مختلفة . اما كاترين فقد أخذها غنى من مدينة فيتمبرج للعمل في منزله .

وفي يوم من الأيام تعلق قلبها بطالب من مدينة نورمبرج وهو جيروم بوكارتير . على أن



هذا الحب لم يدم طويلا لان هذا الشاب عاد الى مدينته وتزوج من فتاة اخرى نزولا على رغبة والديه ثم تقدم اليها كلاتر فرفضت الزواج منه . إنها لا تريد أن تتزوج حبا في الزواج بل تريد أن تتزوج شخصا تقتنع به وتحبه والا فانها تفضل أن تبقى بنتا بلا زواج كل حياتها . هذا ماكتبته الى أمسدورف (Amsdorf) الذي اقترح عليها مع لوثر الزواج من كلاتر ثم أضافت في خطابها قائلة : أما إذا عرضت على أنت أو لوثر أن اكون زوجة لواحد منكما فلن ارفض ذلك أبداً . عرف لوثر هذا الرد ولكنه كان لا يفكر في الزواج ، وخاصة في هذا الوقت نعم انه كان لا يمانع في زواج الرهبان ولكنه يعلم بهذا التعليم لكي يستفيد هو منه ، بل نادى به كمبدأ انجيلي عام . اما بالنسبة لشخصيته فلم يكن يفكر في الزواج لان حياته كانت مهددة

في كل يوم ولذلك فقد كتب في ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٢٤ « اننى لا افكر في الزواج إذ اننى أتوقع عقوبة الموت في أى يوم كهرطوقي »^(٢) ترى هل بدأ يفكر في الزواج جدياً بعد أن سمع رأى كاترين ؟ ربما .. على أى حال بدأت الفكرة تنضج في فكره و أخيراً قرر الزواج من كاترين . وفي يوم ١٣ يونيو (حزيران) ١٥٢٥ قام بمراسيم الزواج صديقه القس يونان والقس بوجنهاجن (Tonas, Bugenhagen) وقد شهد على هذا الزواج كل من المحامى آبل (Appel) وصديقه الرسام لوقاس كراناس (Lucas Cranach) وفي يوم ١٤ يونيو (حزيران) أرسل لوثر خطاباً الى سبلائين لكى يبلغ الخير للملك الجديد . وفي يوم ٢٧ من نفس الشهر دعى العروسان اصدقاءهما الى حفل عشاء بمناسبة زواجهما . كان لوثر قد بلغ الثانية والاربعين وكاترين السادسة والعشرين عند زواجهما .

لقد أثار هذا الزواج ضجة كبرى لا في الأوساط الكاثوليكية فحسب بل حتى بين المصلحين لدرجة ان صديقه المحبوب - وذراعه الأيمن الشاب ملانكثون لم يحضر حفل الزواج ، على ان هذه القطيعة لم تستمر طويلاً بينهما .

كان لوثر سعيداً مع زوجته كاترين وكان بيتهما - وهو الدير الاغسطيني - مفتوحاً لكثيرين من الخدام وغير الخدام . فان الذين كانوا يتناولون الطعام يومياً على مائدتهما حوالى ٢٥ شخصاً . ولقد أنعم الرب على هذين الزوجين باولاد غنيا بتربيتهم تربية مسيحية . على أن لوثر كان متأثراً بطريقة التعليم في عصره - لانه كان ابن عصره في اشياء كثيرة - فقد قال : « اننى افضل ابناً ميتاً على ابن حى غير مؤدب » .

جاء المولود الأول في هذه العائلة يوم ٧ يونيو (حزيران) ١٥٢٦ ويدعى يوحنا (هانس) على اسم أبيه . ولما كان والداه سعيدين جداً بزواجه كانا سعيدين ايضاً باولاده (ميرل دوبنيه ص ٤٧٦) وفي يوم ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٧ ولدت اليزابيث . وفي يوم ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٩ ولدت البنت الثانية مجدلين . وفي يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٣١ اعطاهما الرب ولداً وسمياه مارتن . ثم في ٢٨ يناير (كانون الثاني) ١٥٣٣ جاء بولس . وفي يوم ١٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٣٤ ولدت مارجريت . ولقد ماتت اليزابيث في عامها الأول ، كما ان مجدلين انتقلت هى ايضاً في الثالثة عشرة من عمرها .

كان لوثر يقضى أوقاتاً طويلة مع اطفاله* في الحديث معهم والاصغاء اليهم . ولقد كتب لهم بعض القصص المسلية وجمع ٤٨٩ مثلاً وقصة . ومازالت مكتبة اكسفورد تحتفظ بهذه المخطوطات^(٣) .

لكن وفاة الزابيث ومجدلين ملأت قلب الأب والأم حزناً عميقاً . وعندما أصاب المرض

ابنته مجدين: كان لوثر يصارع مع الله في الصلاة لكي يترأف الرب عليها ويشفيها ، لأنه كان يحبها حباً عميقاً . فعندما ماتت تركت في قلبه جرحاً عميقاً جداً ولكنه تعزى على رجاء القيامة^(٤) .



هوامش الفصل الثامن عشر

1. D. Hourticq, 74.

* كانت واحدة من هؤلاء الراهبات من عائلة رئيس الاديرة الاغسطينية وهي مدلين ستوبتزر .

2. Greiner, 158.

* يحتمل بأن واحداً من ابناء لوثر كان يحمل اسمين كما هو معتاد في اوربا (وهو اسم يعقوب) .

3. A. greiner, 161.

4. Bainton 223-230, Greiner 157-163, Hourticq, 74-80.

موريسون ١٠٨ - ١١٤ ، مزل دوينياه ٤٧٤ - ٤٧٨ ، د . ليب مشرق ١٧٩ - ١٨٣

الفصل التاسع عشر

صعوبات في وجه الكنيسة الناشئة

لم تستطع الحياة السعيدة والجديدة التي كان يحياها المصلح مع زوجته كاترين أن تلهيه عن الخدمة المقدسة أو أن تنسيه الرسالة التي وضعت على عاتقه . ولم تكن كاترين حملا ثقيلا يحمله على كتفيه ، بل كانت معينة له . فلم يعد يحس بالوحدة عندما يرجع الى الدير بل كان يجد كافي التي تبث في نفسه له وتساعد في احتمال المشقات . وما اكثر المشقات التي اعترضت حياة المصلح . وأول مشكلة تشارك فيها كاترين زوجها : كانت مشكلة التحالف السياسي الكاثوليكي .

لقد حاول بعض الملوك الكاثوليك استخدام ثورة الفلاحين ضد حركة الاصلاح للتشهير بلوثر وبمركته الجديدة ، ولكي يقضوا على هذه الحركة . لذلك قاموا بحملة دعائية وتوعية هدفها توحيد الأمراء والملوك الكاثوليك في ألمانيا ضد الأمراء الذين انضموا الى الاصلاح وعملوا على نشره . ولقد طالبوا بنفس الطلبات التي طالبوا بها مجلس الشعب (الدايت) عدة مرات : وهي سحق حركة الاصلاح الهرطوقية . ولقد وافق على طلبهم وساندهم بقوة الامبراطور شارل الخامس . وخاصة وانه قد أنهى الحرب مع الملك فرانسوا الأول ، فكان في استطاعته أن يخوض هذه الحرب اللوثرين لكي يصفى المشكلة الألمانية . ولذلك فقد ارسل خطابا الى هؤلاء الأمراء الكاثوليك يعرفهم بانه سوف يقوم بعملية حرية لكي يلاشي من الوجود مذهب لوثر الملعون والذي كان سببا في المذابح والخراب والدمار .

شعر أمراء الاصلاح بان اماراتهم ورعاياهم مهددون بهذا التحالف . وعندئذ اجتمع منتخب ملك ساكسونيا ووالي مقاطعة هس (Hesse) مع خمسة أمراء انجيليين آخرين وأنضمت اليهم مدينة مجد بوج ، وقاموا بعمل معاهدة سنة ١٥٢٦ وتدعى بمعاهدة توركو (Torgau) ولقد اعلن المتحالفون ان هذا الحلف دفاعي فقط وليس هجوميا وذلك لحمل المسئولية التي أوكلها لهم في الدفاع عن رعاياهم .

ومع أن هذه المعاهدة اظهرت ترابط الأمراء الانجيليين واتحادهم الا ان لوثر اظهر عدم ارتياحه لها . ففي بحث كتبه لمعالجة هذا الموضوع كان يتساءل إذا كان الذين يحاربون قد حصلوا فعلا على الخلاص^(١) .

بدأ يظهر شبح الحرب من جديد مهدداً الدولة الألمانية كلها مرة ثانية خاصة وأن الامبراطور كان قد عزم على تطبيق قرارات فورمس بخدافيرها ، لكي يصفى الهرطقة اللوثرية تصفية كاملة . في هذا الجو الذي كان مشحوناً بروح الحرب الأهلية بدأ مجلس الأمة جدول أعماله في صيف ١٥٢٦ في مدينة اسبيرس . ولكن عندما وصلت اخبار تحالف بابا روما اكليمندس وفرسوا الأول ، وأخبار تهديد الاتراك لأوروبا ووصولهم الى المجر ، غير الامبراطور والأمراء الكاثوليك موقفهم من الامراء المصلحين حتى يتفرغوا لمقاومة العدو الأجنبي الخارجي . ولذلك فقد اتفقوا على أن كل ولاية حرة تتصرف كما يبدو لها على أن تتصرف وتعمل بما يرضي الله حسب عقيدتها التي تريدها .

وهكذا زال شبح الحرب الذي كان يهدد الانجيليين ، على أن هذا القرار : أى ترك الحرية لكل أمير يتصرف حسب ما يبدو له حسناً لم يكن الا هدنة قصيرة . فقد دخل الامبراطور شارل الخامس وامراء المانيا في حرب مروعة ضد البابا ، ولم تنته الا في ٦ مارس (آذار) ١٥٢٧ وقد مات في هذه الحرب ٥٣ الف شخص بسبب الحرب أو بالطاعون وسقطت روما مهدمة الحصون والقصور مضرجة في دماء سكانها . نادى البعض بطريقة هستيرية أن لوثر بابا على روما . وبعد هذه الكارثة العظمى ، وانتصار شارل الخامس على البابا اتحد معه وقطع معاهدة مع اكليمندس السابع ضد الهرطقة للعمل على القضاء عليها سريعاً .

لقد حفلت سنة ١٥٢٧ بالكوارث فقد انتشر وباء الطاعون في مدينة فينمبرج وهجر المدينة عدد كبير من الأساتذة . أما لوثر وكاترين فلم يتركاها بالرغم من ان كاترين كانت حاملاً . ومرض لوثر وأشرف على الموت . وخشى بان يشاع عنه بعد موته بانه انكر تعاليمه التي نادى بها ، لذلك قال لمن حوله بانه لا ينكر تعاليمه وانه متمسك بها ، وأنه يؤمن بان كل ما علم به مطابق الحق الإلهي^(١)

لم تكن الكنيسة الانجيلية المصلحة مهددة بالتحالف السياسى الخارجى فحسب ، بل كانت مهددة أيضاً فى الداخل وفى عقيدتها نفسها . ومن الأشياء التى عرضت الكنيسة فى ذلك الوقت للانقسام الداخلى عقيدة العشاء الربانى . فلقد تسمك كارلستادت والمصلح السويسرى زونجلي واتباعهما بأن العشاء الربانى مجرد تذكار واما لوثر فقد تمسك بحرفية النص الكتابى .

زيارة لوثر وملائكتون لبعض الكنائس :

نظم لوثر - بعد موافقة الملك وبمساعدة صديقه سبالاين (Spalatin) حملة زيارات للكنائس . وقام ملائكتون وآخرون بأول حملة سنة ١٥٢٧ . ولقد اكتشفوا بان الكنيسة كانت تعيش عيشة يرثى لها من الناحية الروحية والمادية . وفى الجولة الثانية التى قام بها لوثر فى

سنة ١٥٢٩ لمس حقائق مذهلة ومحنة كانت نعيشها الكنائس التي قبلت مبادئ الإصلاح ولكنها لا تعرف شيئاً عن الحقائق الانجيلية . فلقد رأى كنائس كثيرة مصلحة بدون خدام كما أنه اكتشف أيضاً عدداً كبيراً جداً من العلمانيين وحتى من الخدام يجهلون أبسط الحقائق الانجيلية . ولهذا فقد قام بعد عودته من هذه الجولة قام بكتابة ما يدعى في التقليد الكاثوليكي « بالتعليم المسيحي المفصل والتعليم المسيحي المختصر . وقد اصطلح البروتستانت على تسميته بأصول الايمان المفضل وأصول الايمان المختصر » . ففي أصول الايمان المفصل أراد لوثر أن يقدم للعلمانيين وللرعاة بعض الحقائق البدائية البسيطة عن المسيحية لتساعدهم على فهم الحقائق والمبادئ المسيحية وشرحها للشعب . وأما في كتاب اصول الايمان المختصر فقد تناول نفس المواضيع ولكن بطريقة أكثر بساطة إذ أنه خصصه للأطفال . ولقد ركز بحثه في هذين الكتابين على خمس نقاط :

١ - الوصايا العشر وهي عبارة عن مرآة للخطية .

٢ - قوانين الايمان كاعلان لمغفرة الخطايا .

٣ - الصلاة الربانية التي تعلن رحمة ومحبة الله .

٤ - فريضة العماد .

٥ - فريضة العشاء الرباني^(٣) .

وقد لاقى هذان الكتابان اقبالا شديداً لأن الشعب كان فعلاً في حاجة اليهما .

هوامش الفصل التاسع عشر

- A. Greiner , P. 163.
2. Bainton, P. 228-254, Greiner, P. 164-165.
3. Kastlin, P. 311-314, Greiner, P. 174-185.

الفصل العشرون

اجتماع مجلس الأمة (الدايت) في سبيرس

ودعى اللوثريون بروتستانت في سبيرس أولا (أع ١١ : ٢٦)

بينما كان لوثر يعمل جاهداً ليل نهار لبناء وتقدم الكنيسة في المانيا ، كان أعداء هذه الحركة لا يألون جهداً لايقافها وشل حركتها والقضاء عليها . ففي كل اجتماع - تقريباً - لمجلس الأمة (الدايت) كان ملوك وامراء وحكام المقاطعات الكاثوليكية يطالبون بتنفيذ قرارات فورمس أى : مطاردة ومحكمة لوثر وأتباعه . وعندما اجتمع الدايت في مارس (آذار) ١٥٢٩ في سبيرس (أو سير) تقدم الملوك والأمراء بنفس المطالبات التي إعتادوا المطالبة بها . لكنهم طالبوا بمطالب أخرى هذه المرة :

١ - الغاء قرارات مجلس الأمة التي صدرت سنة ١٥٢٦ التي كانت تمنح كل أمير الحرية الكاملة في حكم ولايته بالطريقة التي يراها .

٢ - منع تقدم الاصلاح في المناطق الكاثوليكية وذلك بمبلغ التبشير في تلك المناطق ، ومنع اقامة كنائس لوثرية في أى مكان فيه كنيسة كاثوليكية .

٣ - منح الحرية للكاثوليك للعبادة سواء في المناطق الكاثوليكية أو في المناطق التي شملها الاصلاح . وهذا يعنى أن الامراء الكاثوليك كانوا يطالبون بالغاء حرية العبادة وحرية اختيار المذهب . ومحاولة القضاء على الاصلاح كلية .

وازاء هذا الظلم الصارخ اجتمع امراء الشمال مع أمراء ١٤ مدينة من الجنوب وأعلنوا احتجاجهم ضد هذا القرار الذي اتخذته الأغلبية في مجلس الأمة . قائلين : « نحن نحتج » « We Protest » نحتج امام الله الفاحص القلوب والكلى والقاضى العادل ، نحتج أمام الناس وكل الخلائق لانه لا يمكن أن نقبل أمراً كهذا مخالفًا لله ولكلمته المقدسة . نحن نحتج ضد الظلم ، وكلمة يحتج (Proteste) « بروتست » اشتق منها الاصطلاح بروتستانت (Protestant) أى الذى يحتج ضد الظلم والطغيان ... فمن هذا التاريخ وفي سبيرس دعى اللوثريون بروتستانت أولاً^(١) .

اجتماع ماربورج ومشكلة العشاء الرباني (الأفخارستيا)

بعد أن احتج الأمراء ضد الاغلبية الكاثوليكية في مجلس الامة (الدايت) حاول فيليب حاكم مقاطعة هس (Hesse)^(١) أن يجمع صفوف المصلحين وان يقوى روابط الوحدة بينهم ولذلك فقد فكر في عمل معاهدة مع بعض الامارات السويسرية التي قبلت الاصلاح . كانت الفكرة رائعة ولكنها لم تخل من الصعوبات . فان الذين يقومون بنشر الاصلاح في بعض الدويلات السويسرية هم زوينكلي (Zwingli) وأكولامباد (Oecola Mpade) وبولانجر (Büllinger) وهؤلاء يكفوا عن الانتقادات اللاذعة في كتاباتهم ضد لوثر وضد تعاليمه . فلقد أتهموه بأنه احتفظ بالكثير من الخرافات الرومانية . كما انتقدهم لوثر أيضا مشبها اياهم مرة بجماعة العقليين ومرة أخرى « بالدرأويش » . ولكن بالرغم من هذه الصعوبات استطاع فيليب امير هس أن يختار ممثلين لهذين التيارين المصلحين لكي يناقشوا بعض المشاكل العقائدية التي تفرق صفوفهم (ميرل دوبينييه ٤٥٣ - ٤٥٦ ، ٥٠٥ - ٥٠٧)^(٢) . وفي ٢٩ سبتمبر (ايلول) ١٥٢٩ وفي مدينة ماربورج (Marbourg) جاء من سويسرا ومن منطقة الالزاس بعض قادة حركة الاصلاح وعلى رأسهم زوينكلي ، ومن المانيا جماعة أخرى وعلى رأسها لوثر وملانكثون .

لقد ناقش هؤلاء بعض المشاكل العقائدية ، ولكن المشكلة الكبرى التي وقفوا أمامها وقتا طويلا والتي لم يستطيعوا حتى في نهاية الاجتماع أن يجدوا لها حلا نهائيا وكاملا . كانت مشكلة العشاء الرباني . فقد عرف عن لوثر حدة الطبع وصلابة الرأي ، فمنذ أن وصل الى ماربورج كتب أمامه تحت غطاء المائدة التي جلسوا حولها كلمات السيد « هذا هو جسدي » فعندما كان يتكلم زوينكلي عن معنى رمزي أو استعاري كان لوثر يرفع غطاء المائدة فيتذكر ماتعهد به من التمسك بوجود جسد الرب حقيقة في الخبز وفي الخمر . ولقد أعلن بأنه لا يجب بأي حال من الأحوال التوضيح بالحق الكتابي لحل المشكلة السياسية . ولقد تمسك كل طرف من الطرفين بآرائه . فان زوينكلي واتباعه رأوا في العشاء الرباني مجرد ذكرى لموت المسيح ، ومسئولية نشر البشارة الى ان يجيء . أما لوثر وبعض اتباعه فقد تمسكوا بعقيدة ان المسيح موجود حقيقة لحما ودما في الخبز وفي الخمر . لقد رفض لوثر العقيدة الكاثوليكية التي تعلم بالتحول أو التغيير الكلي والجزئي للخبز والخمر ، لكنه لم يقبل أن يكون العشاء الرباني مجرد ذكرى . اشتد النزاع بين الفريقين لدرجة ان لوثر لم يقبل حتى ان يدعو الفريق الآخر اخوة مالم يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملا في الخبز وفي الخمر . لاشك اننا نأسف لهذه الروح التي أظهرها لوثر ازاء اخوة في المسيح وبالرغم من ذلك فقد استطاعوا ان يتفقوا على النقاط الآتية :

(١) العشاء الرباني ليس ذبيحة .

(٢) ان العناصر لا تتحول الى جسد ودم المسيح .

(٣) الاستفادة الحقيقية للعشاء الرباني تكون بالايمان .

(٤) العشاء الرباني هو اعلان للخبر السار .

أما النقاط التي اختلفوا عليها فكانت :

(١) اعتقاد لوثر في الحضور الحرفي والحقيقي لجسد ودم المسيح في الخبز وفي الخمر .

(٢) كان زوينكلي يعتقد بان حضور الرب يتحقق في اجتماع الجماعة حول العناصر^(٤) .

وانفض الاجتماع في ٤ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢٩ بعد أن اعلن المجتمعون النقاط

التي اتفقوا عليها .

هوامش الفصل العشرون

* بعد اجتماع مجلس الامة (الدايت) الذى عقد فى سيرس دعى اللوثرىون بروتستانت وليس فى اوجسبورج
أو اكوسبورج كما يعتقد البعض .

1. E. Singmaster, P. 114, 115, Bainton, P. 246-248,

ميرل دو بينياه ، ص ٦٠٣ - ٦٧٠

2. Bainton, P. 240-251.

3. Hourticq, P. 82, 83.

4. Concilium Revue ... 118, D. Steinmets P. 76-82.

الفصل الحادى والعشرون

مجمع أوكسبورج أو أوغسبورج فى سنة ١٥٣٠ (Augsbourg)

كاثوليك وبروتستانت معا

لقد سبق أن ذكرنا أن الأمراء كانوا يطالبون بلا ملل - فى كل مرة يجتمع مجلس الأمة (الدايت) بتنفيذ قرارات مجتمع فورمس . بل أن الامبراطور نفسه اظهر هذه الرغبة اكثر من مرة . وفى السنين الأخيرة بدأت شقة الخلاف تتسع . وحاول كل من الطرفين المتنازعين ان يجمع شمله ويحصن مدنه . وأصبح شبح الحرب يرفرف من جديد وكان الملك شارل مشغولا بمشاكل مثل حربه مع فرنسا ومع الأتراك ومع البابا حتى انه كان يقضى معظم وقته خارج المانيا وقد أسند مسئولياته الى أخيه الملك فرديناند . لذلك لم يستطع الملك شارل - منذ انعقد مجمع فورمس - أن يولى قضية النزاع الدينى فى المانيا الاهتمام الكافى . اما وقد انتهت المشاكل والحروب ولو ظاهريا بينه وبين الملك فرنسوا ، وبينه وبين البابا ، فقد عقد العزم على أن يصفى المشكلة السياسية والدينية التى كانت تنخر عظام الأمة . وذلك بالقيام بمشروع للسلام يجمع شمل هذه البلاد الممزقة ويعيد السلام لمانيا . لذلك رجع الى الاقتراح القديم الذى تردد اكثر من مرة وهو عقد مجمع على مستوى الدولة والكنيسة . يحضره الكاثوليك والبروتستانت . وفعلا تقرر أن يعقد مجمع على مستوى الامبراطورية الالمانية كلها ويضم الحزبين المتعارضين . وان يقدم فيه قادة الحزبين اعتقاداتهم الدينية لبحثها والوصول الى حل يرضى الطرفين . ودعى الامبراطور شارل الخامس الملوك والامراء والمسؤولين الى مدينة اوكسبورج ابتداء من ٨ ابريل (نيسان) ١٥٣٠ .

كان من المفروض بان تقدم كل كنيسة عقيدتها وأفكارها الدينية لكى تناقش . فكان من الطبيعى أن ترسل كل كنيسة خير رجالها لتمثيلها وعرض عقيدتها . وطبعاً كان لوثر المرشح الأول لحضور هذا المؤتمر لتمثيل البروتستانت ولكن لم يستطع لوثر أن يذهب الى هذا المؤتمر :
أولاً : لانه كان محكوما عليه بالنفى ولا يمكنه أن يخرج من منطقة ساكسونيا .
ثانياً : لأن لوثر كان حاد الطبع صلب الرأى صعب الاقتناع لا يعرف اللين أو المرونة فى

نقاشه . وقد اعترف هو نفسه بذلك . ولهذا فقد اتفق بأن يرأس وفد المصلحين في هذا المؤتمر التاريخي الكبير* . الاستاذ الشاب ملانكتون ، وكان ملانكتون عالماً ، هادئ الطبع دمث الاخلاق ، عميق التفكير ، واسع الافق والمعرفة ، متواضعاً .

عندما دخل القاصد الرسولي قاعة الاجتماع سجد الكاثوليك أمامه وظل الأمير البروتستانتي واقفاً . ولقد لفت هذا الامر نظر الكثيرين من بداية أو جلسة للصلح . كما أنه كان مفروضاً أن يقدم كل طرف ملخصاً لاغتهادته وتعاليمه لمناقشتها ، لكن الجانب الكاثوليكي لم يقدم أى تقرير أو أى اقرار ايمان وهنا شعر الانجيليون كما لو كانوا في موقف المجرم المحاكم وعليهم ان يقدموا مايؤمنون به لكن بحكم الآخرون بصحته أو ضلاله . ولم يكن هذا الموقف مشجعاً للانجيليين .

على أى حال فقد قدم ملانكتون اقرار ايمان مكتوب . وقام الكاتب الأول للمنتخب قراءة النص . ومع أن لوثر كان وراء هذا النص أو - على الأقل - أوحى بالكثير منه - إلا أن ملانكتون استطاع ان يقدمه بطريقة جذابة ، ظهرت فيها روح المحبة والرغبة العميقة في الاتحاد . ولقد احتوى اقرار الايمان الذى يدعى باقرار ايمان او كسبورج على ٢٨ بنداً . واتفق الفريقان على قبول ٢١ بنداً منه . ولقد شرح ملانكتون بانه لا يتمسك بالبنود السبعة الباقية - التى كانت موضوع الخلاف - لانه يعتقد بانه ليس لها أساس كتابى . ولقد حاول المصلح الشاب أن يتجنب ذكر بعض العقائد التى تثير المشاكل وتوسع شق الخلاف . فلم يذكر المطهر أو الباباوات أو رسامة الكهنة وبعض العقائد الاخرى المختلف عليها .

بعد هذا العرض بدأ الوفدان في مناقشة هذه البنود بالتفصيل ، وهنا ظهرت الخلافات . كان ملانكتون والوفد الذى حضر معه الى او كسبورج يرسلون الى لوثر بأى تغيير يحدث في النص أو أى اقتراح جديد ، لكي يستشيروه . وكان لوثر يعيش مضطرب الاعصاب وقلق البال اثناء فترة الحوار لانه كان يود لو استطاع الاشتراك في هذه المناقشات . وقد هدد عدة مرات بحضور الاجتماع . لكنه لم يذهب واكتفى بالأخبار التى كانت تصل اليه عن طريق الرسائل . ولقد عرف لوثر من احدى هذه الرسائل ان الكاثوليك رفضوا اقرار الايمان الذى قدمه ملانكتون ثم قدموا هم قانون ايمان أو اقرار ايمان شرحوا فيه مايؤمنون به ومايرفضونه . ولقد كان الهدف من هذا الاقرار هو هدم اقرار الايمان الذى قدمه ملانكتون . وعندئذ كتب ملانكتون الى لوثر في مدينة كوبورج التى كان ينتظر فيها لوثر الأخبار بفارغ الصبر وعرفه بهذا التغيير . وكان رد المصلح الى صديقه الشاب بان لا يترشح قيد أمثلة عن موقفه وان لا يتنازل عن شيء بعد ما قدمه من تنازلات كثيرة وهدده بالحضور اذا تنازل عن شيء آخر .

بدأت الأمور تتأزم فلقد تمسك الكاثوليك بموقفهم ، كما اعتقد لوثر أن ملانكتون تساهل

معهم في أشياء كثيرة .

وأما الامبراطور فرفض اقرار الايمان الذي اقترحه الانجيليون . وعندئذ كتب شارل الخامس الى روما يقول لن ينفع الآن الا العنف الذي يسوّى أثماره .

وخشى لوثر على اصدقائه في هذا المؤتمر ، وطلب منهم الرجوع بسرعة . وكتب الى صديقه بونان في يوم ٢٠ سبتمبر (ايلول) يقول « اننى أتوسل اليكم بان تكفوا عن المناقشة وترجعوا حالا .. »^(١) وإذ تمسك كل وفد بموقفه منح الامبراطور اللوثرين مهلة حتى ١٥ ابريل (نيسان) ١٥٣١ ليغيروا موقفهم ويرجعوا ..

كان لوثر سعيداً بهذا القرار الذي سمح على الاقل بمهلة للانسحاب والعودة . في هذه الفترة التي قضاها لوثر في كوبورج (Cobourg) وصلته اخبار وفاة والده ولقد بكاه بكاء مراراً وتألم لفراقه .

وفي يوم ١١ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٣٠ وصل الوفد الانجيلي الى فيتمبرج سالماً^(٢) وييدهم اقرار الايمان الذي كتبه ملانكتون والذي يعتبر الآن من أعظم اقرارات الايمان التي تتمسك بها الكنيسة اللوثرية حتى الآن . ولحسن الحظ لم يتمسك الامبراطور بهذا التهديد الذي نطق به عندما أعطى مهلة للاصلاح حتى يوم ١٥ ابريل ١٥٣١ لكي يغير موقفه .

وبالرغم من هذه التهديدات ، كانت الكنيسة تنمو كل يوم . وقد أقام الرب فيها اناساً استطاعوا بالرغم من ضعفاتهم وخطائهم كبشر ان يسيروا بها الى الامام بنعمته ، واستمر لوثر الرجل الذي لا يعرف التعب أو الملل بعد هذا المجمع - الذي لم يحضر فيه الا بالفكر - يعمل بدون هوادة فراه في سنة ١٥٣٧ في طريقه الى الاجتماع الذي دعى اليه امير هس و امير ساكسونيا في شتاء ١٥٣٧ في مدينة سمالكالد (Smalkalde) ولقد دعى الأميران لحضور هذا المجمع كل المدن والامراء البروتستانت لعمل معاهدة دفاع مشترك بينهم . على أن لوثر لم يستطع أن يحضر كل جلسات هذا الاجتماع لسبب مرضه واضطر الى الرجوع الى فيتمبرج وواصل المؤتمر عمله بدون المصلح وكانوا حلفاء انجيليا للدفاع المشترك ، لكن لوثر كان يعارض كل معاهدة أو تحالف عسكري للدفاع عن الانجيل . لانه كان يؤمن بان نشر الانجيل لا يكون باستعمال السيف الذي يترك الكراهية والحقد في القلوب ، بل ينتشر بعمل روح الله الهادي المقنع الذي يعطى سلاماً حقيقياً في القلوب وفي النفوس .

هوامش الفصل الحادى والعشرون

* وصل الملوك والأمراء والوفود من كل المانيا وسار ايضا وفد المصلحين فى طريقه الى اوكسبورج وعند وصول الوفد الى كوبرج (Cobourg) ترك لوثر هناك عند الحدود لانه كان محكوما عليه بالنفى ولم يستطع مغادرة منطقة ساكسونيا كما سبقت الاشارة الى ذلك . فمكث هناك وكان ينتظر فى كل يوم بفارغ الصبر وصول الاخبار من اوكسبورج ليتابع تطور اخبار المناقشة .

1. A. Greiner, P. 181.

2. Singmaster, P. 115-119, Greiner P. 177-182.

D. Hourticq, P. 82- 85,

ميرل دوينياه ، ص ٦٩٠ - ٧٧٥

الفصل الثانى والعشرون

وان مات يتكلم بعد

كان المصلح الالماني أمينا لله ، فلم تستطع وعود الواعدين أن تغريه أو تضله ، ولا وعيد المهتدين أن يشنيه عن عزمه . فقد وضع امام عينيه هدفاً وشعاراً واحداً لله وحده المجد والكرامة كما كان شعلة من النشاط ، كرس حياته لخدمة السيد والكنيسة والناس . كانت حياته حياة لبذل والتضحية . عاش سخيّا كريماً أعطى فاجزل العطاء بلا حساب . احتمل لوثر في حياته ما لا يستطيع أن يتحملة انسان . عاش طفولة صعبة وعانى صراعات في المدرسة وناضل في الجامعة وقاسى من شكوكه في أمر خلاصه . ثم صار مع الكنيسة الكاثوليكية والامبراطور والأمراء الكاثوليك . هذا بخلاف جهاده في تكوين وتطوير الكنيسة على جميع المستويات . وكتابات العديدة والمجهود الذى بذله في ترجمة الكتاب المقدس بعهديه . ثم نضاله السياسى الذى زج فيه زجا دون ان يريد ذلك . وحزنه العميق على ابتتيه وخاصة مجديلين ... حمل هذا الرجل كل هذه الأحمال الثقيلة وعانى من بعض الأمراض الجسدية . كل هذا قد اضعف من صحة المصلح وقوته . وبالرغم من كل هذا كان دائماً على استعداد لأن يقوم بخدمة الجميع مهما كان الأمر مكلفاً .

عندما اشتد النزاع بين كونتى Comtes مانسفلد البرت وادجارت . لم يحاول لوثر ان يجد عذرا لعدم الذهاب ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تدخل فيها المصلح لفض النزاع إذ أنه ذهب قبل ذلك مع ملانكثون مرتين الى مانسفلد لحل المشكلة العائلية .

ترك لوثر فيتيمرج في ٢٣ يناير (كانون الثانى) ١٥٤٦ . لم تكن كاثى سعيدة بهذه الرحلة وخاصة عندما رأت زوجها يغادر البيت في فصل الشتاء القارس البارد وهى تعرف أن صحته الضعيفة لا تحمل عناء السفر المضنى المتعب في الشتاء . ولقد اقترح لوثر على كاثى (كاترين) ان يصطحب معه أولاده معه لكى ينتهزوا هذه الفرصة لزيارة عمهم يعقوب في مانسفلد . ووافقت زوجته فانطلقوا في طريقهن الى مسقط رأسه . وبعد رحلة طويلة متعبة شاقة في فصل الشتاء القارس البرودة وصل الموكب في ٣١ يناير (كانون الثانى) أيسلبن وهناك قام لوثر يوم الاحد بخدمة الوعظ في نفس الكنيسة التى عمد فيها من حوالى ٦٢ سنة كما انه وعظ أيضاً في نفس الكنيسة في يوم ٧ ، ١٤ فبراير (شباط) ثم قام بسيامة خادمين جديدين . وفي يوم ١٤ كتب خطاباً رقيقاً لكاترين وكان هذا آخر خطاب يكتبه لها .

وفي يوم ١٦ فبراير (شباط) وصل الى حل لمشكلات العائلات المنقسمة بسبب الميراث ووقع الجميع على عقد الاتفاق والصلح وفي نفس اليوم شعر لوثر بحالة ضعف عام في جسده وعندئذ ذهب الى حجرته لكي يستريح . اخذ ورقة وكتب عليها هذه الكلمات ... « نحن متسولون وهذه الحقيقة »^(١) وكانت هذه هي آخر كلمات كتبها المصلح العظيم بيده .

لقد استيقظ في الليل (يوم ١٧) على آثار آلام شديدة جداً . كان لوثر مازال يعاني من جرح قديم في ساقه كما أنه كان يشكو من مرض الكلى وبعض الأمراض الأخرى . وفي الظهر تناول طعام الغداء وفي مساء اليوم نفسه بدأ يصلي كعادته بصوت عال أمام النافذة المفتوحة ... وبعد الصلاة فأجأته أزمة سعال حادة . وعندئذ حضر الطبيب مع اصدقائه وأعطى له بعض العقاقير وبدأ يشعر بشيء من الراحة ثم نام قليلاً . وعندما استيقظ في الساعة الواحدة صباحاً ، تكلم مع اصدقائه ، ثم طلب أن يتوكأ على أحدهم لكي يتمشي قليلاً ، ثم رجع الى سريره . وكان بالقرب منه ولداه مارتن وبولس اللذان حضرا معه من فيتمبرج وعدد كبير من الاصدقاء مثل القس يونان وكوليوس واوريفاء ، والكونت وزوجته .

كان المصلح يردد من وقت لآخر بعض الصلوات وبعض النصوص الكتابية مثل « هكذا احب الله العالم .. » وغيرها . كان يتلو هذه النصوص بالألمانية واللاتينية وكذلك كرر عدة مرات كلمات السيد « ياأبتاه في يديك أستودع روحي » (لو ٢٣ : ٤٦) وكان بالقرب منه صديقه الحميم والزميل المحبوب القس يونان وهو الذي سجل للأجيال اللحظات الأخيرة من حياة المصلح . ويلاحظ الدارس لحياة لوثر أن هناك عدة نصوص لصلواته الأخيرة ، وان المتخصصين في اللوثريات يعتقدون بان لوثر قد صلى فعلاً عدة مرات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . فمن المحتمل أن لوثر نطق بها كلها .

وبعد أن صلى المصلح العظيم المجاهد واحدة من هذه الصلوات العديدة التي ذكرها الكثيرون بدأ وجهه كمصباح يخفت نوره رويداً رويداً . وعندئذ اقترب منه القس جاست يونان وسأله قائلاً : « ايها الاب الموقر هل تريد أن تموت وانت معتمد على يسوع المسيح ومتمسك بالتعاليم التي علمت بها ؟ فبعد أن هدأت انفاسه قال بصوت واضح ومرتفع سمعه الذين كانوا حوله ، نعم وبعد نصف ساعة من هذا الرد الواضح المسموع بدأت تخفت انفاسه وتحمد حركته وقرب الاطباء الشمعة من أنفه عدة مرات فادركوا بأنه قد فارق الحياة .

انطلق الرجل الى المجد في حوالى الساعة الثالثة صباحاً من يوم الخميس الموافق ١٨ فبراير (شباط) ١٥٤٦ في المدينة التي ولد وتعمد فيها . وهكذا مات لوثر ، ولكنه وان مات يتكلم بعد .

وانتشر خبر وفاة لوثر سريعا إذ قام الاصدقاء بالكتابة الى كاترين والى اخيرين . ورفض الملك طلب كونت مانسفيلد الذى أراد أن يدفن جسد المصلح فى المدينة التى ولد فيها . وتمسك الملك بدفنه فى فيتمبرج المكان الذى جعل منه لوثر منارة للانجيل .

وسار موكب جنازة المصلح الالماني الى فيتمبرج ولقد تعالت على طول الطريق دقات اجراس يودعون الوداع الاخير . ووصل الموكب الى المدينة الساعة التاسعة صباحاً من يوم ٢٢ فبراير (شباط) وفى فيتمبرج اقتربت جثته من باب الكاتدرائية التى علق عليها بنوده الـ ٩٥ والتى هزت قوات ذلك العصر وغيرت الاوضاع فى المانيا وفى بلاد اخرى كثيرة .

لقد خرجت المدينة عن بكرة ابيها شعبا واساتذة والمنتخب وحاشيته لكى يستقبلوا ويودعوا فى نفس الوقت المصلح العظيم . وألقى بوميرانوس (Pomeranus) عظة باللغة الألمانية عن الآيات التى وردت فى الرسالة الأولى الى اهل تسالونيكي (٤ : ٤ - ١٦) ثملقى ملائكثون عظة قصيرة باللغة اللاتينية وملخصها : « اختفت مركبة اسرائيل ، اختفى قائد اسرائيل ، الذى كان يقود الكنيسة التى مرت فى الايام الاخيرة بفترة حزينة . ان اكتشافه لعقيدة غفران الخطايا بالايمان بابن الله لم يكن ثمرة الذكاء والتفكير البشرى ، بل أن الله نفسه الذى أقام لنا هذا الرجل لكى يعلن لنا هذه الحقيقة . فلنحفظ هذه الذكرى ولنحتفظ بهذه العقيدة ... ياابن الله ياعمانوئيل الذى صلب من اجلنا وقام تكرم واحفظ وارع واحم كنيستك » .

وبعد انتهاء الخدمة رجع كل الى منزله وقد ملأ الحزن قلوب الاصدقاء والاحباء على فراق صديق حميم وأخ محب وأب مرشد . اما حزن كاترين واولادها فقد فاق حزن الجميع . لكنهم كانوا ينتظرون جميعا رجاء القيامة حيث لا سلطان للموت فيما بعد . بقيت كاترين مع بعض من اولادها فى الدير الاسود* الذى كانت تسكنه العائلة قبل موت المصلح . وبما أن لوثر لم يترك لهم شيئا من متاع الدنيا ، كان على الأم الأرملة الفاضلة ان تعمل بيديها لسد حاجات العائلة المادية . ولقد تركت كاترين فيتمبرج فى سنة ١٥٥٢ بسبب وباء الطاعون وماتت ودفنت فى توركو (Torgau) ماتت بعد ست سنوات من وفاة زوجها لوثر .

أما الأولاد الستة : فإن مجدلين واليزابث ماتا فى سن مبكر قبل موت لوثر ومارتن لم يترك اطفالا بعد موته . واما يوحنا فقد ولدت له ابنة وماتت دون ان تترك ذرية . لكن ذرية بولس ومارجريت هى التى بقيت^(١) .

لقد مات لوثر وبكاه أحباؤه بكاء مرأ لأنه ترك فراغا عظيما فى كنيسته وفى بيته لكنه ترك كنزا عظيما من الكتب فهو وان مات يتلکم بعد . ترك ايضا كنيسة تحاول ان تكون أمانة لإلهها فى التمسك بالحق الالهى والمناداه به . لقد امتدت الكنيسة اللوثرية فى كل المانيا وفى

العالم كله تقريبا . والاحصائيات الاخيرة التى اجريت فى سنة ١٩٨٢ تظهر بان الكنيسة اللوثرية فى العالم تضم الآن سبعين ونصف مليون لوثرى . ولقد اتحدت معظم هذه الكنائس وكونت ما يدعى بالاتحاد اللوثرى العالمى ومركزه فى جنيف وهو عضو ايضا فى مجلس الكنائس العالمى .

هل كان يعلم البابا ليون العاشر عندما وقع على صك حرمان لوثر فى ٣ يناير ١٥٢١ بانه يوقع فى نفس الوقت على صك خروج ما يقرب من ثلث المسيحيين من الكنيسة الكاثوليكية الذين عرفوا فيما بعد بالكنيسة البروتستانتية ؟ .

هوامش الفصل الثاني والعشرون

1. A. Greiner, P. 197.

★ سمي بالدير الاسود لأن الرهبان الاغسطيين الذين كانوا يسكنون فيه كانوا يلبسون ملابس سوداء .

2. Singmaster P. 132.

الفصل الثالث والعشرون

نماذج من تعاليم لوثر

وان كان المجال لا يسمح بعرض كل التعاليم والنظريات التي نادى بها المصلح لأنها كثيرة ومتشعبة فأنا سنكتفى هنا بأن نقدم نماذج فقط من تعاليمه وحتى في معالجتنا لهذه النماذج سنضطر الى معالجتها بطريقة موجزة جداً ، ولنبدأ بمفهوم لوثر عن شخص المسيح (Christology) .

مفهوم الكرستولوجى :

يحتل شخص الرب يسوع المسيح مكانة هامة جداً في تفكير وتعليم المصلح الالماني . فيسوع هو الذى خلصنا من خطايانا وصالحنا مع الاب الغاضب ولقد تمت المصالحة لا لأن الانسان عمل أعمال بر وعلى رضى الله ، بل لان شخص المسيح يسوع قد مات بدل الانسان الخاطيء . ولا مجال للشك في ان ميلاد المسيح وموته حادثتان حقيقتان ولكن لوثر ينبر في كل كتاباته وعظاته وتعاليمه على ماهو أهم من معرفة أن المسيح يسوع ولد وعاش وعمل بعض المعجزات ومات ودفن وقام في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ...

هو أن يعتبر الانسان أن كل هذا قد حدث فعلا ولكنه حدث من أجله شخصيا^(١) وعليه أن يقبل هذه الحقيقة بالايان والسامع والقارىء الانجيل .

وفي كلامه عن الايمان يقدم لنا نوعين من الايمان :

النوع الأول :

الايمان التاريخي : أو ايمان المعرفة العقلية أى أن الانسان الذى يسمع الانجيل ويعرف تاريخ السيد وحياته ، يعرف أن يسوع ولد من مريم العذراء و يعرف أين عاش وكيف عاش وانه مات وقام الخ ... فإذا اكتفى بهذه الحقائق فقط أى المعرفة التاريخية ، فهذه المعرفة التاريخية العامة لاتقوده الى الخلاص . فإن كثيرين من الاشرار يعرفون ذلك وحتى الشياطين يعرفون هذه الحقيقة « فالشياطين يؤمنون ويقشعرون » (يع ٢ : ١٩)^(٢) .

النوع الثاني : فهو لا يتوقف فقط على المعرفة التاريخية لكنه يرى يسوع التاريخ حقيقة في حياتنا ، بمعنى الاعتراف به وقبوله سيداً ومخلصاً شخصياً وهنا يجب عدم الفصل بين المسيح العامل وبين أعماله . فان الاعمال التي قام بها المسيح في الماضي في زمن معين وفي مكان معين ، لكنه مازال حاضراً بشخصه ومازالت أعماله مستمرة حتى الآن فالمسيح الذي ولد من عذراء وعاش على الأرض وصلب وقام : عمل كل هذا من أجل الانسان وحياً فيه . فان مجيئه على الأرض لايعنى أنه قام برحلة سياحية أو ترفيهية ، بل جاء لكي يخلص الانسان ، جاء لكي يبذل نفسه فدية عن كثيرين (مز ١٠ : ٤٥) هذا سبب مجيئه^(٣) .

ففى نظر لوثر تكمن اهمية ماقام به المسيح فى أنه قام بها من أجلنا - وهذا ما شدد عليه ايضا - كارل بارت .

وفى كلامه عن السيد وعن ضرورة قبوله كالمخلص الشخصى ، حاول أن يعالج مشكلة تعرض لها أهل عصره كما يتعرض لها كثيرون فى العصر الحاضر ، وهى محاولة اقتفاء اثر خطوات يسوع المسيح أو اتخاذه كمثال . ولقد عارض المصلح الالماني هذه الفكرة فقد حاول الناس فى أيامه أن يتبعوا آثار خطوات السيد بطريقة حرفية فامتنعوا عن الزواج أو تركوا عائلاتهم بل تطورت الفكرة حتى ان البعض كان يجلد نفسه يوم الجمعة الحزينة من كل عام مع أن المسيح لم يجلد نفسه ...

هكذا علم البعض فى عصره بهذه التعاليم ، كما ان كارلستادت علم بانه يجب على الانسان ان يطهر نفسه من الامور العالمية قبل حلول الروح القدس عليه ...

رفض لوثر هذه الافكار وعلم بان يسوع المسيح هو عطية الله . وعندما نقبل هذه العطية بالايان من يد الله نصير خليفة جديدة ، وعندئذ فقط نستطيع ان نتخذ يسوع مثالا لنا لكي نتبع آثار خطواته . ونلاحظ هنا خوف لوثر المستمر من فكرة التبرير بالاعمال . فهو يخشى ان يعتقد الانسان الذى يريد أن يتمثل بيسوع فى حياته أن قيامه بهذا العمل يعتبر عملا استحقاقياً ينال عن طريقه الخلاص . والمؤمن لا يتبع يسوع لكي يخلص ، بل يتبعه لأنه يخلص بالايان الذى هو عطية الله المجانية .

وبما أننا فى مجال الحديث عن الخلاص يجب ان نسأل هذا السؤال . فهو يقدم لنا صورة لله الغاضب على شر الانسان^(٤) . والخطية فى مفهوم لوثر ليست مجرد كسر الناموس أو الوصايا العشر فحسب ، بل ان الخطية هى نسيان الله . فالانسان ينسى الله ويقيم من نفسه الها وهذا هو الشر بعينه الذى يجعل الله يعلن غضبه (رو ١ : ١٨)^(٥) .

فالله يعلن غضبه على شر الانسان ، والانسان لا يريد أن يعرف هذا أو حتى يسمعه .

كانت صورة الله في مخيلة لوثر قبل ان تتعامل معه نعمة الله صورة الإله الديان الذى لا يرى الانسان الا في خطاياه وآثامه وبعده عنه . ولكن بعد أن افتقدته النعمة اكتشف ان هذا الإله العادل المنتقم هو إله محب ورحيم أيضا . ولذلك كتب يقول : « وعندما رأى الآب الروؤف أننا متعبون ومرهقون من ثقل الناموس ، ومحروسون تحت لعنته ولا يوجد من يخلصنا من قبضته أرسل ابنه للعالم فحمل كل خطايانا .. وقال له وف انت عدلي .. »^(٦) .

فيسوع أخذ مكان الخاطيء ، أى أن البار القدوس والذى بلا خطية جعل خطية والخطيء الشرير أصبح باراً وهذه عملية المبادلة^(٧) كما يقول الرسول بولس (٢ كو ٥ : ٢١) .

ولقد شدد لوثر على ان المبادلة ليست عملية خيالية أو تمثيلية بل هى حقيقة ، فان يسوع وقد صار نائبا عن الانسان الخطيء تحمل غضب الله وتجرع الكأس حتى الثمالة : فإن المسيح اجتاز فعلا فى كل الآلام وتحمل كل العقاب الذى كان معلنا على كل أثيم خاطيء ، أخذ المسيح مكان الخطيء .. وقد رأى الله المسيح وقد حمل كل خطايانا فحجب وجهه عنه^(٨) .

ويرى لوثر أن الآلام التى مر بها المسيح لم تكن آلاما ، بل كانت آلاماً نفسية أيضا . وعندما يتعرض لشرح المزمور ٢٢ وبخاصة العدد الأول* « إلهى إلهى لماذا تركتنى » فهو لا يتفق مع المعلمين الذين يقولون بان المسيح لم يشعر بأن الآب قد تركه حتى يطلب منه بان يرجع اليه بل شعر أنه حرم من العون الإلهى فقط ، يرفض لوثر هذا المفهوم ، لانه يعتقد بان الله قد تركه فعلا وحيداً محتملاً كل دينونة خطايانا . لهذا السبب صرخ قائلاً : « إلهى إلهى لماذا تركتنى »^(٩) (اش ٥٣ : ١ - ١٢ ، ٢ كو ٥ : ٢١ ، غلا ٣ : ٣) .

فإن كان لوثر يقدم لنا المسيح حاملا خطايا العالم كله ، محتملا غضب الله المعلن على فجور الناس وأثمهم ، فانه لا يرى يسوع وقد تملكه اليأس والخوف والاضطراب ، وبدأ فى التجديف على الآب الأمر الذى كان يمكن أن يحدث مع أى واحد منا ، على العكس يرى يسوع - رغم ثقل الحمل - واثقاً فى محبة أبيه له وللعالم^(١٠) .

لقد تحمل يسوع آلام الخطية والموت ودينونة الله للخطية . على ان الخطية والموت لم يستطيعا أن يسحقا ذاك الذى أرادا أن يكون بديلا عن الانسان : أى يسوع بل العكس هو الصحيح فإن الابن قد استطاع ان يكسر شوكة الموت ويغلب الهاوية (١ كو ١٥ : ٥٤) لابل أمسك بزمام الحياة الأبدية^(١١) لكى يعطيها لمن يقبله مخلصا وفاديا . ان عملية الفداء لا تعنى ان المسيح قد منح الانسان الخطيء التائب والمعترف بالايمان الخلاص فقط ، بل قد اعطاه نفسه أيضا . وبناء عليه فالمسيح صار محرراً لنا وملكا علينا^(١٢) وبذلك أتت بنا عملية الخلاص الى علاقة جديدة بين المسيح والانسان وحياة جديدة فى المسيح .

وكما ان لوثر تكلم عن اعمال المسيح ، فقد تكلم عن شخص المسيح أيضا . فمن هو يسوع المسيح في مفهوم لوثر ؟

تمسك لوثر في كتاباته وتعاليمه بالكتب المقدسة ، كما أنه تمسك أيضا بآراء الآباء وبأقوالهم . فلقد اتفق مع الكنيسة الأولى في عقيدة التجسد . يسوع المسيح هو إله حق وانسان حق : رأى فيه انساناً كاملاً .

كان يسوع الناصري انسانا مثل كل انسان ، ولا يجب بأي حال من الأحوال فصله عن الانسان الا فيما يختص بالخطية والنعمة . إذ أنه كان بلا خطية وهو الوحيد الذي استطاع أن يقول : « من منكم يكتنني على خطية » (يو ٨ : ٤٦) كما انه كان مملؤا نعمة وحقاً (يو ١ : ١٤) ففي طفولته كان طفلاً كبقية الأطفال ، وبما أنه يوجد أطفال أذكاء ومتوسطي الذكاء واغبياء ، فإن يسوع كان طفلاً ذكياً^(١) كان ينمو في القامة والحكمة (لو ٢ : ٤٢)^(٢) وكان يتصرف في حياته اليومية كما يتصرف أى طفل آخر . كان يطيع أمه وينفذ أوامرها بمحبة وخضوع^(٣) كان انساناً حقيقياً جاع فأكل عطش فشرب فرح وحزن تألم بما يتألم به الناس ، لقد كان فعلاً انساناً حقيقياً . على انه كان يعمل كل هذه الأشياء التي تتطلبها حاجات الانسان بحرية^(٤) . ثم يعلم لوثر بأن يسوع كان روحاً وجسداً ، من لحم ودم مثل ابراهيم^(٥) . وعندما يتكلم لوثر عن الروح فانه يريد بذلك أن الهرطقة التي ظهرت في القرن الرابع والتي علم بها الأسقف أبو لوناريوس فحواها : ان يسوع المسيح لم تكن له روح بشرية عاقلة مثل كل الجنس البشرى بل ان اللوغوس كان قد حل فيه محل الروح* كان المسيح إذا انساناً وانساناً كاملاً على أن يسوع المسيح لم يكن مجرد انسان فقط بل كان الله أيضا . لأنه « عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) ان الانسان يسوع لم يكن أولاً انساناً وصار فيما بعد إلهاً بل ان الله العظيم السامي تنازل وصار انساناً لكي يخدم الانسان بل صار عبداً^(٦) . ثم رجع لوثر الى الصورة المزدوجة التي استعملها القديس بولس الرسول في وصف تنازل الابن ورفعته فقد تنازل حتى صار عبداً ، وبعد هذا التنازل رفعه الله أو بالمعنى الاصح عاد الى المكان الذي كان فيه سابقاً ومنه جاء وهو مكان السموات والمجد (في ٢ : ٥ - ١١)

فان الشخص الذي تألم هو الله نفسه ، الذي جاء الى أرضنا ولبس بشرتنا وأصبح واحداً منا^(٧) فانه هو الكلمة الذي كان مع الآب منذ البداية .

« هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان .. » (يو ١ : ٣-٢) . ان الذي لا يعترف بهذه الحقيقة هالك .. لانه لا حياة بغير المسيح^(٨) فهو الذي غلب الهاوية والموت والخطية فهو إذاً الله بطبيعته .

وبما أن لوثر تكلم عن لاهوت وناسوت المسيح فقد تكلم عن اتحادهم أيضا . وهو يعتقد أن اتحاد الطبيعتين كان اتحاداً قويا ووثيقاً ، لدرجة أن الواحد كان يشترك في خواص الآخر . فان الكتاب ينسب ما هو خاص بالواحد الى الآخر ، بسبب هذه الوحدة القوية . فان ما كان يحدث للناسوت كان يشعر به اللاهوت وبالعكس . وان كل طبيعة من الطبيعتين تشترك مع الأخرى في خواصها وهذا ما يسمى في تاريخ الفكر المسيحي بنظرية (La Communication des Idioms) ولقد قبل لوثر هذه النظرية : نظرية الاشتراك في الخواص .

وبما أن اللاهوت والناسوت هما طبيعتان متحدتان معا في الاقنوم الثاني ، وبما أن الطبيعة البشرية ، الانسان تألم ومات . فيمكن القول أيضا بان الجزء الآخر من الاقنوم الذي هو اللاهوت تألم فاننا نقول جرح ابن الملك مع ان الذي جرح في ابن الملك هو ساقه فقط^(٢٣) وهذا يمكن تطبيقه على اللاهوت والناسوت . فمع أن الذي تألم ومات هو الناسوت وحده فاننا نقول صوابا بأن ابن الله قد صلب ومات^(٢٤) كما نقول ان الكلمة ولد في المذود .. ان الذي خلق كل الأشياء رضع ثديين ونام .

من هذه الأمثلة المذكورة يلاحظ القارئ أن تعليم لوثر تتفق كثيراً وتعاليم الاسكندرية ، إذ أن مدرسة الاسكندرية تكلمت عن موت الله في الجسد وكذلك عن سيطرة اللاهوت بطريقة تكاد تكون مطلقة على الناسوت وأما مدرسة أنطاكية فقد رفضت هذا المفهوم ولم تقبل أن تنسب الموت أو الآلام لله بل للانسان يسوع* وهنا قد بدأ الصراع العنيف بين انطاكية وبين الاسكندرية على المشكلة الكرستولوجية .

العشاء الرباني أو الأفخارستيا :

علمت الكنيسة الكاثوليكية منذ زمن بعيد بعقيدة التحول أو التغيير الكلي . فهي « تؤمن بان الخبز والخمر يتحولان الى جسد المسيح الحقيقي ودمه الحقيقي بعد ان ينطق الكاهن بالصلوات الخاصة بالتغيير . فإن مادة الخبز والخمر تتحول بعد الصلاة التي تدعى الصلاة الجوهرية بطريقة معجزية وسرية الى جسد المسيح (دمه ولحمه) وهذه العملية تسمى بالتحول أو التغيير (Transsubstantiation) ويمكن ترجمة هذا الاصطلاح الى العربية بالقول تحول أو تغيير وليس (استحالة) الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح وبدراسة هذا الاصطلاح لغويا يمكننا القول بان مادة الخبز والخمر تحولتا جزئيا الى جسد يسوع . فمع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزا وخمرا ولا يفقدان أى شيء من خواصهما الطبيعية لا في الطعم ولا اللون الا انهما تحولتا بطريقة معجزية الى دم ولحم يسوع المسيح ... فجسد المسيح حل محل هذا الخبز وهذا الخمر ... »^(٢٥) .

هذه هي نظرية التحول أو التغيير الكلي والجزئي للخبز وللخمر . ولكن ظهرت في بداية

القرن الحادى عشر نظرية أخرى تنادى بالحضور المزدوج . (La, Conssubstantiation ou L'impanation) ومن الذين نادوا بهذه النظرية برانجر (Berenger) وكان ظهور هذه النظرية عاملاً دفع مجمع روما الذى عقد فى ١٠٧٩ فى وضع بعض التحديدات والتفاصيل العقائدية الخاصة بالتغيير أو التحول فى الافخارستيا . ولقد علمت مدرسة اسكوت بنظرية الحضور المزدوج وهذا التعليم لم ترفضه الكنيسة اجمالاً . وربما لهذا السبب نرى (بطرس الأثى) (Pierr d'ailly) ينادى بهذه النظرية فى سنة ١٢١٥ .

ونظرية الحضور المزدوج تعلم بان المسيح يحل فى الخمر وفى الخبز ، بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية ، على أن هذا الحل لا يعتبر حلاً بديلاً بل يعتبر حلاً ازدواجياً ، لان حلول المسيح فى هاتين المادتين الخبز والخمر لا يلاشى بأى حال من الأحوال الخبز والخمر . فالخبز مازال خبزاً والخمر مازال خمرأ بعد التقديس كما كانا قبله . على ان الكنيسة الكاثوليكية أعلنت فى سنة ١٢١٥ تمسكها بعقيدة التحول الكلى . وكذلك شددت عليه فى مجمع ترانث فى القرن السادس عشر .

وفى ١٣٨١ أى قبل أن يولد لوثر بحوالى مائة سنة تقريباً قام المصلح يوحنا ويكليف (John Wicliffe) فى جامعة اكسفورد بتقديم ١٢ بنداً للمناقشة وهى خاصة بموضوع الافخارستيا . ويحتوى أول بند من هذه القائمة على الجملة الآتية : « ان الصّافن الذى نراه على المذبح ليس هو المسيح ولا أى جزء منه بل هو عبارة عن علامة منه ، لها تأثيرها »^(٢٦) ولقد حكم على هذا المصلح وعلى تعاليمه بالهرطقة .

ولنرجع الآن الى لوثر ومفهومه لهذه العقيدة : يبدو أن المصلح قبل فكرة الحل المزدوج تدريجياً^(٢٧) وبعد ذلك علم بها ودافع عنها . ويمكننا أن نلاحظ هذا بسهولة فى موقفه من المصلح السويسرى زوينكلى وكارلستادت والواعظ الهولندى هونيوس (Honius) فإن هذا الأخير قد جاء الى مقاطعة الالزاس وسويسرا لكى يعلم بنظريته الخاصة بالتفسير الرمضى لكلمات المسيح فى العشاء الربانى . وفى ذلك الوقت لم يكن كارلستادت على وفاق مع لوثر فى بعض تعاليمه الخاصة بالعشاء الربانى كما ان زوينكلى لم يقبل أيضاً تعاليم لوثر فى نفس الموضوع وعندما سمع الشعب وعظ كارلستادت وهونيوس بدأ التساؤل . ثم كتب اهل استراسبورج خطاباً الى المصلح لكى يوضح لهم هذه المشكلة ، فى رده عليهم فى سنة ١٥٢٤ شرح لهم عقيدته الخاصة بالحلول المزدوج ، على أن موضوع العشاء الربانى لم يشغل باله بطريقة جديدة وعملية الا فى سنة ١٥٢٩ ، عندما حاول حاكم مقاطعة هس فيليب ، توحيد المصلحين لكى يكونوا جبهة واحدة للدفاع المشترك . وقد اراد أيضاً توحيدهم عقيدياً ولهذا السبب فقد دعى لعقد مجمع لحل بعض المشاكل السياسية والعقائدية تعمل على تفتيت صفوف الانجيليين انفسهم .

في هذا المؤتمر اظهر لوثر روح التمسك لا بل روح التعصب الشديد ضد الذين كانوا لا يتفقون معه في نفس الفكر ، أى بالحضور الحرفي لشخص المسيح في الخبز وفي الخمر . لقد علم كل من كارلستادت وزوينكلي وهونيوس بأن فريضة العشاء الرباني هي عبارة عن ذكر لموت وقيامه الرب . هو حضور المسيح في الجماعة المجتمعة حول الخبز والخمر .

فما هو مفهوم لوثر بالضبط في الافخارستيا ؟ تعرض لوثر لشرح هذه العقيدة في أماكن كثيرة من كتاباته وعظاته . ولقد سبق أن اشرنا الى كتابه الذي يدعى « أسر الكنيسة الباهلي » والذي تكلم فيه عن فريضة العشاء الرباني .

كان لوثر متمسكا متمسكا شديدا بنظرية الحضور المزدوج ويعتقد الكثيرون من العامة بان لوثر كان هو أول من نادى بنظرية الحضور المزدوج . ولكن سبقت الإشارة الى ان هذه النظرية لم تكن من اختراع المصلح ولكنها معروفة في الكنيسة الكاثوليكية لا بل علم بها بعض القادة الكاثوليك . وانطلاقا من هذه النظرية أراد المصلح الالماني أن يتخلص من عقيدة التحول أو التغير (Iransubstantiations) ونادى بعقيدة الحلول المزدوج (Consubstantiation) ولكي يثبت عقيدته في الحضور الحقيقي رجع الى النصوص الكتابية الآتية : (متى ٢٦ : ٢٦ - ٢٩ ، مر ١٤ : ٢٢ - ٢٥ ، لو ٢٢ : ١٥ - ٢٠ ، ١ كو ١١ : ٢٣) .

وبما أنه حاول تفسير هذه النصوص بطريقة حرفية فقد رأى أنها سهلة وبسيطة لدرجة ان طفلا صغيرا يمكنه أن يفهمها بسهولة وبلا عناء . (Greiner 171-172) فقد علم بان المسيح حاضر فعلا وحرفا في الخبز وفي الخمر . ولقد حاول المصلح ان يعرف حضور الله فهو يؤمن أن الله حاضر في كل مكان (Omnipresence) فهو الذي يملأ السماء والأرض الا أن هذا الحضور سطحي وبلا فاعلية لأن الذين لا يعرفون الله لا يدركون حضوره . الله حاضر في المسيح وفي الكنيسة وفي الخدمة وعند اعلان الانجيل يكون المسيح حاضرا لانه يوجد حيث يوجد الله الأب أو أنه يشترك معه في كل الصفات الإلهية . ولكنه حاضر بصفة خاصة في الخبز وفي الخمر^(٢٨) وقد رفض لوثر تفسير هذا الحضور بطريقة رمزية أو مجازية أو استعارية رفضا باتا ، وقال انه يجب ان نقبل هذه الحقيقة بالايمان وأن نقبلها حرفية ، كما نطق بها يسوع المسيح الذي قال « خذوا كلوا هذا هو جسدي هذا هو دمي » (مر ١٤ : ٢٢ - ٢٦) ويشدد لوثر على فكرة تناول الخبز والخمر : لا الخبز فقط كما هو متبع في الكنائس الكاثوليكية ، وبما أنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما ينص على أن الخبز ليس جسد المسيح يجب علينا إذن أن نقبل كلام السيد بكل بساطة كما نطق هو ، فلا يجب أن نغير الكلام بل نقبل حقيقة ان الخبز هو جسد المسيح وقال لوثر : « .. اننى واثق تماما بان الله لا يكذب ، وبما أن كلمته تعرفنا ان جسد ودم يسوع موجودان في هذه الفريضة فيجب تصديق هذا

الأمر » ومن هذا النص ومن نصوص أخرى كثيرة يبدو لنا جليا اعتقاد لوثر بوجود المسيح الفعلي والحرفي في الخبز وفي الخمر .

وهنا قد نتساءل ما الفرق إذن بين مفهوم الكنيسة الكاثوليكية ومفهوم لوثر ؟ سبق أن شرحنا ان الكنيسة الكاثوليكية تعتبر الخبز والخمر غير موجودين بعد عملية التقديس انما الموجود فعليا هو جسد ودم يسوع . أما لوثر فقد علم بان الخبز والخمر موجودان ، والجسد والدم يحلان فيهما وبحسب مفهومه عندما نتناول العشاء الرباني نتناول جسد الرب ودمه في هذا الخبز الذى مازال خبزاً وهذا الخمر الذى مازال خمراً . فلم يطرأ عليهما أى تغيير . وهذا هو الحضور المزدوج .

ولكى يشرح هذه العقيدة : عقيدة الحضور المزدوج ، رجع لوثر الى مشكلة التجسد لكى يتخذ منها مثالا . فعندما تجسد ابن الله فى يسوع وعندما حل اللوغوس (اللاهوت) فى الناسوت فإن ابن الله لم يتجرد من لاهوته لكى يصير انسانا . وهذا لا يعنى بان الناسوت تغير الى اللاهوت . فلقد احتفظت كل طبيعة من الطبيعتين بخواصها دون أدنى تغيير أو تبديل . لدرجة انه كان من الممكن القول بان هذا هو الله أو هذا الإله هو انسان^(٢٩) . هذا هو الافخارستيا بحسب مفهوم لوثر .

وهناك فرق بين مفهوم الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك العصر ومفهوم لوثر . فالكنيسة اعتقدت بان الافخارستيا هو سر (فريضة) من الأسرار التى يمكن للانسان عن طريق ممارسته الحصول على الخلاص .

اما لوثر فاعتقد بان هذه الفريضة ، وممارستها بدون ايمان لا تؤدي الى الخلاص باى حال من الاحوال . هنا يحاول لوثر ان يجرّد هذه الفريضة من الهالة العظيمة التى كللت بها كنيسة العصور الوسطى فريضة الافخارستيا والتى مازالت بقاياها حتى الآن . ان فاعلية هذه الفريضة لا تكمن فى ممارستها بل تتوقف على ايمان الشخص نفسه الذى يشترك فى هذا العشاء الرباني . فمثلا فى الكنيسة الأولى كان الرسل يعمدون البالغين . وهذا يعنى أن المعمدين لم ينالوا الخلاص عن طريق المعمودية ، بل أن الرسل كانوا يعمدون هؤلاء الذين آمنوا أولا بشخص الرب يسوع المسيح ، وكانوا يعمدونهم على أساس اعترافهم بقبول الرب يسوع كمخلص . فالعماد ، بحسب المفهوم الرسولى ، لم يكن بمنح الخلاص بل كان يجرى ليكون علامة خارجية وظاهرة وملموسة للذين حصلوا على الخلاص بواسطة ايمانهم واعترافهم بيسوع المسيح . وهذا ما يمكن تطبيقه أيضا على العشاء الرباني . فكما كانت فاعلية العماد فى العصر الرسولى تتوقف على ايمان المتعمد كذلك أيضا فان فاعلية العشاء الرباني تتوقف على ايمان المشترك فيه وليس على الفريضة نفسها أو على من يقوم بتقديمها . وهنا يلمس لوثر نقطة

في غاية الأهمية وهي أن حضور المسيح في الخبز وفي الخمر لا يتوقف على ممارسة هذه الفريضة ولا على قراءة بعض النصوص الكتابية فقط بل على إيمان الإنسان الذي يطلب هذا الحضور بثقة وإيمان - أولاً - في قلبه . فالإيمان لا الفريضة هو العامل الأساسي^(٣٠) فبالإيمان ، الذي هو عطية الله ، يصبح الخبز والخمر قناة يمر بها المسيح الى قلوب الناس ، ويقتبس لوثر قول القديس اغسطينوس : « لماذا تعد بطنك واسنانك ؟ آمن فقط فانت قد اشتركت في الفريضة »^(٣١) .

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى في مفهوم لوثر والكنيسة الكاثوليكية . فإن هذه الأخيرة قد اعطت أهمية عظيمة للعناصر ، لأنها طبعاً تعتقد بأنها تتحول الى جسد ودم المسيح ، لدرجة عبادتها ، حتى بعد القديس . اما لوثر فهو يعتقد بأن أهمية الفريضة قائمة ساعة ممارستها لإعلان الكلمة . لان المسيح حاضر في كلمته التي نطق بها « لانه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك اكون في وسطهم » (مت ١٨ : ٢٠) .

وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن فريضة العشاء الرباني ليست ذبيحة . لان المسيح قدم نفسه مرة واحدة كذبيحة كفارية عن العالم (عب ٩ : ١١ - ١٤) واما الذبيحة التي يجب أن يقدمها المؤمن فهي ذبيحة الحمد والشكر . هذه هي ذبيحة العهد الجديد . التي كاهنها كل مؤمن (كاهنا أم علمانيا) .

ولم يعترف لوثر بشرح حضور المسيح في الخبز والخمر بطريقة علمية أو منطقية ، ويقر أنه يجب ان نقبلها بالإيمان والايان وحده هو الذي يساعد المؤمن على ادراك حضور المسيح في الخبز وفي الخمر . ففي العشاء الرباني نجد الشركة المقدسة والرابطة القوية التي تربط أعضاء الجسد الواحد بالرأس الذي هو الرب يسوع المسيح ، رئيس الكهنة العظيم .

ان ما عرضناه هنا لا يعتبر الا عينات موجزة جداً من تعاليم المصلح الالمانى ، لعلها تكون حافزاً للكثيرين لدراسة حياة وتعاليم لوثر . وكما نتمنى أن يتناول عدد من الكتاب والمعلمين (اللاهوتيين) في بلادنا العربية من كل الطوائف ، كاثوليكياً وأرثوذكسياً وأنجيلياً هذا الموضوع والكتابة فيه بطريقة علمية واعية مدروسة ، هادئة وخالية من النقد ، الذي هدفه النقد والتجريح فقط ، بل تقديم النقد الذي للبناء في المحبة .

وهذا مقام به كثير من العلماء والمعلمين (اللاهوتيين) الكاثوليك في أواخر السبعينيات من هذا القرن إذ قدموا عن حياة لوثر وتعاليمه أبحاثاً دلت على عمق في التفكير وجدية ونزاهة في الاقتباسات واستعمال المراجع ومحادة صادقة وأمانة . وكانت انتقاداتهم تخلو من اللطف والركة والأدب وقد خلّت من الملق الرخيص الزائف . وكان ومازال لهذه الجماعات من العلماء الكاثوليك والمتخصصين في الدراسات اللوثرية التأثير العميق على الأوساط

الكاثوليكية والبروتستانتية مما أدى الى التطور الملحوظ في العلاقات المسكونية فقط على مستوى المؤتمرات والحوار العالمى والدولى والمنطقى ، بل أيضا على مستوى علاقات الكنائس المحلية التى تعيش فى مدينة أو فى قرية واحدة لدرجة أن الكاهن الكاثوليكي والقسيس الانجيلي يقومان حاليا بعمل اجراءات لممارسة خدمة الزواج معا للمتزوجين الكاثوليك والانجيليين وكذلك أيضا فيما يخص العماد لطفل من والدين مختلفي الطائفة وكذلك فى ممارسة العشاء الربانى (الافخارستيا) . ونأمل أن هذه الروح ، روح مجد المسيح يسوع وسيادته فوق الطائفية تسيطر على قلوبنا وعلى أفكارنا وحياتنا وعندئذ لا نرى الا يسوع وحده ، لأنه هو وحده الذى يستطيع ان يعطينا النور الذى به نستطيع أن نراه أيضا فى المؤمنين الحقيقيين فى كل كنيسة وطائفة .

هوامش الفصل الثالث والعشرون

1. WA 12, 285, 9.
2. WA 12, 285-6, 9.
3. WA 10, 1, 1, 20, 1
4. WA 10, 111, 127, 5.
5. WA 40, 172, 27.
6. WA 40, 437, 25.
7. WA 40, 438, 1.
8. WA5, 603, 14.

* سبق أن عرفنا بأن لوثر قد وصل بنعمة الله اكتشافه العظيم لعملية التبرير بالايمان عند دراساته للمزامير ورومية . بدأ في شرح المزامير أولاً في سنة ١٥١٣ - ١٥١٤ .

9. WA5, 621, 40.
10. WA5, 604, 23.
11. AW 10, 1, 2, 221, 26.
12. WA 10, 1, 2, 231.
13. WA 10, 1, 1, 67, 17.
14. WA 44, 5, 16.
15. WA, 10, 10, 1, 599, 1, 1, 446.
16. WA 37, 257. 14-19.
17. WA 17, 11, 249, 6.
18. WA 7, 593. 3.

أنظر كتابنا المجلد الأول الدكتور حنا جرجس الخضرى . « يسوع المسيح عبر الاجيال » ص ٦٦٧ - ٦٧٦
ثم المجلد الثانى الذى سيظهر قريباً .

19. WA 7, 599, 3.
20. WA 11, 148, 14.
21. WA 10, 1, 1, 143, 14.
22. WA 10, 198, 17; WA. 40, 111, 704.
23. WA 26, 320, 21-29.
24. WA 40, 111, 721, 27; 704.

* انظر كتابنا المجلد الثانى الذى سوف يظهر قريباً : « يسوع عبر الاجيال » .

* سبق أن اشرنا بخطأ استعمال كلمة استحالة . ويفضل ان نستعمل كلمة تحويل أو تغيير (انظر صفحة ١٦٩ من هذا الكتاب) .

(٢٥) د . حنا جرجس الخضرى « تاريخ الفكر المسيحى » المجلد الأول ، ص ٣٢٦ .

- 26. Strohl, Sa vie.. 206.
- 27. D.J. Deane P. 85, 887. Congar P. 86.
- 28. WA. 30, 223, 388.
- 29. WA. G. S11; 7. Congar. 89; Vajra, 93.

الفصل الرابع والعشرون

موقف الكنيسة الكاثوليكية والعلماء الكاثوليك من لوثر الآن ؟

لقد أصدر البابا ليون العاشر في يوم ١٥ يونيو (حزيران) عام ١٥٢٠ صكاً يهدد فيه لوثر بالحرمان . وفي يوم ٣ يناير (كانون الثاني) عام ١٥٢١ أصدر فعلاً صك الحرمان ضد لوثر وأصبح الراهب لوثر ، من هذا التاريخ محروماً . فما موقف الكنيسة الكاثوليكية حالياً من المصلح لوثر ؟ ولكي نجيب على هذا السؤال يجدر بنا أن نرجع الى التاريخ الذي سجل لنا ردود الفعل للحركة اللوثرية داخل الكنيسة . ويسجل لنا التاريخ موقفين على الأقل للكنيسة الكاثوليكية إزاء لوثر والاصلاح .

- ١ - موقف النقد اللاذع والرفض الكامل : فالابتعاد .
- ٢ - موقف الدارس المحايد والباحث الأمين : فالتقارب .

لقد ظهرت بعض الكتب التي كانت هاجمت لوثر وتعاليمه في حياته وبعد موته . وأهمها كتاب كتبه كاهن نكاثوليكي الماني يدعى يوحنا كوكلاوس (Jean Cochleaus) وظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٩ أى بعد ثلاث سنوات من موت لوثر . وكان هذا الكاهن من أتباع مذهب « الانسانية » (Humanism) ولقد تعاطف بداية الأمر مع لوثر الا انه سرعان ما انقلب ضده وانضم الى واحد من ألد اعدائه وهو يوحنا آك . وقد لاحظ كوكلاوس أن عددا كبيرا من الكاثوليك كان يؤمن بان لوثر كان رجلاً تقياً وصالحاً . ولهذا السبب كتب كتابه هذا^(١) لكي يعطي صورة أخرى عن المصلح ففي وضعه له استخدم الاسلوب الذي كان يستخدمه أهل عصره أى اسلوب المهجاء اللاذع القاسى غير اللائق أدبياً . فقد قال فيه : « ... ابن شيطان ويسكن فيه ابليس ، وقد امتلأ بالكذب والكبرياء ، كان حقه وغيرته على تنزل هما السبب في احتجاجاته وثورته ... كان سكيراً وشهوانياً ، كان مجرداً أيضاً من الضمير وبناء عليه فقد استخدم كل الوسائل واستحسنها ... فهو رجل كذاب ... مرأى ... جبان ... مشاغب ... وليس فيه نقطة واحدة من الدم الألماني »^(٢) .

هذه هي الصورة التي رسمها الكاهن كوكلاوس للراهب الاغسطيني لكي يصحح بها ،

كما اعتقد الافكار غير الصحيحة التي انتشرت في عصره عن لوثر على أنه رجل تقى وصالح .
ولقد استطاع كوكلاوس لا أن يصحح الصورة في اذهان معاصريه ، بل أن يعطى صورة
سوداء مشوهة غير حقيقية قد لصقت في أذهانهم واذهان الاجيال التالية ضد المصلح الالماني .
كما سنرى ذلك فيما بعد ، والاثر الذي تركه هذا الكتاب على مر العصور والأجيال على
الكنيسة الكاثوليكية .

وبما أن الوقت والمكان لا يسمحان لنا بتتبع تطور موقف الكنيسة الكاثوليكية من لوثر
منذ عصر الاصلاح الى الآن . فاننا نكتفى بتحليل موقف الكنيسة الكاثوليكية من لوثر في
القرن العشرين .

سبق الاشارة بان كتاب كوكلاوس ترك في الكنيسة الكاثوليكية تأثيراً عميقاً وعداوة
مستديمة ضد المصلح الالماني ، واستمرت هذه العداوة اجيالا طويلة . وهنا يظهر من جديد
تلميذ متحمس لكوكلاوس وعدو لدود للوثر وهو هنريش دانيفل (Heinrich Denifle)
وهو عالم دومينيكانى كتب مجلداً ضخماً (حوالى ٨٦٠ صفحة) ظهر في مدينة مانيس
(Maxence) في المانيا سنة ١٩٠٤ ثم ترجم الى اللغة الفرنسية سنة (١٩١٠ - ١٩١٣)
تحت عنوان (Luther et Le Lutheranisme) لوثر واللوثرية وفي معرض كلامه عن المصلح
اتبع نفس الاسلوب الذى نهجه كوكلاوس ويمكننا أن نلخص في نقطتين الأولى هي أن لوثر
شخص مغامر مخاطر والثانية أنه لم يكتشف أى شيء جديد لا في التعليم ولا في الاختبار . ثم
وصفه بأنه « بهلوان » جاهل متكبر .. مضطرب .. نفيسا .. مرأى .. فاسد الأخلاق .. ولم
يستطع ان يقوم بواجباته كراهب فترك الدير والقى بنفسه في هذه المغامرة البائسة . وبهذا
جدد دانيفل ثورة كوكلاوس ضد لوثر . ولقد خاطب لوثر قائلا : « لا يوجد فيك أى شيء
إلهي .. » ثم حث الشعب الكاثوليكي بالقول : « تخلصوا من لوثر وارجعوا الى الكنيسة » .
ولقد ترك هذا الكتاب تأثيراً سيئاً جداً في الاوساط البروتستانتية .

وجاء بعد دانيفل الدومينيكانى مناضل آخر مضاد للوثر هو هارتمان جريزار (H. Grisar)
وهو يسوعى وكان استاذاً في جامعة ينسبروك بالمانيا من سنة ١٨٧١ حتى ١٨٩٥
والف ثلاثة مجلدات تزيد على ٣٦٠٠ صفحة بعنوان « لوثر » ولم يستعمل الاسلوب الجاف
القاسى في هجومه على لوثر ، بل حاول أن يستخدم اسلوباً معسولاً لكن هذا الاسلوب
الرقيق كان يخفى سما قاتلاً في داخله فهو يؤيد دانيفل في نظريته بان لوثر لجأ الى عقيدة التبرير
بالايمان لانه لم يستطع أن ينظم حياته بالطريقة التي تتيح له الحصول على هذا البر ، لأنه يعيش
حياة الفساد .. ولذلك فقد اختلق عقيدة التبرير بالايمان بعد ان فشل في تنفيذ نذوره الرهبانية
تلاميذ دانيفل وجريزار^(٣) .

وجاء بعد دانيفل وجريزار : كريسياني (Cristiani) الذى جمع أبحاثه عن لوثر فى كتابه دعاء « لوثر واللوثرية » كما فعل دانيفل وبعد ثلاث سنوات من ظهور هذا الكتاب اعد رسالة - للحصول على درجة الدكتوراه - بعنوان « من اللوثرية الى البروتستانتية » وفى كلاهما يقدم راهب فيتمبرج كشخص ضل السبيل وانقطع عن الصلاة فصار شقياً تعسا فى حياته ، كما أنه كان السبب فى بؤس وشقاء الشعب الالماني^(١) إذ انه دفع هذا الشعب فى معارك أهلية مريعة مثل حرب الفلاحين . ووصفه بنفس الصفات التى وصفه بها سابقوه وهى التكبر وحب المال والخراب النفسى والكذب والمراة وقام أيضاً تلميذ آخر من تلاميذ دانيفل وهو باكيير (Paquier) ضد لوثر وتعاليمه وهو يعتبر من اكبر المتخصصين فى دراسة عصر الاصلاح فى الكنيسة الكاثوليكية . وهو الذى قام بترجمة المجلد الأول من كتب دانيفل من اللغة الالمانية الى الفرنسية (١٩١٠ - ١٩١٣) وسلك نفس المسلك الذى اتبعه سابقوه فى نقد لوثر وتعاليمه ولم ينتشر تأثير دانيفل فى المانيا وفى فرنسا فحسب بل امتد أيضاً الى البلاد التى تتكلم الانجليزية . ولهذا فقد ظهر تأثيره فى بعض الكتب والمقالات الانجليزية^(٢) ويصف ف . أ . هار (F.O. Hare) فى كتابه المعنون « حقائق لوثر »^(٣) يصف لوثر بانه كان يعانى من مرض نفسى منذ صباه ، وقد التحق بالدير دون دعوة حقيقية وانه كان فاسد الأخلاق والايمان ، ويصف هار الفترة التى قضاها فى قلعة الفارتنبورج بأنها لم تكن فترة مشعة بل فترة فراغ وبؤس ومحاربات جنسية وقال ان لوثر كان على اتصال مستمر بالشيطان ، كما أنه اعتبر لوثر وكاترين بورا كآدم وحواء فهو زان ، وبطل كاذب ، نبي كاذب ومصلح كاذب ، يهدم ولايبنى كان مشوها وليس مصلحاً (He was a de Former, not a Reformer) فهو يهودا وهو عدو المسيح وخادم الشيطان ..^(٤) وهؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم وآخرين أيضاً ينعنون الاصلاح والمصلح بأوصاف مشينة مؤلمة ، ذلك لانهم لم يروا فى لوثر المصلح بل المفسد ، بل ان البعض ذهب ابعد من ذلك ، فأعتقد بأن واجبه ليس محاربة لوثر واتباعه فقط بل ومحاربة حتى الكاثوليك الذين يسعون الى الوحدة . وهذا مانادى به الاسقف « لفقر » الذى قام بمعارضة شديدة اللهجة للبابا بولس السادس^(٥) .

من هذا العرض السريع يتضح لنا أن بعض الكتاب الكاثوليك وقفوا وقفة المعارضين والرافضين لكن لحسن الحظ يمكننا القول بان هذه الجماعة لم تكن تمثل الكنيسة الكاثوليكية كلها . وقد تطور الموقف فى الخمسين سنة الماضية بشكل غريب وعجيب ، وهنا نأتى الى الموقف الثانى وهو : موقف الدارس المحايد والباحث الأمين .

عندما ننظر الى قائمة الذين حاولوا هدم الاصلاح وتعاليمه نتألم ونحزن لموقفهم ولكننا نشكر الله كثيراً فلم تكن هذه الجماعة المعارضة الرافضة كل الكنيسة الكاثوليكية . ففى هذه الكنيسة ومنها قامت جماعة اخرى لا تقبل تعاليم هؤلاء الذين ذكرناهم سابقاً . ويرجع

الفضل في ذلك الى عمل روح الله أولا : ثم ثانيا الى استاذ العقائد الألماني كيغل (F.X. Kiefl) وكان استاذ في جامعة فورتزبورج (Wurtzbourg) فلقد بادر بدعوة الكاثوليك الى تفهم أفضل لشخصية وتعاليم المصلح الألماني « لوثر » فعندما كانت الكنائس اللوثرية تحتفل بمرور أربعمئة عام على تاريخ تعليق لوثر لاحتجاجاته الخمسة والتسعين كتب استاذ العقائد كيغل مقاله عن مارتن لوثر^(١) اعلن فيها بصراحة ووضوح انه لايتفق قط مع دانيغل ولا مع جريزار في مفهومهما لشخصية وتعاليم لوثر بل يعتقد أن راهب فيتمبرج كان اسيرا فعلا للكتب المقدسة وللقدرة الإلهية . كما أنه كان يؤمن بان اكتشافه لعقيدة التبرير بالايان كان اكتشافا عظيما بحق على عكس مقاله دانيغل وأتباعه ويقول أنه من الخطأ وصف هذا الراهب بصفات لم تكن فيه ، فقد كان لوثر مسيحيا حقيقيا فهم المسيحية بطريقة عظيمة كما انه كان رجلا متعلما ومتعمقا يتمتع بعقريّة فذة وقد اختاره الله لكى يعلم كنيسة .

وبعد مرور اثني عشر عاما على هذا المقال جاء الفردفون مارتن (Alfred Von Martin) وطلب من حوالى عشرين استاذ لاهوتيا معاصرا من الكاثوليك والبروتستانت ، طلب منهم أن يكتبوا عن لوثر . ولايمكن بحث كل ماكتبه هؤلاء العلماء ، ولكن نكتفى بان نلقى نظرة سريعة على ماكتبه اثنان من الكاثوليك في هذا المجال :

١ - سباستيان مركل (Sebastian Merkle)

كان هو ايضا استاذ في جامعة فورتزبورج من سنة ١٨٩٨ - حتى سنة ١٩٣٣ وقد عرف كمؤرخ وعالم وكان يعتقد أن المؤرخ النزيه هو الشخص الذى يستطيع ان ينظر الى الامور بطريقة موضوعية وعلى هذا فقد طالب المؤرخين بان يعالجوا موضوع الاصلاح بهذه الطريقة وبهذه الموضوعية . فلا يجب التقليل من مكانة لوثر وتحقيره على أسس غير سليمة . ويضيف قائلاً انه من غير الممكن أن نثبت أنه كان واحداً من الاباجيين أو الثوريين . فإن الحركة التى قام بها لم يكن لها أى هدف آخر غير الهدف الدينى^(١) .

٢ - اما الدراسة الثانية فقدمها الكاتب انطون فيشر الذى رأى أن لوثر رجل مكافح ورأى فيه ايضا انه رجل صلاة وماذا يستطيع لوثر ان يعلمنا كرجل صلاة ؟ انه يعلمنا جميعا ان الله يظهر فى كلمته المكتوبة ، وقد كان يلتهم هذه الكلمة التهاما . ومنها تعلم ويعلمنا ايضا الصلاة . وبناء على هذا فان المصلح يدعونا لدراسة الكتاب بعهديه والتغذى به هذه هى الحقيقة الأولى التى يعلمنا اياها المصلح . اما الحقيقة الثانية فهى الصلاة الربانية التى تعبر عن الواحد ، التى يجب أن نصليها بنفس الروح التى صلى بها القديس اغسطينوس والقديس فرنسيس الاسيزى ومارتن لوثر^(١) .

وهناك كاتب آخر ليس من هذه المجموعة التى ذكرنا البعض منها هو هيرت جیدن

(Hubert Jedin) وكان استاذاً في جامعة بون من ١٩٣٣ - ١٩٤٩ قام هذا الاستاذ بتقديم عرض تاريخي تحليلي لمعظم المؤلفات الكاثوليكية التي ظهرت من ايام جانس (Janssen) في سنة ١٨٧٦ الى الثلث الأول من القرن العشرين . ثم انتقد كتابات دانيفل وجريزار نقداً لاذعاً ونفى وجود أى مؤرخ المالى يشاركهما الرأى فيما ادعياه من فساد وانحطاط اخلاق لوثر . كما أنه أشار بأسف شديد الى التأثير السئ الذى تركه هذان الكاتبان خاصة كتاب دانيفل « لوثر واللوثرية » على العلاقات المسكونية . واخيراً أشار الى أن الكاثوليكي الذى يريد أن يفهم لوثر على حقيقته عليه ان يترك الصورة التى قدمتها كنيسته عنه ويحاول درس شخصيته وتعاليمه بطريقة موضوعية^(١٢) محايدة وعلمية .

ان ماذكرناه سابقا من ظهور كيفل (Kiefl) الى جيدن (Jedin) لا يعد الا محاولات تفسيرية فبعد كل هذه المجهودات والدراسات ظهر كاتب اخر يعتبر حجة في التاريخ خاصة في فترة الاصلاح وهو الاستاذ جوزيف لورتز (J. Lortz) وقد ألف مجلدين (حوالى ٧٥٠ صفحة) ظهرا سنة ١٩٤٠ تحت عنوان « الاصلاح فى المانيا »^(١٣) . ومع ان البلاد كانت تمر في هذا الوقت بفترة عصيبة مؤلة وهى فترة الحرب ، الا ان لورتز استطاع ان يفرض نفسه على الناس فكان تأثيره فى بعض الأوساط أقوى من تأثير الحرب فقد قرىء ونوقش فى الأوساط الكاثوليكية والانجيلية . لقد حث الشعب على الحوار المسكونى . وفى سنة ١٩٤٨ حاول ان يلخص ماقد كتبه سابقا فليخصه فى كتابه اسمه « الاصلاح مشكلة اليوم » (The Reformation: A Problem for To-day) ثم نشر له ٤ محاضرات ، وقد بدأ لورتز بالحديث عن الكنيسة المعاصرة ، وكم هى فى حاجة أيضا الى اصلاح وقال انه إذا كان لوثر قد هجر كنيسة عصره فذلك لانه لم يجد فيها ماكان يحتاج اليه من امور اعتبرها جوهرية ومهمة وخاصة الايمان الحقيقى . كان لوثر رجلا تقيا وظهرت هذه التقوى فى حياته وتعاليمه . ومما لاشك فيه ان الكنيسة حكمت على لوثر بالهرطقة ... رغم أنه كان رجلا تقيا ، مسيحيا حقيقيا ، لقد عاش حياة الايمان العميق فى شخص يسوع المسيح ، معترفا ان يسوع المسيح هو ابن الله المولود من العذراء مريم وصلب ومات وقام لاجل خلاصنا ، وانه كان أيضا فى كل حياته رجل الصلاة والواعظ المتحمس لكلمة الله ولقد حمل لورتز الكنيسة الكاثوليكية جزءاً كبيراً من مسئولية الانشقاق الذى حدث فى القرن السادس عشر^(١٤) .

لقد كان لمؤلفات لورتز تأثيراً عميقاً جداً على الأوساط الكاثوليكية والبروتستانتية . لقد عبر بكتاباته هذه عن مفهوم الكثيرين عن لوثر . ويجدر بنا أيضا أن نقول أن لورتز قد انتقد لوثر بالرغم من المدح العظيم الذى مدحه به ، فهو يأخذ على المصلح أنه لم يكن - فى بعض الاحيان - سامعاً ومصغياً لكلمة الله ، كما انه لم يفهم - فى بعض الاحيان أيضا - المكتوب بطريقة صحيحة ولعلنا نشترك جزئيا مع لورتز فى هذا النقد لأن لوثر فعلا قد فهم بعض

الفصول الكتابية بطريقة متأثرة بمفهومه الشخصى لبعض المشاكل العقائدية .

وبعد اربع سنوات من ظهور كتابات لورتر الأولى ، نشر الاستاذ ادولف هرت (Adolf Herte) بحثا في ثلاثة مجلدات (حوالى ١٠٠٠ صفحة)^(١٥) كان مركزاً على الصورة الرديئة التى خلقها وكونها تفسير كوكلاوس للوثر فى الكنيسة الكاثوليكية . واننى شخصيا اعتبر ان هذا البحث من أهم الأبحاث وأعظمها لأنه قدم بطريقة علمية دقيقة وجادة فى أكثر من ٥٠٠ كتاب باللغة الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والهولندية والبولندية والانجليزية وقد خرج من بحثه بهذه النتيجة الرائعة وهى ان كل هؤلاء الكتاب الكاثوليك ، الا قلة ضئيلة جداً ، من الذين كتبوا عن لوثر وعن تعاليمه من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد رجعوا فى كتاباتهم الى الكتاب الذى نشره كوكلاوس فى سنة ١٩٤٩ ولقد سبق أن أشرنا فى بداية الكلام الى ان الكاهن كوكلاوس قد استخدم أولاً اسلوب العصر فى وصف المصلح ، بانه شيطان وابن شيطان .. وثانيا لم يكن كوكلاوس محايدا بل كان العضد الايمن لآك وهذا الاخير العدو اللدود والمطارد للوثر .

ان اهمية هذا البحث العظيم الذى قام به العالم « هرت » كامنه فى حقيقة ان المؤلف الكاثوليكي قد استطاع ان ينقب وان يفتش عن جذور هذه العداوة وعن اصل الصورة السيئة السوداء التى طبعت فى اذهان الكثيرين من الاخوة الاحباء الكاثوليك عن المصلح ، فوجد ان السبب كان اعتماد هؤلاء الكتاب فى كل العصور على كتاب كوكلاوس (Cocläus) وهكذا شوهت صورة لوثر وتعاليمه فى الاوساط الكاثوليكية بسبب كوكلاوس ، يالها من مأساة !!! .

وقد انتقد العالم هرت كتابات دانيفل وكتابات جريزار وكذلك كتابات كريستاني وبوكير الذين تأثروا ايضا بكتاب كوكلاوس وطلب من الكنيسة المصلحة اللوثرية والكنائس الانجيلية الاخرى ان تقوم من جانبها بعمل بحث دقيق لاكتشاف بعض الاخطاء التى ارتكبتها فى التطرف فى بعض الاحيان فى حكمها على ظلم الكنيسة الرومانية . ويجب ان يدرس الجانبان الكاثوليك والبروتستانت لوثر وتعاليمه بطريقة علمية تستند على الاحداث التاريخية الموثوق فى صحتها ومحايدتها .

لقد كان ومازال هذا البحث عميقا فى مادته ، قويا فى تأثيره . إذ انه ساعد الكثيرين من الكاثوليك على فهم المشكلة بطريقة افضل كما انه ساعد بعض الانجيليين ايضا على النقد الذاتى المخلص الامين وعدم التطرف فى نقد الكنيسة الكاثوليكية بطريقة غير صحيحة وغير انجائية .

وبما اننا فى مجال عرض تطور الفكر فى المفهوم الكاثوليكي لشخصية وتعاليم المصلح الالماني فلا يمكننا ان ننسى الاب لويس بويه (Louis Boyer) لانه يعتبر من افضل

المتخصصين الذين فهموا بطريقة صحيحة شخصية لوثر وتعاليمه فانه لم ير في الكنيسة البروتستانتية بدعة . كما وصفها حتى بعض المعتدلين بل بالعكس فقد اعتقد انها حركة روحية تحمل انجيلا صحيحا^(١٦) ثم تسأل عن ماذا اكتشف لوثر ؟ وأجاب بالقول : لقد اكتشف المصلح الحقائق الآتية :

١ - الخلاص بالايان :

أى بنعمة الله العظيمة ولا يمكننا ان نعتبر هذا التعليم هرطقة بل انه يتفق وتعاليم الالباء والجامع فعلى الكاثوليكى اذا تأيد للالباء والجامع ان ينضم الى عقيدة التبرير بالايان والمناداة بها . (ص ١٥ - ٥٥) .

٢ - الكتب المقدسة :

تمسك لوثر بالكتب المقدسة . وفى تمسكه بها والتشديد على استعمالها واعطائها السلطان اللائق بها فى الكنيسة .

لم يعمل الا ماحاول بعض الالباء القيام به امثال اغسطينوس .. ولا يمكن بان تحكم الكنيسة الكاثوليكية على شخص قد تمسك بتعاليم الكتاب المقدس ونادى بها بانه هرطوقى .. !! .

وفى نفس السنة (١٩٥٥) التى ظهر فيها هذا الكتاب ظهر كتاب آخر للاب أ . طافارد (Tavard)^(١٧) استنكر فيه الاسلوب الهجومى الذى قام به البعض فى وصفهم للمصلح . واعتقد انه من الظلم ان نرجع الى اقوال وكتابات وشتائم اعداء لوثر لكى نحكم على اساسها بهرطقته . فان كثيرين من العظماء والقديسين امثال جيروم والقديس برنارو ، عوملوا بنفس المعاملة التى قابلها لوثر من البعض فى القرن السادس عشر ورأى الاب طافارد فى لوثر راهبا تقيا . كان كل همهم الوصول الى الخلاص (١٠٠ - ١٠٤ من كتابه) ويقول الكاتب فبالرغم من بعض الالفاظ الجافة التى استعمالها لوثر ، فإن كتاباته تعتبر كتبا مسيحية واعظم مقام به : هو ترجمة الكتاب المقدس .

واثناء اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى ظهر مجلدان للاب فرانسوا بيوث (Francois Boit) بعنوان « من الجدل الى الحوار »^(١٨) وقدم هذا المؤلف نقدا ذاتيا اتسم بالشجاعة والامانة ، قال فيه ان كثيرين من الكاثوليك فهموا لوثر والاصلاح بطريقة خاطئة ، الأمر الذى يرجع الى الصورة الخاطئة التى قدمها كوكلاوس عنه ومازالت عالقة بالأذهان وفى حقيقة الأمر يعتبر اختبار لوثر الروحى اختبارا دينيا حقيقيا وانه من الخطأ ايضا الحكم عليه بالانفصال ، إذ انه لم يفكر فى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية أو أن يؤسس كنيسة جديدة . لقد كان يسعى جاهدا لا للخروج من الكنيسة بل لاصلاحها .

ولعل عدداً كبيراً جداً من القادة كتبوا في هذا المجال ولضييق الوقت لا يمكننا ان نتعرض لكل كتاباتهم ، على أننا نريد أن نختم هذه القائمة بذكر كاتب هو يوحنا م . تود (Jeah M. Todd) الذى الف كتاب بعنوان « مارتن لوثر » صدر في لندن (١٩٦٤) كان تود يرى في لوثر طالبا جاداً وعاملاً مجتهداً وراهباً تقياً وذكياً مرهف الحس والشعور تميز بالشجاعة مقدراً ومكرماً من رؤسائه . وكان يتمتع بموهبة القائد الناجح ويتفق تود مع بويه على أن عقيدة التبرير بالايان لا تناقض العقيدة الكاثوليكية الرسولية .

ومع أن لوثر قد ثار ضد التعاليم المدرسية الا انه ظل متمسكاً بكثير من تعاليم القرون الوسطى . لذلك فانه لم يرد ان يضرب عرض الحائط بالتعاليم القديمة وكان يرى أن التعاليم الجديدة التى اكتشفها في كلمة الله ستشع في الكنيسة فتثير لآخرين كما استنار هو أيضاً بها ، فان كان قد استنار فانه يريد أن يوصل هذا النور الإلهى الى الانسان المتألم والخاطيء لكى يتبرر بالايان في شخص الرب يسوع المسيح .

على أن تود له بعض المآخذ ضد المصلح فانه لم يتفق معه في افكار ذبيحة القديس وسلطان البابا والمجامع على ان هذا الكاتب لم يترك هذه النقطة الأخيرة دون أن يذكر ان موقف الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر يختلف تماماً عن موقفها آنئذ ثم رجع مرة ثانية الى مدح لوثر قائلاً : انه لم يكن « رجل ثورات » إذ أنه لم يحاول القيام بحرب أو مقاومة للسلطات القائمة في عصره كما أنه لم يرد أن ينفصل عن الكنيسة بل أراد أن يقدم تعاليمه للكنيسة وفي الكنيسة ولقد شبه تود لوثر بنبي ، فقال : « مع أنه لم يدع انه نبي الا ان السلطة التى كان يمارسها ، مارسها أنبياء العهد القديم ، وبهذه الروح أراد راهب فيتمبرج أن يكون مصلحاً في كنيسته »^(١٩) .

ثم تعرض الرجل الكاثوليكي المتدين لوصف حالة الكنيسة في ذلك العصر فقال انها كانت منهمكة في مشاكل سياسية عديدة وأرادت ان تحتفظ بالسلطان الزمنى والروحي معا . لذلك لم تعر في بداية الأمر الاهتمام اللائق بموضوع هذا الراهب الذى لم يكن مرتداً كما وصفه الكثيرون ... ويواصل الكاتب تعليمه فيقول أن لوثر لم يشك قط في السلطة الباباوية الا بعد ان اتهم بالهرطقة وكان لزاماً عليه من الناحية النفسية أن يقف ضد البابا على انه لم يفكر في تأسيس كنيسة جديدة . ويعتبر هذا الكتاب من أهم ماكتب في عصره في هذا الموضوع . فقد كان مثل كتاب « بويه وهرت » فعمل على تقارب الطوائف وتقديم مفهوم حقيقى على اساس علمى مدروس لشخصية وتعاليم لوثر .

وهنا يظهر السؤال الآتى :

مانتيجة هذه المجهودات الضخمة والكتابات العديدة في عدة بلاد وقارات ولغات ؟ ولعل

الاجابة على هذا السؤال تحتاج الى كتاب آخر ، على اننا سوف نذكر حادثة واحدة كثمرة واحدة من الثمار الكثيرة جداً التى يحاول هؤلاء الذين يطالبون بالسلام والوحدة الحصول عليها : وهى طلب رفع الحرمان عن لوثر : ماهذا الأمر ؟ وماذا تم فيه ؟ .

ففى ربيع سنة ١٩٦٣ قام « اللاهوتى » والقانونى ^(٢٠) الاستاذ فيلهلم ميكايليس (Wilhelm Michaelis) بتقديم طلب الى رئيس سكرتارية الوحدة المسيحية الكاردينال بيا (Bea) يلتبس من نيافته العمل على تصفية الرواسب التاريخية المتكدسة فى اعماق قلوب ونفوس الشعب الارثوذكسى واللوثرى منذ أجيال طويلة ، وللحصول على هذه النتيجة وللوصول الى السلام والوحدة فى الكنائس اقترح الآتى :

١ - الغاء الحرمان الذى صدر فى يوليو ١٠٥٤ ضد البطريركين المسكونيين فوتيوس (Photius) من القرن التاسع وميخائيل سرولير (Michel Serullaire) .

٢ - كذلك طالب برفع التهديد بالحرم التى أرسلها البابا ليون العاشر فى ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٥٢٠ ضد مارتن لوثر ، وكذلك رفع الحرم الذى اصدره نفس البابا ضد مارتن لوثر فى ٣ يناير (كانون الثانى) عام ١٥٢١ .

وفى يوم ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٦٤ وفى مدينة اثينا سلم المؤلف نسخة من هذه الاقتراحات الى : الاستاذ هاميلكاس س . اليفيزاتوس (Hamilkas S. Alivisatos) ونسخة اخرى الى البطريرك المسكونى اثنانمورس . كما سلم نسخا لاكثر من سبعين أبا من الذين اشتركوا فى مجمع الفاتيكان الثانى ، منهم ثلاثة وثلاثون كاردينالاً ، وأربعة عشر خبيراً وبعض الاساتذة . وأرسل عدد كبير من الخطابات والتشجيعات من بعض الكرادلة والاساقفة والآباء معبرين عن رغبتهم فى نجاح هذا المشروع واعدن بالصلاة من أجله .

وفى ٧ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٦٥ تقابل البابا بولس السادس والبطريرك المسكونى أثيناغوراس الأول وأعلنا معا :

١ - أسفهما على الكلمات الجارحة والتوبيخات التى لا اساس لها ، كذلك على الاحكام التى صدرت اثناء الاحداث الماضية .

٢ - رفع جميع أنواع الحرمان التى كانت نتيجة لهذه الأحداث .

٣ - أسفهما على هذه السوابق المحزنة وما نتج عنها من خلق جو من عدم الثقة وعدم التفاهم . الأمر الذى قاد الى الانفصال .

لقد كانت هذه المقابلة حادثاً تاريخياً مفرحاً ساهم فيه هؤلاء الذين كتبوا ودافعوا وعملوا كل مايمكن عمله ليتقابل الرجلان .

اما فيما يخص الجزء الثانى من الطلب وهو رفع الحرمان عن لوثر ، فقد واصل الاستاذ المحامى فيلهلم ميكائيليس مجهوداته وسعيه ، فلم يكتف بارسال هذا الطلب الى من ذكروا فقط بل أرسله الى بعض الأساقفة اللوثرين في المانيا أو السويد والدانمرك والنرويج والتمسا والبرازيل والاتحاد اللوثرى العالمى ... وبدأت المناقشات الطويلة بين الفاتيكان وهذه الاطراف المعنية وكان ملخص الرد النهائى الذى أرسله رئيس سكرتارية الوحدة المسيحية ما يأتى : « يرى قداسة البابا فيما يخص طلبكم بمارتن لوثر أنه من غير الممكن فى الوقت الحاضر التصريح باكثر ما صرح به رئيس منظمة الوحدة المسيحية أمام المجمع العام للاتحاد اللوثرى العلمى فى سنة ١٩٧٠ فقى مدينة افيان لبيان (Evian-Les-Bains)^(١) وكان الكاردينال فيليبراند (Willebrands) قد أعلن فى هذا المؤتمر باسم الكرسي الرسولى أن لوثر كان شخصية تتميز بالتقوى العميقة والاخلاص وانكار الذات فى البحث عن رسالة الانجيل . هذا ما قد أعلنه الكاردينال فيليبراند ، وهذا ما وصل اليه ايضا الاستاذ المحامى وقد تبدو هذه النتيجة ضئيلة امام الشخص الذى لا يعرف جيداً سوء التفاهم بل اقول أيضا الحروب التى كانت بين الكاثوليك والبروتستانت فى العصور الماضية والتى تركت فى النفوس وفى القلوب أثراً ليس من السهل محوه بسرعة : ان هذه النتيجة عظيمة مع ضآلتها ، عظيمة لأنها تنشر بالأمل والرجاء لمواصلة هذه الجهود التى بذلت من أول هذا القرن . اننا فى أول الطريق ولم نصل بعد الى نهايته .

ان الظروف التى اجتازتها الكنيسة أيام مارتن لوثر ، تختلف اختلافا كبيرا عن الظروف الحالية . فقد كان البابا يجمع بين يديه سلطة روحية ومدنية فى نفس الوقت . وكانت الكنيسة تريد أن تحتفظ بهاتين السلطتين مما جعلها فى بعض الاحيان تتخذ موقفا ملوما . وقبل ظهور لوثر كانت الكنيسة الكاثوليكية تتألم من جراحات الانشقاق الذى حدث بين اساقفتها وادعاء بعضهم الباباوية (١٣٧٨ - ١٤١٧) حين ظهر ثلاثة باباوات فى آن واحد . وكان البابا فى صراع مستمر ومميت ضد الانقسام وهذا ما ظهر فى مجمع بيز (Pise) سنة ١٥١١ - ١٥١٢ .

كما ان البابا ليون العاشر كان مهتدا ليس فقط بالانقسام بل بالموت أيضا . ألم تكتشف فى صيف سنة ١٥١٧ ، أى فى نفس السنة التى كتب فيها لوثر اعتراضاته . اكتشفت مؤامرة دبّت من الكرادلة ضده . فى هذه الفترة ظهر لوثر . وعند ظهوره رأى فيه البابا ويون تهديداً للبابا ولسلطانه . ولهذا وقف ليون العاشر امام لوثر وقفة المعادى والمطارد . ولهذا السبب واسباب اخرى ايضا نستطيع ان نجد نحن ارضية جديدة صالحة للحوار المسكونى فى القرن العشرين . لأن القرن الذى نعيش فيه الآن يختلف تماما عن العصر الذى ظهر فيه لوثر . والكنيسة الكاثوليكية الحالية تختلف عن كنيسة القرن السادس عشر . ونشكر الله من أجل

قاداتها وخدامها ، فلقد امتلأ الكثيرون منهم بروح البحث العلمى الصادق والتقوى الحقيقية والرغبة فى خلق جو حوار مسكونى مخلص امين لتوحيد الكنيسة المنقسمة الممزقة .

وقبل ختام هذا الكتاب يجب أن نلفت نظر القارى الى الحقائق الآتية :

١ - رغم أن العصر الذى نعيش فيه الآن يختلف عن العصر الذى ظهر فيه المصلح الألمانى إلا انه يشبه الى حد كبير الزمن الذى ولد فيه المصلح . فعلى المستوى العلمى : يعرفنا العلماء ان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى وصل اليه الباحثون والعلماء فى الثلاثين سنة الأخيرة يفوق فى أهميته وكميته وفعاليته كل ما اكتشف وعرف من علوم على مختلف انواعها وفروعها ، منذ أن بدأت الابحاث والاكتشافات الى سنة ١٩٥٠ .

وهذا يشبه الى حد كبير فترة الاصلاح والفترة التى سبقت ظهوره فقد كانتا فترتي ازدهار وتقدم علمى لم يعرف له العالم نظيراً . والدارس لهاتين الحقبتين من التاريخ يستطيع ان يدرك كما لو كان عدد كبير من العباقرة والعلماء كانوا على موعد فى هذا الوقت الذى ظهر فيه كل من : اراسم Erasme ، وبوديه Budè ، ورابليه Rabelais ، باراسلس Paracelse ، دورار Dürer ، ومخائيل انجلو Michel-Angelo ، وفينسي Vinci ، ورافائيل Raphaël ، وبرامانت Bramante ، وكورتز Cortez ، وماجلان Magellan ، وكولومب Colomb ، وكبرنيك Copernic ، وماكيافل Machiavel ، ولويولا Loyola ، وجون كلفن Jean Calvin وآخرون غيرهم .

٢ - لقد تميز ذلك العصر ايضا باختراع الطباعة مما سهل وسوف يسهل فى المستقبل طبع الكتب ونشر الافكار بطريقة سريعة .

٣ - فى ذلك العصر ايضا بدأت الكشوف الجغرافية التى غيرت بل قلبت بعض المفاهيم السياسية والدينية والتجارية .

٤ - ظهور بعض المصلحين قبل لوثر امثال فالدو (Valdo) وويكليف (Wiclef) ، وهوس (Huss) ثم سافونا رولا .

لقد كان ذلك العصر عظيماً باختباراته واكتشافاته . فعندما حاول الفارس الألمانى أولريتش فون هوتن (Ulrich von Hutten) فى القرن السادس عشر وصفه فلم يجد الا هذه الكلمات : « يالك من عصر جدير بأن نحياه » ولا نريد هنا الإسهاب فى المقارنة بين القرن الذى ولد فيه الاصلاح والقرن السابق له وعصرنا الحاضر ، ولكن نود أن نقول وقد واجه لوثر فى عصره مجتمعا متطوراً ، بل مضطرباً بسبب تطور العلوم

والفنون وقد استطاع ان يقدم رسالة حية مناسبة لهذا العصر المتطور المتقلب : وهذا ماتواجهه كنائسنا في العصر الحالى وتواجهه بلادنا العربية في جميع المجالات .

٥ - ملاحظة اخيرة في غاية الأهمية فيما يخص علاقاتنا المسكونية - هى قول الاب الاستاذ دانيال أوليفيه (Daniel Oliver) الكاثوليكي والمتخصص في الدراسات اللوثرية ومامعناه : ليس لوثر وتعاليمه ملكا للكنيسة البروتستانتية وحدها ، بل هما ملك للكنيسة الجامعة . ويناشد العالم الكاثوليكي والكنيسة الكاثوليكية بان تدرس تعاليم لوثر . بل انه ذهب أبعد من ذلك ، فقال : « لو وجد لوثر في عصر البابا يوحنا الثالث والعشرين وليس في عصر البابا ليون العاشر لاصلحت المسيحية كله » .

معنى هذا أنه لو كان البابا ليون العاشر الذى قاوم لوثر والاصلاح متمتعاً بنفس الروح التى كان يتمتع بها البابا يوحنا الثالث والعشرين من انفتاح في الفكر واتساع في الرؤيا وعمق في المحبة الأخوية - لقبل وقبلت الكنيسة معه الاصلاح الذى نادى به لوثر ، وظل هذا الاخير في كنيسته لانها قبلت الاصلاح الذى كان يسعى اليه ويتوق الى تحقيقه وقد حث الاب الاستاذ دانيال أوليفيه « الكنيسة الكاثوليكية » بأن تدرس بجد وامانة ، تعاليم لوثر من جديد وبطريقة موضوعية حيادية حتى تعرف حقيقتها مما يقود الى خلق علاقات جديدة لكى نحيا على اختلاف طوائفنا حياة جديدة لمجد المسيح .

فكما نشط هؤلاء الكتاب اقلامهم في الكتابة معلنين الوحدة المسيحية ، علينا نحن ايضا ان نسير على نهجهم .

ان العصر الذى نعيش فيه الآن يحتاج الى وحدة كاملة وترابط قوى وایمان عميق ومحبة صادقة بلا رياء لكى نستطيع معا ان نواجه تحديات المجتمعات المتنوعة من الحاد وكفر ومادية وتعصب .

ان المسيحية في جميع أرجاء العالم بجميع طوائفها ، تجد الآن نفسها امام هذه التحديات ، رغبت ذلك أو لم ترغب وأسلم طريق للتغلب على تحديات العصر هذه أيا كان لونها أو نوعها ، هو أن ننفذ بطريقة عملية وصادقة وأمينه صلاة الرب الشفاعية « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الاب فى وانا فيك ليكونوا هم أيضا واحداً فينا ليؤمن العالم أنك: أرسلتني » (يو ١٧ : ٢١)

هوامش الفصل الرابع والعشرون

1. Les Commentaria de actis et Scripis Martini Luther;
2. Cité par j. Lortz, **Die Reformation in Deutschland**, Tome 1, P. 193-262.
3. Richard Stauffer, **Les Catholicisme à la dè coouverte de Luther**, Edc. Delachaux et Niestle, P.11-38.
4. R. Stauffer, P. 19-20.
5. **The Catholic Encyclopedia**, Vol 9, N.Y. 1910, P. 438-458.
6. F.O. Hare, **The Facts about Luther**, N.Y. et Cincinnati, 1916.
7. F.O. Hare, P. 9-40.

للتوسع في هذا الموضوع إدرس أيضا :

H.O. Evennette, **The Reformation**, J. Clayton, **Luther and His work**, P. Hugues, **History of the Church. The Revolt against the Church.**

٨ - الدكتور حنا جرجس الخضرى . صراع بين البابا بولس السادس والاسقف لفقر - مجلة الهدى يونيو ١٩٧٧ .

9. Cité Par R.Stauffer, P. 55.
10. Cité par. R. Stauffer, P. 57.
11. Concilium Revue (14) P. 28, 29.
12. Concilium (14) P. 28, 29.
13. J. Lortz, **Die Reformation in Deutsch Land.**
14. Concilium Revue (14) P. 29-32.

★ ألم يقل عن رسالة يعقوب بانها قش ..

15. A. Herte, **Das Katholisch Lutherbild IM Bann der Luther Kommentare**, des **Coch Läus.**

١٦ - انظر كتابه ، كتب باللغة الفرنسية والانجليزية :

Louis Boyer, **Du Protestan tisme à L'Eglise**, **The Spirit and Forms of Protestantism**, London, 1956.

17. Tavard. A.A, **A La rencontre du Protestantisme (Trad. ang): Approach to Protestantism**, N.Y. 1955.

18. Franco is Biot, **De La Polémique au Dialogue**, Vol. 4. et 5, de la Collection «L'Eglise aux cent visages», Paris, 1963.

19. J. Todd 20 285-288.

20. Concilium Re.. (118).

21. Concilium R. (118), D. Olivier, P. 19, 20.

★ Le Christianisme Au 20^{ème} 5, ecle Lundi 23 Mà, 1983 N°. 21.

